

الجزء الرابع

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

وَصَلَّى اللّٰهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَبَدُّأً
فِي هَذَا الْجَزْءِ، بِعَوْنِ اللّٰهِ وَتَأْيِيدِهِ، بِالْقَوْلِ فِي جُمْلَةِ الدَّرَّةِ
وَالنَّمْلَةِ، كَمَا شَرَطْنَا بِهِ آخِرَ الْمَصْحَفِ، الثَّلَاثِ، وَلَا حَوْلَ وَلَا
قُوَّةَ إِلَّا بِاللّٰهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ.

خصائص النملة

قد علمنا أنّ ليس عند الدَّرَّةِ عَنَاءُ الْفَرَسِ فِي الْحَرْبِ، وَالذَّفْعُ
عَنِ الْحَرِيمِ، وَلَكِنَّا إِذَا أَرَدْنَا مَوْضِعَ الْعَجَبِ وَالتَّعْجِيبِ، وَالتَّنْبِيهِ
عَلَى التَّدْبِيرِ، ذَكَرْنَا الْخَسِيسَ الْقَلِيلَ، وَالسَّخِيفَ الْمُهِينِ،
فَأَرَيْنَاكَ مَا عِنْدَهُ مِنَ الْحِسِّ اللَّطِيفِ، وَالتَّقْدِيرِ الْغَرِيبِ، وَمِنَ
النَّظَرِ فِي الْعَوَاقِبِ، وَمَشَاكِلَةِ الْإِنْسَانِ وَمَزَاحِمَتِهِ.
وَإِنْسَانٌ هُوَ الَّذِي سُخِّرَ لَهُ هَذَا الْفَلَكَ بِمَا يَشْتَمَلُ عَلَيْهِ.

وقد علمنا أنّ الدَّزَّةَ تَدْخُرُ للشِّتَاءِ فِي الصَّيْفِ، وَتَتَقَدَّمُ فِي
حَالِ الْمُهْلَةِ، وَلَا تُضَيِّعُ أَوْقَاتَ إِمْكَانِ الْحَزْمِ، ثُمَّ يَبْلُغُ مِنْ
تَفْقُدهَا وَحُسْنِ خِبْرهَا وَالنَّظَرِ فِي عَوَاقِبِ أَمْرهَا، أَنَّهَا تَخَافُ
عَلَى الْحَبُوبِ الَّتِي ادَّخَرَتْهَا لِلشِّتَاءِ فِي الصَّيْفِ، أَنْ تَعْفَنَ
وَتُسْوَسَ، يَقْبَلُهَا بَطْنُ الْأَرْضِ، فَتُخْرِجُهَا إِلَى ظَهْرهَا، لِتُبَيِّسَهَا
وَتُعِيدَ إِلَيْهَا جُفُوفَهَا، وَلِيضْرِبَهَا النَّسِيمُ، وَيَنْقَى عَنْهَا اللَّحْنَ
وَالْفَسَادَ، ثُمَّ رُبَّمَا كَانَ، بَلْ يَكُونُ، أَكْثَرَ - مَكَائِهَا نَدِيًّا وَإِنْ
خَافَتْ أَنْ تَنْبِتَ تَقَرَّتْ مَوْضِعَ الْقَطْمِيرِ، مِنْ وَسْطِ الْحَبَّةِ،
وَتَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ ذَلِكَ الْمَوْضِعِ تَبْتَدِئُ وَتَنْبُثُ وَتَنْقُلُ، فَهِيَ تَفْلُقُ
الْحَبَّ كُلَّهُ أَنْصَافًا، فَأَمَّا إِذَا كَانَ الْحَبُّ مِنْ حَبِّ الْكُزْبُرَةِ، فَلَقْتَهُ
أَرْبَاعًا، لِأَنَّ أَنْصَافَ حَبِّ الْكُزْبُرَةِ يَنْبِتُ مِنْ بَيْنِ جَمِيعِ الْحَبُوبِ،
فَهِيَ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ مَجَاوِزَةٌ لِفِطْنَةِ جَمِيعِ الْحَيَوَانَ، حَتَّى رُبَّمَا
كَانَتْ فِي ذَلِكَ أَحْزَمَ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ، وَلِهَا، مَعَ لَطَافَةِ
شَخْصِهَا وَخِفَّةِ وَزْنِهَا، وَفِي الشَّمِّ وَالِاسْتِرَاوِحِ مَا لَيْسَ لِشَيْءٍ.

وربّما أكل الإنسانُ الجرادَ أو بعض ما يشبه الجرادَ، فتسقط
من يده الواحدةُ أو صدرُ الواحدة، وليس يرى بقُريه ذرّةً ولا
له بالذّرّ عَهْدٌ في ذلك المنزلِ، فلا يلبثُ أن تُقيل ذرّةٌ قاصدةً
إلى تلك الجرادِ، فترومها وتحاول قلبها ونقلها، وسحبها
وجرّها، فإذا أعجزتها بَعَدَ أن بلغتْ عُذْرًا، مضتْ إلى جُحرها
راجعةً، فلا يلبثُ ذلك الإنسانُ أن يراها قد أقبلتْ، وخلفها
صُوبحائها كالخيَطِ الأسودِ الممدودِ، حتى يتعاونَ عليها
فيحملنها، فأولُّ ذلك صِدْقُ الشَّمِّ لما لا يشتمُّه الإنسانُ الجائعُ،
ثمَّ بَعْدُ الهَمَّةُ، والجرأةُ على محاولةِ نقلِ شيءٍ في وِزْنِ
جسمِها مائةَ مرّةٍ، وأكثر من مائةِ مرّةٍ، وليسَ شيءٌ من
الحيوانِ يقوى على حملِ ما يكونُ ضعفُ وزنه مرارًا غيرَها،
وعلى أنها لا ترضى بأضعافِ الأضعافِ، إلّا بعد انقطاعِ
الأنفاسِ،

كلام النمل

فإن قلت: وما علّم الرَّجُلَ أَنَّ الَّتِي حاولتُ نَقْلَ الجِرادَةِ فعجزتُ، هي التي أُخْبِرْتُ صُوبِحَاتِهَا من الدَّرِّ، وأنها كانت على مقدّمتهن؟ قلنا: لِطُولِ التَّجْرِبةِ، ولأنّنا لم نرِ دَرَّةً قط حاولتُ نقلَ جِرادَةٍ فعجزتُ عنها، ثمّ رأيناها راجعةً، إلّا رأينا معها مُثْلَ ذلك، وإنّ كُنّا لا تَفْصِلُ في العين بينها وبين أخواتها، فإنّه ليس يقعُ في القلب غيرُ الذي قلنا، وعلى أنّنا لم نرِ دَرَّةً قط حملت شيئاً أو مضت إلى جُحرِها فارغةً، فتلقاها دَرَّةٌ، إلّا واقَعَتْها ساعة وخبرتها بشيء، فدَلَّ ذلك على أنّها في رجوعها عن الجِرادَةِ، إنّما كانت لأشباهاها كالرّائد لا يكذبُ أهلُهُ ومن العجب أنّك تُنكر أنّها توحى إلى أختها بشيءٍ، والقرآنُ قد نطق بما هو أكثرُ من ذلك أضعافاً، وقال رُوَيْبَةُ بن العجاج:

كُنْتُ عُلِّمْتُ كَلَامَ الحُكْلِ عِلْمَ سُلَيْمَانَ كَلَامَ التَّمْلِ
وقال الله عز وجل: "حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي التَّمْلِ قَالَتْ

تَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا التَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ
وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ، فَتَبَسَّمْ ضاحِكاً مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ
أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتِكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ" فقد أخبر القرآنُ
أنها قد عرَفَتْ سليمان وأثبتتُ عَيْنَهُ، وأنّ علّمَ منطقتها عنده،
وأنها أمرتُ صُوبِحَاتِهَا بما هو أَحْرَمُ وأسلم، ثمّ أُخْبِرَ أنها
تعْرِفُ الجنودَ من غير الجنود، وقد قالت: (وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)،
ونخالك أيها المنكرُ تبسّمُهُ بحالهنّ، أنّك لم تعرفَ قَبْلَ ذلك
الوقتِ وبَعْدَهُ، شيئاً مِنْ هذا الشكل من الكلام، ولا تدبّيراً في
هذا المقدار، وأمّا ما فوق ذلك فليس لك أن تدّعيه، ولكن، ما

تُنكِرُ من أمثاله وأشباهه وما دُونَ ذلك، والقرآنُ يدلُّ على أنَّ لها بياناً، وقولاً، ومنطقاً يفصلُ بين المعاني التي هي بسبيلها؟ فلعلها مكلفة، ومأمورةٌ منهيةٌ، ومُطِيعَةٌ عاصيةٌ، فأوّل ذلك أن المسألة من مسائل الجهالات، وإنَّ مَنْ دَخَلَتْ عليه الشُّبهة من هذا المكانِ لناقصُ الرَّويَّة، رَدِيُّ الفُكْرة. وقد علمنا، وهم ناسٌ ولهم بذلك فضيلةٌ في الغريزةِ وفي الجنسِ والطَّبيعة، وهم ناسٌ إلى أن ينتهوا إلى وقت البلوغ ونزول الفَرْض حتى لو وَرَدَتْ دَرَّةٌ لشَرِبَتْ مِنْ أعلاه.

شعر فيه ذكر النمل

استطرد لغوي قال أبو زيد: الحمكة القملة، وجمعه حَمَكٌ، وقد ينقاسُ ذلك في الدَّرَّة. قال أبو عبيدة: قرية النمل من التُّراب وهي أيضاً جُرثومة النمل، وقال غيره: قرية النمل ذلك التراب والجُحُر بما فيه من الدَّرِّ والحَبِّ والمازِن، والمازُن هو البيض، وبه سمَّوا مازن. قال أبو عَمْرٍو: الرِّبال ما حملت النملة بفيها، وهو قول ابن مُقبل :

التُّجَارِ حَمَى ظَهْرِهِ فَلَـم يُرْتَرَأْ بِرُكُوبِ زِبَالَا

شعر في التعذيب بالنمل

وأنشد ابن نُجَيْم:

بالرُّعافِ والنملِ بالنَّحسِ والصُّبابِ الدُّكُورِ

وقال الأصمعيّ في تسليط الله الدَّرَّ على بعض الأمم:

بالرُّهُويِّينِ فأمسوا ترى عُقْرَ دارهم بالمبينِ
الله فازرا وعُقيفا فجازاهُمُ بدارِ شَطُونِ
القارِّ والمسافرَتحت ظلَّ الهدى بذاتِ
مِنْهُمُ العُصُونِ

فازر، وعقيفان: صنفان من الدَّرِّ، وكذلك ذكروه عن دغفل

بن حنظلة الناسب، ويقال: إنَّ أهل تهامة هلكوا بالرُّعافِ

مرتين، قال: وكان آخرُّ من مات بالرُّعافِ من سادة قريش،

هشام بن المغيرة.

قال أمية بن أبي الصلت في ذلك:

الدُّكْرُ في الحياةِ وغنا وأراهُ العذابِ والتَّدميرا
الدَّرَّ والجرادَ عليهم وسينياً فأهلكنَّهُمُ ومُورا
الدَّرَّ إِنَّه يفعل الشرَّ وإنَّ الجرادَ كان تُبُورا

النبي سليمان والنملة

وقرأ أبو إسحاق قوله عز وجل: "وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ

الجنِّ والإنسِ والطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ"، حتَّى إذا أتوا على وادي

النَّمْلِ، فقال: كان ذلك الوادي معروفاً بوادي النمل، فكأته

كان حمى، وكيف تُنكر أن يكون حمى؟ والنملُ ربّما أُجِلتْ
أُمَّةٌ مِنَ الْأُمَمِ عَنِ بِلَادِهِمْ.
ولقد سألت أهل كسكر فقلت: شَعِيرُكُمْ عَجَبٌ، وَأَرْزُكُمْ
عَجَبٌ، وَسَمَكُكُمْ عَجَبٌ، وَجِدَاؤُكُمْ عَجَبٌ، وَبَطُّكُمْ عَجَبٌ،
وَدَجَاؤُكُمْ عَجَبٌ، فلو كانت لكم أعناب فقالوا: كلُّ أرضٍ
كثيرة النمل لا تصلح فيها الأعناب، ثمَّ قرأ: قَالَتْ تَمَلُّهُ يَا أَيُّهَا
النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِينَكُمْ فَجَعَلْ تِلْكَ الْجِوَارِيَةَ مَسَاكِينَ، وَالْعَرَبُ
تَسْمِيهَا كَذَلِكَ ثُمَّ قَالَ: لَا يَخْطُمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ فَجَمَعَتْ
مِنْ اسْمِهِ وَعَيْنِهِ، وَعَرَفَتْ الْجُنْدَ مِنْ قَائِدِ الْجَنْدِ، ثُمَّ قَالَتْ:
"وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ" فَكَانُوا مَعذُورِينَ، وَكُنْتُمْ مَلُومِينَ، وَكَانَ
أَشَدَّ عَلَيْكُمْ، فَلِذَلِكَ قَالَ: فَتَبَسَّمْ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا لَمَّا رَأَى
مِنْ بُعْدِ غُورِهَا وَتَسْدِيدِهَا، وَمَعْرِفَتِهَا، فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ: رَبِّ
أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ
أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ،

أمثال في النمل

قال: ويقال: أَلُطْفُ مِنْ دَرَّةٍ وَ: أَضْبَطُ مِنْ نَمْلَةٍ، قال: والنملة أَيْضاً: فُرْحَةٌ تَعْرُضُ لِلسَّاقِ، وَهِيَ مَعْرُوفَةٌ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، قال: وَيُقَالُ: أُنْسَبُ مِنْ دَرٍّ قَوْلٌ فِي بَيْتٍ مِنَ الشَّعْرِ فَأَمَّا قَوْلُهُ:

يَدِبُّ الْحَوْلِيُّ مِنْ وَلَدِ الدَّ رِّ عَلَيْهَا لِأَنْدَبَتْهَا الْكَلُومُ
فإنَّ الحوليَّ منها لا يُعرفُ مِنْ مَسَائِلِهَا، وإنما هو كما قال الشاعر:

حَوْلِيَّ الْحَصَى فِي الْحَيِّ أَمَسَتْ بِالْحَبِيبِينَ
بَلَقَعَا

قال: وحوليُّ الحصى: صغارها، فشَبَّهه بالحوليِّ من ذوات الأربع،

أحاديث وآثار في النمل

ابن جُرَيْجٍ، عن ابن شهاب، عن عُبيد الله بن عبد الله بن عتبة، عن ابن عباس، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: مِنَ الدَّوَابِّ أَرْبَعٌ لَا يُقْتَلْنَ: النَّمْلَةُ، وَالنَّحْلَةُ، وَالصُّرْدُ، وَالهُدْهُدُ، وَحَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْمَسْعُودِي، قال: حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ سَعْدٍ، مَوْلَى عَلِيِّ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قال: نَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْزِلًا فَانْطَلَقَ لِحَاجَتِهِ، فَجَاءَ وَقَدْ أَوْقَدَ رَجُلٌ عَلَى قَرِيَّةٍ تَمَلِي، إِمَّا فِي شَجَرَةٍ وَإِمَّا فِي أَرْضٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

مَنْ فَعَلَ هَذَا؟ أَطْفِئْهَا أَطْفِئْهَا، وَيَحْيَى بْنُ أَيُوبَ، عَنْ أَبِي
زُرْعَةَ بْنِ جَرِيرٍ، قَالَ أَنْبَأَنَا أَبُو زُرْعَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: نَزَلَ
نَبِيُّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ تَحْتَ شَجَرَةٍ، فَعَصَّتهُ نَمْلَةٌ، فَقَامَ إِلَى تَمَلٍ كَثِيرٍ
تَحْتَ شَجَرَةٍ فَقَتَلَهُنَّ، فَقِيلَ لَهُ: أَفَلَا تَمَلَّةٌ وَاحِدَةٌ؟.
وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ زِيَادٍ الْمَدَنِيُّ، قَالَ: أَخْبَرَنِي ابْنُ شَهَابٍ، عَنْ أَبِي
سَلْمَةَ ابْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ
اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: نَزَلَ نَبِيُّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ تَحْتَ
شَجَرَةٍ، فَقَرَصَتْهُ نَمْلَةٌ، فَأَمَرَ بِجَهَازِهِ فَأَخْرَجَ مِنْ تَحْتِهَا، ثُمَّ أَمَرَ
بِقَرْيَةِ النَّمْلِ فَأَحْرَقَتْ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: أَفِي أَنْ قَرَصَتْكَ نَمْلَةٌ
أَهْلَكَتْ أُمَّةً مِنَ الْأُمَّةِ يَسْبَحُونَ اللَّهَ تَعَالَى؟ فَهَلَّا نَمْلَةٌ وَاحِدَةٌ،
يَحْيَى بْنُ كَثِيرٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ الْمَغِيرَةَ بْنِ الْحَارِثِ
الرَّمَّانِيِّ، عَنْ هِشَامِ الدَّسْتَوَائِيِّ قَالَ: إِنَّ النَّمْلَ وَالْمَدْرَّ إِذَا كَانَا
فِي الصَّيْفِ كُلَّهُ يَنْقُلْنَ الْحَبَّ، فَإِذَا كَانَ الشِّتَاءُ وَخِفْنَ أَنْ يَنْبِتَ
فَلَقَتْهُ، هِشَامُ بْنُ حَسَّانٍ، أَنَّ أَهْلَ الْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ لَقُوا مِنْ
النَّمْلِ أَدَى، فَأَمَرَ الْأَحْنَفُ بِكُرْسِيِّ فَوَضِعَ عِنْدَ جُحْرِهِنَّ، فَجَلَسَ

عليه ثم تشهد فقال: لَسْتَهُنَّ أَوْ لُنْحَرَقَنَّ عَلَيْكَ، أَوْ لِنفَعَلَنَّ أَوْ لِنفَعَلَنَّ قَالَ: فذهبن، وعوف بن أبي جميلة عن قسامة بن زهير قال: قال أبو موسى الأشعري: إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ سَادَةً، حَتَّى إِنَّ لِلنَّمْلِ سَادَةً، عبد الله بن زياد المدنيُّ، قال: أنبأنا ابن شهاب، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: خَرَجَ نَبِيُّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ بِالنَّاسِ يَسْتَسْقُونَ، فَإِذَا هُمْ بِنَمْلَةٍ رَافِعَةٍ رَأْسَهَا إِلَى السَّمَاءِ، فَقَالَ ذَلِكَ النَّبِيُّ: ارْجِعُوا فَقَدْ اسْتَجِيبَ لَكُمْ مِنْ أَجْلِ هَذَا النَّمْلِ، مِسْعَرُ بْنُ كِدَامٍ، قَالَ حَدَّثَنَا زَيْدُ الْقَمِيِّ، عَنْ أَبِي الصَّدِّيقِ النَّجَاجِيِّ قَالَ: خَرَجَ سَلِيمَانُ بْنُ دَاوُدَ - عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - يَسْتَسْقِي فَرَأَى نَمْلَةً مُسْتَلْقِيَةً عَلَى ظَهْرِهَا، رَافِعَةً قَوَائِمَهَا إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ تَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنَّا خَلَقْنَا مِنْ خَلْقِكَ، لَيْسَ بِنَا غَنَى عَنْ سَقْيِكَ، فَإِمَّا أَنْ تَسْقِينَا وَتَرْزُقِنَا، وَإِمَّا أَنْ تُمِيتَنَا وَتُهْلِكَنَا فَقَالَ: ارْجِعُوا فَقَدْ سُقِيتُمْ بِدَعْوَةِ غَيْرِكُمْ. تَأْوِيلُ آيَةٍ وَحَدَّثَنِي أَبُو الْجَهَّاهُ قَالَ: سَأَلَ أَبُو عَمْرٍو الْمَكْفُوفَ

عن قوله تعالى: (حتى إذا أتوا على وادي النملِ قالت نملة يا أيها النمل اذخُلوا مساكنكم لا يحطمتكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون)، فتبسّم ضاحكاً من قولها فقلت له: إن نذيراً يعجب منه نبيُّ من الأنبياء ثمَّ يعظمُ خطره حتى يضحكه لَعَجيب قال: فقال: ليس التأويل ما ذهبت إليه، قال: فإنه قد يضحك النبيُّ، عليه السلام، من الأنبياء من كلامِ الصبيِّ، ومن نادرةٍ غريبة، وكلُّ شيءٍ يظهرُ من غير معدنه، كالتأدرة تُسمع من المجنون، فهو يضحك، فتبسّم سليمانَ عندي على أنه استظرف ذلك المقدار من النملة، فهذا هو التأويل

سادة النمل

وقال أبو الجهجاه: سأله عن قول أبي موسى: إنَّ لكلِّ شيءٍ سادةً حتى المدَّ، قال: يقولون: إنَّ سادتها اللواتي يخرجنَّ من الجحر، يرتدنَّ بجماعتها، ويستبقن إلى شَمِّ الذي هو من طعامهنَّ، تأويل شعر لزهير وقال زهير:

سأقضي حاجتي ثمَّ عَدُوِّي بألفٍ من ورائي
مُلجِّمٌ ولم تفرع بُيوتٌ لدى حيثُ ألقَتْ رَحْلها أمُّ
كثيرةٌ قشعمِ

قال بعض العلماء: قرية النمل استطراد لغوي قال: ويقال في لسانه حُبْسَة: إذا كان في لسانه ثِقْلٌ يَمْتَعُهُ من البيان، فإذا كان الثَّقْلُ الذي في لسانه من قِبَلِ العُجْمَةِ قيل: في لسانه حُكْلَةٌ، والحُكْلُ من الحيوان كَلَّهُ ما لم يكن له صوتٌ يُسْتَبَانُ باختلاف مخارجه، عند حَرَجه وضَجْرِهِ، وطلبِهِ ما يَغْدُوهُ، أو عند هِياجِهِ إذا أراد السَّفَادَ، أو عند وعيدٍ لِقِتالٍ، وغير ذلك من أمرِهِ.

رأى الهند في سبب اختلاف كلام الناس وتزعم الهند أن سبب ما له كثير كلام الناس واختلفت صُورُ ألفاظهم، ومخارج كلامهم، ومقاديرُ أصواتهم في اللين والشدة، وفي المدِّ والقطع كثرة حاجاتهم، ولكثرة حاجاتهم كثرت خواطِرُهُم وتصاريفُ ألفاظهم، واتسعت على قدر اتساع معرفتهم، قالوا: فحوائج السنانير لا تعدو خمسة أوجه: منها صياحُها إذا ضربت، ولذلك صورة، وصياحُها إذا دعت أخواتها وآلافها، ولذلك صورة، وصياحُها إذا دعت أولادها للطعم،

ولذلك صورة، وصياحها إذا جاعَتْ، ولذلك صورة، فلما قلَّت
وجوه المعرفةِ ووجوه الحاجات، قلَّت وجوه مخارج
الأصواتِ، وأصواتها تلك فيما بينها هو كلامها، وقالوا: ثمَّ من
الأشياء ما يكونُ صوتها خفياً فلا يفهمه عنها إلا ما كان من
شكلها، ومنها ما يفهم صاحبه بضروبِ الحركات والإشاراتِ
والشمائل، وحاجاتها ظاهرةٌ جليَّة، وقليلةُ العددِ يسيرة،
ومعها من المعرفة ما لا يقصِّر عن ذلك المقدار، ولا يجوزه،
وراضةُ الإبل، والرِّعاء، ورؤاضُ الدَّوابِّ في المُرُوجِ،
والسُّوَّاسُ، وأصحابُ القنصِ بالكلابِ والفهود، يعرفون
باختلاف الأصواتِ والهيئاتِ والتشؤُفِ، واستحالة البصرِ،
والاضطرابِ، ضرورياً من هذه الأصنافِ، ما لا يعرف مثله من
هو أَعقلُ منهم، إذا لم يكن له مِنْ مُعَايِنَةِ أصنافِ الحيوانِ ما
لهم، فالْحُكْلُ من الحيوانِ من هذا الشكلِ، وقد ذكرناه مرَّةً
قال رُؤبة:

أَنْبِي عُمَرْتُ عُمَرَ الْجِسْلِ أَنْبِي أوتيتُ علمَ الحُكْلِ

عَلَّمَ سُلَيْمَانَ كَلَامَ النَّمْلِ تَأْوِيلَ بَيْتٍ لِلْعُمَانِيِّ وَقَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ مُحَمَّدُ بْنُ دُوَيْبِ الْقُفَيْمِيِّ، وَهُوَ الَّذِي يُقَالُ لَهُ الْعُمَانِيُّ فِي بَعْضِ قِصَائِهِ فِي عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ صَالِحٍ، وَالْعُمَانِيُّ مِمَّنْ يُعَدُّ مِمَّنْ جَمَعَ الرَّجَزَ وَالْقَصِيدَ، كَعَمَرَ بْنِ لَجَأٍ، وَجَرِيرِ بْنِ الْخَطْفِيِّ، وَأَبِي التَّجَمِّ وَغَيْرِهِمْ.
قَالَ الْعُمَانِيُّ:

قَوْلَ الْحُكْلِ لَوْ أَنَّ دَرَّةً تُسَاوِدُ أُخْرَى لَمْ يَفْتَهُ سِوَادُهَا

يقول: الدَّرَّةُ الذي لا يُسْمَعُ لِمَنَاجَاتِهِ صَوْتًا، لَوْ كَانَ بَيْنَهَا سِوَادٌ لَفَهَمَهُ، وَالسَّوَادُ هُوَ السَّرَارُ، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِابْنِ مَسْعُودٍ: أَذْنُكَ حَتَّى أَسَاوِدَكَ أَي تَسْمَعُ سِوَادِي، وَقَالَتْ ابْنَةُ الْخُسَيْدِ: قُرْبُ الْوَسَادِ وَطَوَّلُ السَّوَادِ قَالَ أَبُو كَبِيرٍ الْهَدَلِيُّ:

سَاوَدَتْ عَنْهَا الطَّالِبِينَ فَلَجَّهْتِي تَنْظَرْتُ إِلَى السَّمَاءِ الْأَعَزْلِ

وقال النمْرُ بْنُ تَوْالٍ:

شَهَدْتُ إِذَا الْقِدَاحُ وَشَهَدْتُ عِنْدَ اللَّيْلِ مُوقِدَ تَوَحَّحْتُ نَارِهَا ذَاتِ أَوْلِيَةٍ أَسَاوِدُ رَبِّهَا وَكَأَنَّ لَوْنَ الْمَلْحِ تَحْتَ شَفَارِهَا

وقد فسّرنا شأن الحُكْلِ، وَقَالَ التِّيمِيُّ الشَّاعِرُ الْمُتَكَلِّمُ وَأَنشَدَ لِنَفْسِهِ وَهُوَ يَهْجُو نَاسًا مِنْ بَنِي تَعْلَبَ
مَعْرُوفِينَ:

وَحُكْلٌ لَا تُبِينُ، وَدِينُهُادُهُ أَعْلَاجُ عَلَيْهَا الْبِرَانِسُ

فَفَصَلَ بَيْنَ الْحُكْلِ وَالْعُجْمِ فَجَعَلَ الْعُجْمَ مِثْلَ ذَوَاتِ الْحَافِرِ وَالظَّلْفِ وَالْخَفِّ، وَجَعَلَ الْحُكْلَ كَالدَّرِّ وَالنَّمْلِ وَالْخَنَافِسِ، وَالْأَشْكَالِ الَّتِي لَيْسَتْ تَصِيحُّ مِنْ أَفْوَاهِهَا، فَقَالَ لِي يَوْمَئِذٍ حَفْصُ الْقَرْدُ: أَشْهَدُ أَنَّ الَّذِي يُقَالُ فِيهِ حَقٌّ، كَانَ وَاللَّهِ نَصْرَانِيًّا، ثُمَّ صَارَ يَخْبِرُ عَنِ النَّصَارَى كَمَا يَخْبِرُ عَنِ الْأَعْرَابِ بَيْنَ الْأَصْمَعِيِّ وَالْمَفْضَلِ وَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ لِلْمَفْضَلِ، لَمَّا أَنشَدَ الْمَفْضَلُ جَعْفَرَ بْنَ سُلَيْمَانَ قَوْلَ أَوْسِ بْنِ حَجْرٍ:

هَدَمَ عَارَ نَوَاشِرِهَا تُصْمِتُ بِالْمَاءِ تَوْلِبًا جَدِعا

فَجَعَلَ الدَّالَ مَعْجَمَةً، وَفَتَحَهَا، وَصَحَّفَهَا، وَذَهَبَ إِلَى الْأَجْذَاعِ، قَالَ الْأَصْمَعِيُّ: إِنَّمَا هِيَ: تَوْلِبًا جَدِعا الدَّالَ مَكْسُورَةً، وَفِي الْجَدِيعِ يَقُولُ أَبُو زُبَيْدٍ:

التَضْبِبُ لَا عَبْلٌ وَلَا جَدِغٌ

استقاها فلم يقطع

نظائمه

وإنما ذلك كقول ابن خنساء الأشجعي:

وَأَرْسَلَ مُهْمَلًا جَدِعًا وَخُفًّا جَدِغُ النَّبَاتِ وَلَا جَدِيبُ

فنسخ المفصّل، ورفع بها صوته، وتكلم وهو يصيح، فقال

الأصمعي: لو نفخت بالشُّبُورِ لم ينفَعك تَكَلُّمٌ بكلامِ النَّمْلِ

وَأَصِبُ وَالشُّبُورُ: شيءٌ مثل البوق، والكلمة بالفارسية، وهو

شيءٌ يكون لليهود، إذا أراد رأسُ الجالوت أن يحزّم كلام

رَجُلٍ مِنْهُمْ نَفَخُوا عَلَيْهِ بِالشُّبُورِ.

حریم الكلام لدى اليهود والنصارى وليس تحريمُ الكلام من

الحدود القائمة في كتبهم، ولكنَّ الجاثليقَ ورأسَ الجالوتِ،

لا يمكنُهُما في دار الإسلام حبسٌ ولا ضربٌ، فليس عندهما

إِلَّا أَنْ يَغْرَمَا الْمَالَ، وَيُحْرَمَا الْكَلَامَ، عَلَى أَنَّ الْجَاثِلِيْقَ كَثِيرًا

ما يتغافل عن الرَّجْلِ الْعَظِيمِ الْقَدْرِ، الَّذِي لَهُ مِنَ السُّلْطَانِ

نَاحِيَةٌ، وَكَانَ طَيْمَانُ رَئِيسِ الْجَاثِلِيْقِ، قَدْ هَمَّ بِتَحْرِيمِ كَلَامِ

عَوْنِ الْعِبَادِيِّ، عِنْدَمَا بَلَغَهُ مِنْ اتِّخَاذِ السَّرَارِيِّ، فَتَوَعَّدَهُ

وَحَلَفَ: لَنْ فَعَلَ لِيُسَلِّمَنَّ وَكَمَا تَرَكَ الْأَشْقِيلَ وَمِيخَائِيلَ

وتوفيل، سَمَلَ عَيْنٍ مَّنْوِيلٍ وفي حكمهم أَنَّ من أَعَانَ
المسلمين على الرُّومِ يَقتل؛ وإن كان ذا رأي سَمَلُوا عَيْنِيهِ
ولم يقتلوه فتركوا سُنَّتَهُم فيه، وقد ذكرنا شأنهم في غير
ذلك، في كتابنا على النَّصَارَى فإن أردته فاطلبه هنالك
معنى بيت لابن أبي ربيعة وقال عمر بن أبي ربيعة:

دَبَّ دَرٌّ فَوْقَ ضَاحِي لِأَبَانَ مِنْ آثَارِهِنَّ حُدُورٌ
والْحَدْرُ: الورم والأثرُ يكون عن الصَّرْبِ.

التسمية بالنمل

وقد يسمَّى بِنَمَلَةٍ وَنَمَيْلَةٍ، ويكتنون بها، وتسمَّوا بَدَرٍّ، واكتنوا
بأبي ذرٍّ، ويقال: سيفٌ في مَنتهِ دَرٌّ، وهو دَرِّيُّ السَّيْفِ

أشعار في صفة السيف

قال أوسُ بنُ حجر، في صفة السَّيْفِ:

مَدَبَّ النَّمْلِ يَتَّبِعُ الرُّبَا وَمَدْرَجَ دَرٍّ خَافَ بَرْدًا
فَأَسْهَلًا
صَفْحَتِيهِ بَعْدَ حِينٍ كَفَى بِالَّذِي أَبْلَى وَأَنْعَثُ
مُنْصَلًا

انتقام عقيل بن علفة ممن خطب إحدى بناته قال: وخطب إلى عقيل بن عُلفَةَ بعض بناته رجلٌ من الحُرقة من جُهينة، فأخذه فسَدَّهُ قِماطاً، ودهن استه بَرَّبَّ وقمطه وقَرَّبَه من قرية النمل، فأكل النمل لِحُشِّه بطنه

شعر فيه ذكر النمل وقال ذو الرمة:

وَقَرِيَّةٌ لَا جِنَّ وَلَا أَنْسِيَّهِدَا خَلَّةٌ أَبْوَابُهَا بُنِيَتْ شَرًّا
بِهَا مَا نَبْتَغِي عِنْدَهَا وَلَكِنَّهَا كَانَتْ لِمَنْزِلِنَا قَدْرًا

وقال أبو العتاهية:

بِدَارِ هَمُّهَا أَشِبُّ جِثْلَ الْفُرُوعِ كَثِيرُهُ شُعْبُهُ
اسْتَهَانَتْهَا بِمَنْ صَرَعَتْ لِيَقْدِرَ مَا تَعْلُو بِهِ رُتْبُهُ
اسْتَوَتْ لِلنَّمْلِ أَجْنَحَةٌ حَتَّى يَطِيرَ فَقَدْ دَنَا عَطْبُهُ

وقال البعيث:

وَمَوْلَى كَبَيْتِ النَّمْلِ لَا خَيْرَ لِمَوْلَاهُ إِلَّا سَعْيُهُ بِنَمِيمٍ

بعض ما قيل في النمل

قال: وقد سمعت بعض الأعراب يقول: إنه لنمامٌ نملِيٌّ، على قولهم: كذَبَ عَلَيَّ تَمَلُّ إِذَا أَرَادُوا أَنْ يَخْبَرُوا أَنَّهُ نَمَامٌ، وقال حميد بن ثور، في تهوين قوَّةِ الدَّرِّ:

مَنْعَمَةٌ، لَوْ يُصْبِحُ الدَّرُّ سَارِيًّا عَلَى جِلْدِهَا بَصَّتْ مَدَارِجَهُ
دَمَا

وقال الله عز وجل: "فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ" قال: وقيل لعائشة - رضي الله تعالى عنها، وقد تصدَّقتُ بحَبَّةِ عَنبٍ: أَتَصَدِّقِينَ بِحَبَّةِ عَنبٍ؟

قالت: إن فيها لمثاقيل دَرِّ.

لغز في التَّمَلِّ

وممَّا قيل في الشُّعر من اللُّغز:

دُو جَنَاحٍ لَهُ حَافِرٌ **وَلَيْسَ يَصُرُّ وَلَا يَنْفَعُ**
يعني التَّمَلِّ، فزعم أن للتَّمَلِّ حافراً، وإنما يحفر جُحره،
وليس يحفره بفمه، التعذيب بالنمل وعدب عُمَرُ بن هُبَيْرَةَ
سعيد بن عمرو الحَرَشِيِّ بأنواع العذاب ف قيل له: إن أردت
ألا يُفْلِحَ أبداً فمُرهم أن ينفخُوا في دُبُرِهِ التَّمَلِّ، ففعلوا فلم
يفلح بعدها.

ما يَدَّخِرُ قوتَهُ مِنَ الحَيوانِ

قالوا: وأجناسٌ من الحيوان تَدَّخِرُ، وتُشَبِّهُ في ذلك بالإنسان
ذي العقل والرَّوِيَّةِ، وصاحب النَّظَرِ في العواقب، والتفكير في
الأمور: مثلُ المَدَّرِ، والتَّمَلِّ، والفأر، والجرذان، والعنكبوت،
والنَّحْلِ، إلا أنَّ النحل لا يَدَّخِرُ من الطعام إلا جنساً واحداً،
وهو العسل.

أكل الدَّرِّ والضَّبَاعِ لِلنَّمَلِ

وزعم اليقظريُّ أنّك لو أدخَلت نملةً في جُحر ذرٍّ لأكلتها، حتى تأتي على عامّتها، وذكر أنّهُ قد جرّب ذلك، وقال صاحب المنطق: إنّ الصُّباع تأكل النمل أكلاً ذريعاً، وذلك أن الصُّباع تأتي قريةَ النَّمْلِ في وقتِ اجتماعِ النَّمْلِ، فتلحس ذلك النَّمْلَ بلسانها، بشهوةٍ شديدةٍ، وإرادةٍ قويّةٍ.

أكل النمل للأرضة

قالوا: وربّما أفسدت الأرضة على أهل القرى منازلهم، وأكلت كلّ شيءٍ لهم، ولا تزال كذلك حتى ينشؤ في تلك القرى النَّمْل، فيسلط الله ذلك النَّمْل على تلك الأرضة، حتى تأتي على آخرها، وعلى أنّ النَّمْل بعد ذلك سيكون له أذى، إلّا أنّهُ دون الأرضة تعدياً، وما أكثر ما يذهب النَّمْل أيضاً من تلك القرى، حتى تتم لأهلها السّلامة من النّوعين جميعاً، وزعم بعضهم أنّ تلك الأرضة بأعيانها تستحيل نملًا، وليس فناؤها لأكل النَّمْل لها، ولكنّ الأرضة نفسها تستحيل نملًا، فعلى قدر ما يستحيل منها يرى النقص في عددها، ومضرتّها على الأيام.

مثل في النمل

قال: وبالنَّمْلِ يُضْرَبُ المَثَلُ؛ يقال: جاؤوا مِثْلَ النَّمْلِ. والزَّجَجُ نوعان: أحدهما يَفْخَرُ بالعدد، وهم يسمَّون النَّمْلَ، والآخَرُ يَفْخَرُ بالصَّبْرِ وَعِظَمِ الأبدان، وهم يسمَّون الكلاب، وأحدهما يكبو والآخِرُ ينبو، فالكلابُ تكبو، والنَّمْلُ تنبو.

أجنحة النَّمْلِ

قال: ومن أسبابِ هلاكِ النَّمْلِ نَبْأُ الأجنحةِ له، وقد قال الشاعرُ:

اسْتَوَتْ لِلنَّمْلِ أَجْنَحُهُ حَتَّى يَطِيرَ فَقَدْ دَنَا عَطْبُهُ
وَإِذَا صَارَ النَّمْلُ كَذَلِكَ أَخْصَبَتِ العِصَابِيرُ؛ لأنها تصطادها في
حال طيرانها.

وسيلة لقتل النمل

قالوا: وَتُقْتَلُ بَأْنُ يَصَبُّ فِي أفواه بيوتها القَطِران والكِبْرِيتُ الأصفر، وَيُدَسُّ فِي أفواها الشَّعْر، وقد جَرَّبْنَا ذلك فوجدناه باطلاً، انتهى.

جملة القول في القرد والخنزير

وفي تأويل المَسْخ، وكيف كان، وكيف يُمَسَّخُ الناس على خلقتهما دونَ كلِّ شيءٍ، وما فيهما من العبرة والمحنة؛ وفي خصالهما المذمومة، وما فيهما من الأمور المحمودة؛ وما الفَصْل الذي بينهما في النَّقْص، وفي الفَصْل، وفي الذَّمِّ وفي الحميل _____ د.

ما ذكر في القرآن من الحيوان وقد ذكر الله عزَّ وجلَّ في القرآن العنكبوت، والذَّيْرَ وَالتَّمَلَّ، والكلب، والجِمار، والنَّحْلَ، والهُدْهَدَ، والغُرَابَ، والذئب، والفيلَ والخيل، والبغال، والحمير، والبقرَ، والبعوضَ، والمعز، والضأن، والبقرة، والنعجة، والحوت، والتُّون، فذكر منها أجناساً، فجعلها مثلاً في الذَّلَّةِ وَالصَّعْفِ، وفي الوهن، وفي البَدَاءِ، والجهل.

هوان شأن القرد والخنزير

وقال الله عز وجل: "إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا
بِعُوضَةٍ فَمَا فَوْقَهَا" فقللها كما ترى وحقرها، وضرب بها
المثل، وهو مع ذلك جل وعلا، لم يمسح أحداً من حشو أعدائه
وعظمائهم بعوضة. وقال تعالى: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ
فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا
وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ
ضَعْفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ"، إثمًا قرع الطالب في هذا
الموضع بإنكاره وضعفه، إذ عجز ضعفه عن ضعفِ مطلوبٍ لا
شيء أضعف منه، وهو الذباب، ثم مع ذلك لم نجدَه جلَّ وعلا،
ذَكَرَ أَنَّهُ مَسَحَ أَحَدًا ذُبَابًا. وقال: "وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ
الْعَنْكَبُوتِ" فَدَلَّ بُوهُنَ بَيْتِهِ عَلَى وَهْنِ خَلْقِهِ، فكان هذا القولُ
دليلاً على التَّصْغِيرِ وَالتَّقْلِيلِ، وإنما لم يقل: إِنِّي مَسَحْتُ أَحَدًا
مِنْ أَعْدَائِي عَنكَبُوتًا.
وقال تعالى: "فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ
تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ" فكان في ذلك دليلٌ على ذمِّ طباعه، والإخبار

عن تَسْرُعِهِ وَبَدَائِهِ، وعن جهله في تدبيره، وتَرْكِهِ وَأَخْذَهُ، ولم يقل إني مسخْتُ أحداً من أعدائي كلباً. وذكر الذَّرَّةَ فقال: فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ فكان ذلك دليلاً على أنه من الغايات في الصَّغَرِ وَالْقِلَّةِ، وفي خِفَّةِ الوُزْنِ وقلة الرجحان، ولم يذكر أنه مسخَّ أحداً من أعدائه ذرَّةً، وذكر الحِمَارَ فقال: كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا فجعله مثلاً في الجهل والغفلة، وفي قِلَّةِ المَعْرِفَةِ وَغِلْظِ الطَّبِيعَةِ، ولم يقل إني مسخْتُ أحداً من أعدائي حماراً، وكذلك جميع ما خَلَقَ وَدَكَرَ من أصناف الحيوان بالذَّمِّ والحمد. فأما غير ذلك مما ذكر من أصناف الحيوان، فإنه لم يذكره بذمٍّ ولا نقص، بل قد ذكر أكثرهنَّ بالأمر المحمود، حتى صار إلى ذكر القرد فقال: وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ فلم يكن لهما في قلوبِ النَّاسِ حال، ولو لم يكن جعل لهما في صُدُورِ العَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ مِنَ القُبْحِ وَالتَّشْوِيهِ، ونذالة النَّفْسِ، ما لم يجعلهُ لشيءٍ غيرهما من الحيوان، لما خصَّهما اللهُ تعالى

بذلك، وقد علمنا أَنَّ العِزَّ أَشَدُّ عِدَاوَةً وَأَدَى، وَأَفْسَدُ، وَأَنَّ
الْأَفْعَى وَالتُّعْبَانَ وَعَامَّةَ الْأَحْنَاشِ، أَبْغَضُ إِلَيْهِمْ وَأَقْتُلُ لَهُمْ، وَأَنَّ
الْأَسَدَ أَشَدُّ صَوْلَةً، وَأَنَّهُمْ عَنِ دَفْعِهِمْ لَهُ أَعْجَزُ، وَبِغَضِهِمْ لَهُ
عَلَى حَسَبِ قُوَّتِهِ عَلَيْهِمْ، وَعَجِزِهِمْ عَنْهُ، وَعَلَى حَسَبِ سُوءِ
أَثَرِهِ فِيهِمْ، وَلَمْ تَرَهُ تَعَالَى مَسَحَ أَحَدًا مِنْ أَعْدَائِهِ عَلَى صُورَةٍ
شَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْأَصْنَافِ، وَلَوْ كَانَ الْإِسْتِنْدَالَ وَالْإِسْتِثْقَالَ
وَالْإِسْتِسْقَاطَ أَرَادَ، لَكَانَ الْمَسْحُ عَلَى صُورَةِ بِنَاتِ وَرَدَانَ أَوْلَى
وَأَحَقُّ، وَلَوْ كَانَ التَّحْقِيرَ وَالتَّصْغِيرَ أَرَادَ، لَكَانَتِ الصُّوَابَةُ
وَالجِرْجِسَةُ أَوْلَى بِذَلِكَ، وَلَوْ كَانَ إِلَى الْإِسْتِصْغَارِ ذَهَبَ لَكَانَ
الذُّرُّ وَالْقَمْلُ وَالدُّبَابُ أَوْلَى بِذَلِكَ، وَالْمَدَّلِيلُ عَلَى قَوْلِنَا قَوْلُهُ
تَبَارَكَ وَتَعَالَى: "إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ، طَلَعَهَا
كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ" وَلَيْسَ أَنَّ النَّاسَ رَأَوْا شَيْطَانًا قَطُّ
عَلَى صُورَةٍ، وَلَكِنْ لَمَّا كَانَ اللَّهُ تَعَالَى قَدْ جَعَلَ فِي طِبَاعِ
جَمِيعِ الْأُمَّمِ اسْتِقْبَاحَ جَمِيعِ صُورِ الشَّيَاطِينِ، وَاسْتِسْمَاجَهُ
وَكَرَاهَتَهُ، وَأَجْرَى عَلَى أَلْسِنَةِ جَمِيعِهِمْ ضَرْبَ الْمَثَلِ فِي ذَلِكَ

رجع بالإيحاء والتنفير، وبالإخافة والتقريع، إلى ما قد جعله الله في طباع الأولين والآخريين وعند جميع الأمم على خلاف طبائع جميع الأمم، وهذا التأويل أشبه من قول من زعم من المفسرين، أن رؤوس الشياطين نبات نبت باليمن. وقال الله عز وجل لنبيه: " قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مَحْرَمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ، أَوْ فِسْقًا أُهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ، فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ " فذكر أنه رِجْسٌ، وذكر الخنزير، وهو أحد المسوخ، ولم يذكر في هذه الآية التي أحصى فيها أصناف الحرام، وأباح ما وراء ذلك القرذ. وصار بعضهم إلى تحريمه من جهة الحديث، وهو عند كثير منهم يحتمل المعارضة.

الخنزير

مساوي الخنزير فلولا أن في الخنزير معنى متقدماً سوى المسخ، وسوى ما فيه من قبح المنظر وسماجة التمثيل،

وقبح الصوت، وأكل العذرة، مع الخلاف الشديد واللواط
المفرد والأخلاق السمجة، ما ليس في القرد الذي هو
شريكه في المسخ لما ذكره دونه تحريم الخنزير في القرآن
دون القرد وقد زعم ناس أن العرب لم تكن تأكل القردة،
وكان من تنصّر من كبار القبائل وملوكها يأكل الخنزير،
فأظهر لذلك تحريمه؛ إذ كان هناك عالم من الناس، وكثير
من الأشراف والوضعاء، والملوك والسوقة، يأكلونه أشدّ
الأكل، ويرغبون في لحمه أشدّ الرغبة، قالوا: ولأن لحم
القرد ينهى عن نفسه، ويكفي الطبائع في الرجس عنه عنه،
ولحم الخنزير مما يستطاب ويتواصف، وسبيل لحم القرد
كسبيل لحم الكلب، بل هو شرُّ منه وأخبث، وقد قال
الشاعر للأسديّ الذي ليم يأكل لحم الكلب:

فقعسيّ لم أكلته ليمه خافك الله عليه حرّمه
فما أكلت لحمه ولا دمه وليس يريد بقوله: لو خافك الله
عليه أن الله يخافه على شيء أو يخافه من شيء، ولكنّه
لما كان الكلب عندّه مما لا يأكله أحد ولا يخاف على أكله إلا

المضطرُّ، جعل بدل قوله: أَمِنَ الكَلْبُ على أَكْلِ لحمه، أَنَّ
اللَّهَ هو الذي لم يَخَفْ ذلكَ فيحَرِّمُه، وهذا ممَّا لا تقف
الأعرابُ عليه، ولا تَتَّبِعِ الوهمُ مواضِعَه؛ لأنَّ هذا بابٌ يدخل
في باب الدِّين، فيما يُعرَفُ بالنَّظر.
ما قيل في جودة لحوم الكلاب وقد يأكل أجراء الكلاب
ناسٌ، ويستطيبونها فيما يزعمون، ويقولون: إِنَّ جرو الكلب
أسمنُ شيءٍ صغيراً، فإذا شبَّ استحال لحمه، كأنَّه يشبُّه
بفرخ الحمام مادام فرخاً وناهضاً، إلى أن يستحکم ويشتدُّ
ذكر من يأكل السنابير وما أكثر من يأكل السنابير، والذين
يأكلونها صِنْفان من الناس: أحدهما الفتى المغرور، الذي
يقال له أنت مسحور، ويقال له: من أكل سِنُوراً أسودَ بهيماً
لم يعمَلْ فيه السحر، فيأكله لذلك، فإذا أكله لهذه العلة،
وقد غسل ذلكَ وعصره، أذهب الماءُ زُهومتَه، ولم يكن ذلكَ
المخدوعُ بمستقذِرٍ ما استطابه، ولعله أيضاً أن يكون عليه
ضربٌ من الطَّعام فوق الذي هو فيه، فإذا أكله على هذا

الشَّرط، ودبّر هذا التدبير، ولم ينكره، عاوده، فإذا عاوده
صار ذلك ضراوةً لـه.
والصَّنْف الآخر أصحاب الحمام؛ فما أكثر ما ينصبُّون المصائد
للسنانير، التي يُلقَوْنَ منها في حمامهم، وربَّما صادف غيظ
أحدهم وحنَّفه وعضَّبه عليه، أن يكون السنَّور مُفْرِطاً
السَّمْن، فيدعُ قتله ويذبَّحه، فإذا فعل ذلك مرَّةً أو مرتين،
صار ضراوةً عليها، وقد يتقرَّز الرَّجُلُ من أكل الصَّبِّ والوَرَل
والأرنب، فما هو إلَّا أن يأكله مرَّةً لبعضِ التَّجربة، أو لبعضِ
الحاجة، حتى صار ذلك سبباً إلى أكلها، حتى يصير بهم
الحال إلى أن يصيروا أرغَبَ فيها من أهلها، طيب لحم
الجراد وها هنا قومٌ لا يأكلون الجرادَ الأعرابيَّ السمين،
ونحن لا نعرف طعاماً أطيَّبَ منه، والأعراب إنَّما يأكلون
الحَيَّاتِ على شبيهِ بهذا الترتيب ولهذه العوارض، أكل
الأفاعي والحيات وزعم بعضُ الأطباءِ والفلاسفة، أنَّ الحَيَّاتِ
والأفاعيَ تؤكل نيئةً ومطبوخةً، ومشويةً، وأنَّها تغدُو غِذاءً

حَسَنًا، رُؤْبَةٌ وَأَكَلَ الْجِرَادَانِ وَزَعَمَ أَبُو زَيْدٍ، أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى
رُؤْبَةٍ، وَعِنْدَهُ جِرَادَانٌ قَدْ شَوَّاهُنَّ، فَإِذَا هُوَ يَأْكُلُهُنَّ، فَأَنْكَرَ ذَلِكَ
عَلَيْهِ، فَقَالَ رُؤْبَةٌ: هُنَّ خَيْرٌ مِنَ الْيَرَابِيْعِ وَالصُّبَابِ وَأَطْيَبُ؛
لَأَنَّهَا عِنْدَكُمْ تَأْكُلُ الْخَبَرَ وَالتَّمْرَ وَأَشْبَاهَ ذَلِكَ، وَكَفَاكَ بِأَكْلِ
الْجِرَادَانِ، وَلَوْ لَا هَوْلَ الْحَيَاتِ فِي الصُّدُورِ مِنْ جِهَةِ السُّمُومِ،
لَكَانَتْ جِهَةُ التَّقَدُّرِ أَسْهَلَ أَمْرًا مِنَ الْجِرَادَانِ، أَكَلَ اللَّذْبَانَ
وَالزَّنَابِيرَ وَنَاسٌ مِنَ السُّفَالَةِ يَأْكُلُونَ اللَّذْبَانَ، وَأَهْلُ خُرَاسَانَ
يُعْجَبُونَ بِاتِّخَاذِ الْبَرِّمَآوَرِ مِنْ فِرَاحِ الزَّنَابِيرِ، وَيَعَافُونَ أَذْنَآبَ
الْجِرَادِ الْأَعْرَابِيِّ السَّمِينِ، وَلَيْسَ بَيْنَ رِيحِ الْجِرَادِ إِذَا كَانَتْ
مَشْوِيَّةً وَبَيْنَ رِيحِ الْعِقَارِبِ مَشْوِيَّةً فَرْقٌ، وَالطَّعْمُ تَبَعٌ
لِلرَّائِحَةِ: خَبِيثُهَا لَخَبِيثُهَا، وَطَيِّبُهَا لَطَيِّبُهَا، وَقَدْ زَعَمَ نَاسٌ، مِمَّنْ
يَأْكُلُونَ الْعِقَارِبَ مَشْوِيَّةً وَنِيئَةً، أَنَّهَا كَالْجِرَادِ السَّمَانِ، وَكَانَ
الْفَضْلُ بْنُ يَحْيَى يُوَجِّهُ خِدْمَتَهُ فِي طَلْبِ فِرَاحِ الزَّنَابِيرِ
لِيَأْكُلَهَا، وَفِرَاحُهَا ضَرْبٌ مِنَ اللَّذْبَانِ.
أَكَلَ لَحُومَ الْبِرَازِيْنَ فَأَمَّا لَحُومَ الْبِرَازِيْنَ فَقَدْ كَثُرَ عَلَيْنَا وَفِينَا،

حتى أنسنا به، وزعم بعضهم أنه لم يأكلُ أطيبَ من رأسِ
بِرْدُونٍ وسُرَّتِيه، فأما السُّرَّةُ والمَعْرِفَةُ فإنهم يزاحمون بها
الجِدَاءَ والدَّجَاجَ، ويقدِّمون الأسرامَ المحشوَّةَ، أكل
السرَّاطين ونحوها ومن أصحابنا من يأكل السرَّاطين أكلاً
ذريعاً، فأما الرق والكوسج فهو من أعجب طعام البحرين،
وأهل البحر يأكلون البلبل فهو اللحم الذي في جوف
الأصداف، والأعرابيُّ إذا وجد أسودَ سالخاً، رأى فيه ما لا
يرى صاحب الكسمير في كسميره.
أكل ديدان الجبن وخبرني كم شئت من الناس، أنه رأى
أصحابَ الجبن الرطب بالأهوازِ وقراها، يأخذون القطعة
الصَّخْمَةَ من الجبن الرطب، وفيها ككواء الزنابير، وقد تولد
فيها الدِّيدان، فينفضها وسطاً راحته، ثمَّ يقمحُها في فيه، كما
يقمحُ السَّويق والسُّكَّر، أو ما هو أطيبُ منه.
ذكر بعض أنواع العذاب وقد خبر الله تعالى عن أصحاب
النَّقم، وما أنزل الله من العذاب، وما أخذ من الشكل

والمقابلات، فقال: "فَكُلًّا أَخَذْنَا بِدَنِيهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ
خَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ
الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَعْرَفْنَا"، وقال: "أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ
بِأَصْحَابِ الْفِيلِ، أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ، وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ
طَيْرًا أَبَابِيلَ، تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ" وليس من هذه
الأصنافِ شيءٌ أبلغُ في المَثَلَةِ والشُّنْعَةِ، مَمَّنْ جَعَلَ مِنْهُمْ
الْقَرَدَةَ والخنازير ما يقبل الأدب من الحيوان فالخنزير يكون
أهلياً ووحشياً، كالحمير والسنانير، مما يعايش النَّاسَ، وكلها
لا تقبل الآداب، وإنَّ الْفُهْودَ وهي وحشيَّةٌ تقبل كلها، كما
تقبَلُ البوازي، والشَّواهين، والصَّقُورَةُ، والرُّزَّاقُ، واليُؤيُّو،
والعُقَّابُ، وعَنَاقِ الأَرْضِ، وجميعُ الجوارحِ الوحشيَّاتِ، ثمَّ
يفضلُّها الفهدُ بخصلةٍ غريبةٍ وذلك أنَّ كبارها ومساتها أقبلُ
للآدابِ، وإن تقادمتُ في الوحشِ، مِنْ أولادها الصغار، وإن
كانت تقبل الآداب؛ لأنَّ الصَّغِيرَ إذا أُدِّبَ فبلغ، خرج جبيناً
مُواكِلاً، والمسَّيَّ الوحشيَّ يخلُصُ لكُله، حتى يصيرُ أصيداً

وأنفع، وصغارُ سباعِ الطَّيْرِ وكبارُها على خلاف ذلك، وإن كان الجميعُ يقبل الأدب، والخنزيرُ وإن كان أهلياً فإنه لا يقبل الأدبَ على حال، حتى كآتهُ وإن كان بهيمةً في طباعِ ذئب، وذلك أن أعرابياً أخذَ جِزْوَ ذئبٍ وكان التقطه التقاطاً، فقال: أخذتهُ وهو لا يعرف أبويه ولا عملُهُما، وهو غرٌّ لم يصدُ شيئاً، فهو إذا رَبَّيناه وألَّفناه، أنفعُ لنا مِنَ الكلب، فلما شبَّ عدا على شاةٍ له فقتلها وأكل لحمها، فقال الأعرابيُّ:

شُويهي وَرُبيتَ فينا فَمَنْ أَدْرَاكَ أَنَّ أباكَ ذيبٌ

فالذئب وجرو الذئب إذا كانا سبعين وَحْشِيَّينِ كانا ثمَّ من أشدَّ الوحشِ توحُّشاً وألزمها للقفار، وأبعدها من العمران، والمدَّئبُ أغدر من الخنزير والخنوص وهما بهيمتان. ضرر الخنزير وأما ضرره وإفساده، فَمَا ظَنُّكَ بشيءٍ يُتَمَنَّى له الأسد؟ وذلك أن الخنازير إذا كانت بقرب ضياع قوم، هلكت تلك الضياع، وفسدت تلك الغلات، وربَّما طلب الخنزير بعضَ العروقِ المدفونةِ في الأرض فيخرَّب مائةَ جريبٍ، ونابه ليس يغلبه مِعول، فإذا اشتدَّ عليهم البلاءُ تمَنَّوا

أن يصير في جَنْبَتِهِمْ أَسَدٌ، وَلرَبِّمَا صَارَ فِي ضِيَاعِهِمُ الأَسَدُ
فلا يَهيجُوتَهُ، ولا يُوذونَهُ، ولو ذهبَ إنسانٌ ليحفرَ له رُبيَّةً
منعوه أَشدَّ المنعِ؛ إِذ كان رَبِّمَا حَمَى جانِبَهُم من الخنازيرِ
فقط، فما ظنُّكَ بِإفْسادِها، وما ظنُّكَ بِبَهِيمَةٍ يُتَمَنَّى أن يكونَ
بِذلِها أَسَدٌ؟ ثُمَّ مع ذلكَ إِذا اجتمعوا للخنازيرِ بالسُّلُوحِ،
وبالآلاتِ والأدواتِ التي تقتلُ بها، فربَّما قتلَ الرَّجُلَ منهم، أو
عقرَهُ العقرَ الَّذي لا يندمِلُ؛ لِأنَّهُ لا يضربُ بناه شَيْئاً إِلاَّ
قطَعَهُ، كائناً ما كانَ، فلو قَتَلوا في كلِّ يومٍ منها مائةً وقتلَتْ
في كلِّ يومٍ إنساناً واحداً، لما كانَ في ذلكَ عِوضٌ. والخنازيرِ
تطلبُ العَذِرَةَ، وليست كالجلالة؛ لِأنها تطلبُ أَحَرَّها وأرطَبَها
وأنتَهها، وأقربها عهداً بالخروجِ، فهي في القرى تعرفُ أوقاتَ
الصُّبْحِ والفَجْرِ، وَقَبْلَ ذلكَ وبعده؛ لِبُروزِ النَّاسِ للغائطِ،
فيعرفُ من كانَ في بيته نائماً في الأَسْحارِ ومع الصُّبْحِ، أَنَّهُ
قد أَسْحَرَ وأصبحَ، بأصواتِها ومروريها، ووقِعَ أرجلُها في تلكَ
الغيطانِ، وتلكَ المتبرِّراتِ، وبذلكَ ضربُوا المثلَ ببيكور

الخنزير، كما ضربوا المثل بحذرِ الغرابِ وروغانِ
الثعلبِ، على أن الثعلبَ ليس بأرْوَعَ من الخنزيرِ، ولا أكَدَّ
للفارسِ، ولا أشدَّ إتعاباً لصاحبه.
بعض أسباب مسخ الإنسان فأما قُبْحُ وجهه فلو أن القُبْحَ
والإفلاسَ، والعَدْرَ والكذبَ، تجسَّدت ثمَّ تصوَّرتْ لَمَا زادتْ
على قُبْحِ الخنزيرِ، وكلُّ ذلك بعضُ الأسباب التي مُسخ لها
الإنسان خنزيراً، وإنَّ القردَ لَسَمِجُ الوجهِ، قبيحٌ كلُّ شيءٍ،
وكفاك به أنه للمثل المضروب ولكنَّهُ في وجهٍ آخَرَ مليحٌ،
فمِلْحُهُ يعترض على قُبْحِهِ فيمازجُهُ ويُصلِحُ منه، والخنزيرُ
أقبح منه لأنَّه ضربٌ مُصمَّتٌ بهيم، فصار أَسْمَجَ ببعيدٍ.
وثب الذكورة على الذكورة وحدثني بعضُ أهل العلم، ممَّن
طال تَواؤهُ في أرض الجزيرة، وكان صاحبَ أخبارٍ وتجربة،
وكان كلفاً يحبُّ التبيّنَ، معترضاً للأُمورِ، يحبُّ أن يُفْضِيَ إلى
حقائقها، وتثبيت أعيانها بعللها، وتمييز أجناسها، وتعرِّف
مقاديرِ قُواها وتصرِّف أعمالها، وتنقُلُ حالاتها؛ وكان يعرفُ

للعلم قَدْرُهُ، وللبيان فضله، قال: رَبَّما رأيت الخنزير الذَّكَرَ
وقد ألجأه أكثرُ من عِشرينَ خنزيراً إلى مَضيقٍ، وإلى زاوية،
فينزُّون عليه واحداً واحداً، حتى يبلغ آخرهم، وخَبَّرني هذا
الرَّجل وغيره من أهل النظر وأصحابِ الفكر، أنَّهم رأوا مثلَ
ذلك من الحمير، وذكروا أنَّ ذلك إما تأنيثٌ في طبعه، وإمَّا
أنَّ يكون له في أعينها من الاستحسان شبيهٌ بالذي يعتري
عيونَ بعضِ الرجال في الغلمان، والأحداثِ الشَّبَّاب. وقد
يكون هذا بين الغَزائِق والكَرَاكِي، والتَّسافُد بين الذَّكَر
والأنثى، والسافد والمسفود إذا كانا من جميع الذكور، كثيرٌ
في جميع أصناف الحيوان، إلاَّ أنَّه في جميع الخنازير
والحمير أفشى، وأمَّا تسافُد الحمَّام الذَّكَر والأنثى للذَّكَر،
فأكثرُ من أن يكون فيه تنازع.
معارف في الخنزير وباب آخر ممَّا ذكر صاحب المنطق،
فزعم أنَّ من الخنازير ما له ظِلْف واحد، وليس لشيء من
ذوات الأنياب في نابه من القوَّة والدَّرَب ما للخنزير الذَّكَر،

وللجمل، والفهد، والكلب، قال: والإنسان يلقي أسنانه،
وكذلك الحافر والخف، قال: والخنزير لا يلقي أسنانه البتة.
من لم يثغر ويقال: إنَّ عبد الصَّمَد بنَ عليٍّ لم يثغر قط،
وأَنَّهُ دخل قبره بأسنان الصَّبابا.
أسنان الذئب والحية وزعم بعضهم أنَّ أسنان الذئب مخلوقة
في الفك، ممطولة في نفس العظم، وذلك ممَّا توصف به
أسنان الحية، قال الشاعر:

في اللّخين مَطْلًا الرَّاسِ وَأَشْدَاقِ رَحِيْبَاتِ

والشاعر يمدح الشيء فيشدُّ أمره، ويقوي شأنه، وربَّما
زاد فيه، ولعلَّ الذي قال في المذئب ما قال، هذا أراد، ولا
يشكُّون أنَّ الصَّبيع كذلك.
مرق لحم الحيوان قال وليس يجمدُ مرق لحم الحيوان
السَّمين، مثل الخنزير والفرس، وأمَّا ما كان كثير الثرب
فمرقته تجمد، مثل مرق لحم المعز.
طباع الخنزير قال: والخنزير الذَّكر يقاتل في زمن الهيج، فلا

يَدْعُ خنزيراً إِلاَّ قتلَهُ، ويدنو من الشَّجَرَةِ ويدلُّكُ جلدَهُ، ثمَّ يذهب إلى الطين والحماة فيتلطح به، فإذا تساقط عاد فيه. قال: وذكورة الخنازير تطرد الذُّكُورَةَ عن الإناث، وربَّما قتل أحدهما صاحبه وربَّما هلكا جميعاً، وكذلك الثَّيرانُ والكِبَاشُ والثُّيوس في أقطيعها، وهي قبل ذلك الزَّمان متسالمة. ما يعرض لبعض الحيوان عند الهيج والجمل في تلك الحالة لا يدعُ جملاً ولا إنساناً يدنو من هَجْمَتِهِ، والجمل خاصَّة يكره قُرْبَ الفَرَسِ، ويقاتله أبداً. ومثل هذا يعرض للذَّئبِ والذَّبِّ، والأسد ليس ذلك من صفاتها؛ لأنَّ بعضَها لا يأوي إلى بعضٍ، بل ينفرد كلُّ واحدٍ بلبؤته، وإذا كان للذَّئبِ الأنثى جِراء ساءت أخلاقُها وصعُبت، وكذلك إناث الخيل والفيل: يسوء خلقها في ذلك الزَّمان، والقِيَّالون يحمونها النَّزْو؛ لأنها إذا نزت جهلت جهلاً شديداً، واعتراها هَيْجٌ لا يُقام له، وإذا كان ذلك الزَّمانُ أجادوا عَقْلَهُ، وأرسلوه في الفِيلة الوحشيَّة، فأما الخنزير والكلبُ فإنهما لا يجهلان على النَّاسِ؛ لمكان

الألفة، قال: وزعم بعضُ النَّاسِ أَنَّ إناثَ الخيلِ تمتلئ ريحاً في زمان هيجها، فلا يباعدون الذُّكُورَةَ عنها، وإذا اعترها ذلك ركضتُ ركضاً شديداً، ثمَّ لا تأخذ غرباً ولا شرقاً، بل تأخذ في الشَّمالِ والجنوبِ، ويعرض مثل هذا العَرَضِ لإناث الخنازير، فإذا كان زمنُ هَياجِ الخنازير، تطأطئ رؤوسها، وتحركُ أذناها تحريكاً متتابعاً، وتتغيَّرُ أصواتها إذا طلبت السَّفاد، وإذا طلبت الخنزيرةُ السَّفادَ بالت بولاً متتابعاً. تناسل الخنازير قال: وإناث الخنازير تحمل أربعة أشهرٍ، وأكثرُ ما تحمل عشرون خنوصاً وإذا وضعت أجراً كثيرةً لم تُقوِّ على رِضاها وتربيتها.

قال: وإناث الخنازير تحمل من نزوةٍ واحدة، وربما كان من أكثر، وإذا طلبت الذَّكَرَ لم تنزع حتى تطاوع وتسامح، وترخي أذناها، فإذا فعلت ذلك تكتفي بنزوةٍ واحدة، ويُعلَفُ الذَّكَرُ الشَّعيرَ في أوان النَّزْوِ، ويصلحُ للأنثى. مدد الحمل للحيوان والخنزيرة تضع في أربعة أشهرٍ،

والشَّاهُ في خمسة، والمرأة والبقرَةُ في تسعة أشهر،
والحافر كله في سنة خصائص الخنزير قال: ومتى قلعت
العينُ الواحدة من الخنزير هلك، وكثيرٌ من الخنازير تبقى
خمسة عشر عاماً، والخنزير ينزو إذا تمَّ له ثمانية أشهر،
والأنثى تريد الذكر إذا تمَّت لها ستة أشهر، وفي بعض
البلدان ينزو إذا تمَّ له أربعة أشهر، والخنزيرة إذا تمَّت لها
سنة أشهر، ولكنَّ أولادهما لا تجيء كما يريدون، وأجود
النَّزْو أن يكون ذلك منه وهو ابن عشرة أشهر إلى ثلاث
سنين، وإذا كانت الخنزيرة بكرًا ولدت جِراءً ضعافاً وكذلك
البكر من كل شيء، الحلال .

وقال الله تبارك وتعالى: "كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ
وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنَّ كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ" ثم ذكر غير الطيبات
فقال: "حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالِدَمُّ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ
لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا
أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ، وَأَنْ

تَسْتَفْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ، دَلِكُمْ فِسْقٌ" ثم قال: "هَلْ أَتَيْتُكُمْ بِشَرٍّ
مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ
مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَاناً وَ
أَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ" وقال: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا
تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ
الْمُعْتَدِينَ".

استطرد لغوى وقوله تعالى: طَيِّبَاتٍ تحتل وجوهاً كثيرة،
يقولون: هذا ماءٌ طَيِّبٌ، يريدون العذوبة، وإذا قالوا للْبُرِّ
والشَّعِيرِ والأرز طَيِّبٌ، فإنما يريدون أنه وَسَطٌ، وأنه فوق
الدُّونِ، ويقولون: فمُ طَيِّبُ الرِّيحِ، وكذلك البُرِّ، يريدون أنه
سليم من الثَّنِ، ليس أن هناك ريحاً طيبة ولا ريحاً منتنة،
ويقولون: حلالٌ طَيِّبٌ، وهذا لا يحل لك، ولا يطيب لك، وقد
طاب لك أي حل لك، كقول: "فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ
النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاتٍ وَرَبَاعاً".

قال طُوَيْسُ المَغَنِّي لبعض ولد عثمان بن عفان: لقد شَهِدْتُ

زفاف أمك المباركة إلى أبيك الطيب، يريد الطهارة، ولو قال: شهدت زفاف أمك الطيبة إلى أبيك المبارك، لم يحسن ذلك؛ لأن قولك طيب إنما يدل على قدر ما اتصل به من الكلام.

وقد قال الشاعر:

والطيبون معاقد الأزر

وقد يخلو الرجلُ بالمرأة فيقول: وجدتُها طيبة، يريد طيبة الكوم، لذيذة نفس الوطاء، وإذا قالوا: فلان طيب الخلق، فإنما يريدون الظرف والملح، وقال الله عز وجل: "حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة" يريد ريحاً ليست بالضئيلة ولا القويمة.

ويقال: لا يحلُّ مال امرئ مسلمٍ إلاَّ عن طيبِ نفسٍ منه، وقال الله عز وجل: "فإن طبن لكم عن شيءٍ منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً" وقال: "لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمينٍ و شمالٍ كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور" وذلك إذ كانت طيبة الهواء والفواكه،

خصيبيَّة، وقال: "إِنَّا لَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ
الْمُؤْمِنَاتِ لُعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ" ثم
قال: "الْحَبِيثَاتُ لِلْحَبِيثِينَ وَالْحَبِيثُونَ لِلْحَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ
لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ
مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ".

وفي هذا دليلٌ على أنَّ التأويلَ في امرأةِ نوحٍ وامرأةِ لوط،
عليهما السلام، على غير ما ذهب إليه كثيرٌ من أصحاب
التفسير: وذلك أنهم حين سمعوا قوله عز وجل: "ضَرَبَ
اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأةَ نُوحٍ وَامْرَأةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ
عَبْدَيْنِ مِنْ عَبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَاتَتَاهُمَا فَلَمَّ يُعْنِيَا عَنْهُمَا" فدلَّ
ذلك على أنه لم يعن الخيانة في الفرج، وقد يقع اسمُ
الخيانة على ضروب: أولها المالُ، ثم يشتقُّ من الخيانة في
المال الغشُّ في النصيحة والمشاورة، وليس لأحدٍ أن يوجَّه
الخبر إذا نزل في أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وحُرِّم
الرُّسُل، على أسمع الوجوه، إذا كان للخبر مذهبٌ في

السَّلَامَةِ، أَوْ فِي الْقُصُورِ عَلَى أَدْنَى الْعُيُوبِ، وَقَدْ عَلَّمْنَا أَنَّ
الْخِيَانَةَ لَا تَتَخَطَّى إِلَى الْفَرْجِ حَتَّى تَبْتَدِيَ بِالْمَالِ، وَقَدْ
يَسْتَقِيمُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ فَيَكُونُ ذَلِكَ مِنْهُمَا خِيَانَةً
عَظِيمَةً، وَلَا تَكُونُ نِسَاؤُهُمْ زَوَانِي، فَيَلْزِمُهُمْ أَسْمَاءُ قَبِيحَةٍ،
وَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: "إِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَيَّ أَنْفُسِكُمْ
تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً" وَقَالَ: "فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ
اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا" وَقَالَ: "مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَى
وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً" وَقَالَ تَعَالَى: "قُلْ مَنْ حَرَّمَ
زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الْمَرْزُوقِ" وَقَالَ:
"وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ" وَ"مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً
كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ" وَقَالَ: "وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ
الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ" فَقَوْلُهُ: "طَيِّبٌ"،
يَقَعُ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ، وَقَدْ فَصَّلْنَا بَعْضَ ذَلِكَ فِي هَذَا الْبَابِ.
ثُمَّ رَجَعْنَا إِلَى الْقَوْلِ إِلَى مَوْضِعِنَا مِنْ ذِكْرِ الْخَنْزِيرِ ثُمَّ قَالَ:
"قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ

يَكُونُ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ
فِسْقًا أَهْلَ لِعَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ
رَبَّكَ عَفُورٌ رَحِيمٌ " أَلَا تَرَاهُ قَدْ ذَكَرَ أَصْنَافَ مَا حَرَّمَ وَلَمْ
يَذْكُرْهَا بِأَكْثَرِ مِنَ التَّحْرِيمِ، فَلَمَّا ذَكَرَ الْخِنْزِيرَ قَالَ: فَإِنَّهُ
رِجْسٌ فَجَعَلَ الْخِنْزِيرَ وَإِنْ كَانَ غَيْرَ مَيْتَةٍ أَوْ ذَكَرَ الذَّابِحَ عَلَيْهِ
اسْمَ اللَّهِ، أَنَّهُ رِجْسٌ، وَلَا نَعْلَمُ لِهَذَا الْوَجْهَ إِلَّا الَّذِي خَصَّهُ اللَّهُ
بِهِ مِنْ ذِكْرِ الْمَسْخِ، فَأَرَادَ تَعْظِيمَ شَأْنِ الْعِقَابِ وَنَزُولِ
الْغَضَبِ، وَكَانَ ذَلِكَ الْقَوْلُ لَيْسَ مِمَّا يَضُرُّ الْخِنْزِيرَ، وَفِيهِ
الزَّجْرُ عَنِ مَحَارِمِهِ، وَالتَّخْوِيفُ مِنْ مَوَاضِعِ عَذَابِهِ، وَإِنْ قِيلَ:
يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مَسْخَ صُورَةِ الْقَرْدِ، فَهَلَّا ذَكَرَهُ فِي التَّحْرِيمِ
مَعَ أَصْنَافِ مَا حَرَّمَ، ثُمَّ خَصَّهُ أَيْضًا أَنَّهُ مِنْ بَيْنِهَا رِجْسٌ، وَهُوَ
يُرِيدُ مَذْهَبَهُ وَصِفَتَهُ؟ قُلْنَا، إِنَّ الْعَرَبَ لَمْ تَكُنْ تَأْكُلُ الْقُرُودَ،
وَلَا تَلْتَمِسُ صَيْدَهَا لِلْأَكْلِ، وَكُلُّ مَنْ تَنْصَرَّ مِنْ مَلُوكِ الرُّومِ
وَالْحَبْشَةِ وَالصِّينِ، وَكُلُّ مَنْ تَمَجَّسَ مِنْ مَلِكٍ أَوْ سُوقَةٍ،
فَإِنَّهُمْ كَانُوا يَرُونَ لِللَّحْمِ الْخِنْزِيرِ فَضِيلَةً، وَأَنَّ لِحُومَهَا مِمَّا

تقوم إليه النفوسُ، وتنازع إليه الشهوات، وكان في طباع
الناس من التكرُّه للحوم القِرَدَةِ، والتقدُّر منها ما يُغني عن
ذكرها، فذكر الخنزيرَ إذ كان بينهما هذا الفرق، ولو ذكر ذلك
وألحق القردَ بالخنزير لموضع التحريم، لكان ذلك إنما كان
على وجه التوكيد لما جعله الله تعالى في طبائعهم من
التكْرُه والتقدُّر، ولا غير ذلك.
وقال الله عزَّ وجلَّ: "وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ
وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ
ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَعْثِهِمْ
وَأَنَّا لَصَادِقُونَ".

وجوه التحريم وقد أنبأك كما ترى عن التَّحريم أَنَّهُ يكون مِنْ
وجوه: فمنها ما يكون كالكذب والظلم والغش والغدر؛
وهذه أمورٌ لا تحلُّ على وجهٍ من الوجوه، ومنها ما يحرم في
العقل من ذبح الإنسانِ الطِّفْلِ، وجَعَلَ في العقول التَّبَيَّنَ
بأنَّ خالق الحيوانِ أو المالكَ له، والقادرَ على تعويضِهِ، يقبح

ذلك في السماع على السنة رسله، وهذا مما يحرم بعينه و بذاته لآ أنه حرّم لعله قد يجوز دفعها، والظلم نفسه هو الحرام، ولم يحرم لعله غير نفسه. وهو ما جاء من طريق التعبد، وما يعرف بالجملة، ويعرف بالتفسير.

ومنه ما يكون عقاباً، ويكون مع أنه عقابٌ امتحاناً واختباراً، كنحو ما ذكر من قوله: "ذَلِكَ جَزَيْتَاهُمْ بِبَعْغِهِمْ" وكنحو أصحاب البقرة الذين قيلَ لَهُمْ: اذْبَحُوا بَقْرَةَ فَإِنِّي أريد أن أضربَ بها القتلِ ثم أُخِيهَما جميعاً، ولو اعترضوا من جميع البقر بقرة فذبحوها، كانوا غيرَ مخالفين، فلما ذهبوا مذهب التلكؤ والتعلُّل، ثم التعرُّض، والتعنُّت في طريق التعنُّت، صار ذلك سبب تغليظ الفرض وقد قال الله عزَّ وجلَّ: "مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا" وقال الله تعالى: "الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ

مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ
وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ
الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ"
ومثله: "رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا" يجوز
أن يكونَ إنَّمَا يريدون صَرْفَ العذاب، ويجوز أن يكونَ إنما
يريدون تخفيف الفرائض، وقد يجوز أن يكونَ على قول من
قال: لا أستطيع النظرَ إلى فلانٍ، على معنى الاستقبال.
وبابُ آخرُ من التَّحريم، وهو قَوْلُهُ: "كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا
لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ
تُنزَلَ التَّوْرَةُ" شعر في الخنزير وقال مروان بن محمد:

يَمْشِي رُوَيْدًا يُرِيدُ خْتَلِكُمْ مَشِي خِنْزِيرَةٍ إِلَى عَذْرَةٍ
وقال آخر:

جَارُ الْخِنْزِيرَةِ الْمَرْضِعُ إِذَا مَا غَدَا، أَبُو كَلْثُومٍ

قد أصاب عند
صديق
من تريد مَلَبِدٍ مَأْدُومٍ
أنحى بجعره حاجب
سِ قَالَقَى كَالْمِغْلَفِ
المهْدُومِ
الشَّمِّ

جرير والحضرمي وقال أبو الحسن: وقد جريرٌ على هشامٍ، فقال الحضرمي: أَيُّكُمْ يَشْتَمُهُ؟ فقالوا:
ما أحدٌ يقدِّمُ عليه قال: فأنا أَشْتَمُهُ وبرصَى وَبَصَحَكَ قال: فقام إليه فقال: أنت جرير؟ قال: نعم،

قال: فلا قَرَبَ اللهُ دارَكَ ولا حَيًّا مَرَّارَكَ يا كَلْبُ فجعل جريئاً ينتفخ، ثمَّ قال له: رَضِيتَ في شرفِكَ وَفَضْلِكَ وَعَفَافِكَ أنْ تُهَاجِرَ القِرَدَ العَاجِزَ؟ يعني الفِرزدق، فضحك. فَحَدَّثَ صديقُ لي أبا الصَّلَعِ السَّنَدِيِّ بهذا الحديث، قال: فَشِعْرِي أعجِبُ من هذا لأنِّي شتَمْتُ البُحَلَاءَ، فَشَتَمْتُ نَفْسِي بأشَدِّ مِمَّا شَتَمْتَهُمْ، فقال: وما هو؟ قال قولي:

أَبْدَأَ يُسْمَعُ مِنِّي
قَدْرُهُ يَصْغُرُ عَنِّي

تَرَى بَيْتَ هِجَاءٍ
أَرْقَعُ مِمَّنْ

طريفة قال أبو الحسن: كان واحداً يسخر بالناس، وبدعي أنه يرقى من الصُّرس إذا ضرب على صاحبه، فكان إذا أتاه من يشتكي صُرسه قال له إذا رقاها: إِيَّاكَ أنْ تَذكرَ إذا صِرتَ إلى فراشِكَ القِرَدَ؛ فَإِنَّكَ إنْ ذَكَرْتَهُ بَطَلَّتِ الرُّقِيَّةُ فَكانَ إذا آوَى إلى فراشه أَوَّلَ شيءٍ يخطر على باله ذِكْرُ القِرَدِ، وبييت على حاله من ذلك الوَجَعِ، فيغدو إلى الذي رقاها فيقول له: كيف كنت البارحة؟ فيقول: يَشُّ وَجِعاً فيقول: لعلك ذكرت القرد فيقول: نعم فيقول: من تمَّ لم تنتفع بالرُّقية شعر لبعض طرفاء الكوفيين وقال بعض طرفاء الكوفيين:

يَشْرَبُ أَبُو قَرُوخٍ أَشْرَبُوا إنْ كَانَتْ مَعْتَقَةً عُقَّارَا
يَأْكُلُ أَبُو قَرُوخٍ أَكْلُ إنْ كَانَتْ حَنَانِيصاً صِغَارَا

قرد يزيد بن معاوية وقال يزيد بن معاوية:

جِيَادَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَتَانُ
فَليسَ عَلَيْهَا إنْ هَلَكْتَ
صَمَّانُ

مِبلُغُ القِرَدِ الَّذِي
سَبَقْتُ بِهِ
أَبَا قَيْسٍ بِهَا إنْ
أَطَعْتَنِي

جزع بشار من شعر الحماد وزعم الجرداني، أن بشاراً الأعمى، لم يجزع من هجاء قط كجزع من بيت حماد عجرد، حيث يقول:

إذا ما عمي القرد

أقبَحَ من قرد

شعر في الهجاء وقال بُشَيْرُ بن أبي جَذِيمَةَ العَبْسِيِّ:

وهل يستعدُّ القردُ
للخَطَرَانِ
وَلُوْمُ قُرودٍ وَسَطِ كُلِّ

أَتَخَطِرُ لِلأَشْرَافِ حَديمُ

قِصرُ الأذنانِ أنْ

يَخْطِرُوا بِهَا
سَمِنَتْ قِرْدَانُكُمْ آلَ وَأَحْسَابُكُمْ فِي الْحَيِّ غَيْرُ
مَكَانِ
سِيمَانِ

الأصمعيُّ عن أبي الأشهب عن أبي السليل قال: ما أبالي
أخزيراً رأيْتُ يُجَرُّ برجله، أو مثل عبيد ينادي: يالَ فلان
استطراد لغوي الأصمعيُّ عن أبي ظبيان قال: الخوز هم
البناء الذين بنوا الصَّرح واسمُهم مشتقُّ من الخنزير، ذهب
إلى اسمه بالفارسية خوك، فجعلت العرب خُوك خُوزاً، إلى
هَذَا ذَهَبَ.

تناسل المِسْخ وقد قال النَّاسُ فِي المَسْخِ بِأَقْوِيلَ مُخْتَلِفَةً:
فمنهم من زعم أن المِسْخَ لا يتناسل ولا يبقى إلا بقدر ما
يكونُ موعظةً وعِبْرَةً، فقطعوا على ذلك الشهادة، ومنهم
من زعم أَنَّهُ يَبْقَى ويتناسل، حتى جعل الصَّبَّ والجِرِّيَّ،
والأرانب، والكلاب وغير ذلك، من أولادِ تلك الأمم التي
مُسِخَتْ فِي هَذِهِ الصُّورِ، وكذلك قولهم فِي الحَيَّاتِ، وقالوا
فِي الوَزَغِ: إن أباهَا، لَمَّا صنع فِي نارِ إِبْرَاهِيمَ وَبَيْتِ المَقْدِسِ
ما صنع، أَصَمَّهُ اللهُ وَأَبْرَصَهُ، فقيل: سامُّ أبرص، فهذا الذي

نرى هو من ولده؛ حتى صار في قتله الأجر العظيم، ليس على أن الذي يقتله كالذي يقتل الأسد والدَّبَّاب، إذا خافها على المسلمين، وقالوا في سهيل، وفي الزُّهرة، وفي هاروت وماروت، وفي قيرى وعيرى أبوي ذي القرنين، وجُزهـم، مـا قـالوا.

القول في المسخ فأمَّا القول في نفس المسخ فإنَّ النَّاسَ اختلفوا في ذلك: فأمَّا الدُّهْرِيَّةُ فهم في ذلك صِنْفَان: فمنهم مَنْ جَحَدَ الْمَسْخَ وَأَقْرَبَ بِالْخَسْفِ وَالرَّيْحِ وَالطُّوفَانِ، وجعل الخسف كالزَّلَازِلِ، وزعم أنَّه يَقْرَأُ مِنَ الْقَدْفِ بما كان من البَرْدِ الْكِبَارِ؛ فأمَّا الحجاره فإنَّها لا تجيء من جهة السَّمَاءِ، وقال: لستُ أجوزُ إلاَّ ما اجتمعتِ عليه الأُمَّةُ أنَّه قد يحدث في العالم، فَأَنْكَرَ الْمَسْخَ الْبُتَّةَ. أثر البيئه وقال الصَّنْفِ الْآخِرُ: لا ننكر أن يفسد الهواء في ناحية من النواحي فيفسد ماؤهم وتفسد تربتهم، فيعمل ذلك في طباعهم على الأيام، كما عمل ذلك في طباع

الزنج، وطباع الصقالبة، وطباع بلاد ياجوج وماجوج، وقد رأينا
العرب وكانوا أعراباً حين نزلوا خراسان، كيف انسلخوا من
جميع تلك المعاني، وترى طباع بلاد الترك كيف تطبع الإبل
والدواب وجميع ماشيتهم: من سبي وبهيمية، على طبائعهم،
وترى جراد البقول والزجاجين وبيداتها خضراء، وتراها في
غير الخضرة على غير ذلك، وترى القملة في رأس الشاب
الأسود الشعر سوداء، وتراها في رأس الشيخ الأبيض
الشعر بيضاء، وتراها في رأس الأشمط شمطاء، وفي لون
الجمال الأورق، فإذا كانت في رأس الخضب بالحمرة تراها
حمراء، فإن تصل خضابه صار فيها شكلة، من بين بيض
وحمر، وقد نرى حرة بني سليم، وما اشتملت عليه من
إنسان، وسبع، وبهيمية، وطائر، وحشرة فتراها كلها سوداء،
وقد خبرنا من لا يحصى من الناس أنهم قد أدركوا رجالاً من
نبط بيسان، ولهم أذتاب إلا تكن كأذتاب التماسيح والأسد
والبقر والخيول؛ وإلا كأذتاب السلاحف والجردان، فقد كان

لهم عُجُوبٌ طِوَالٌ كالأذَنَابِ، وَرَبَّما رأينا المِلاحَ النَّبَطِيَّ في
بعض الجِعفرِيَّاتِ على وَجهِهِ شِبهُ القِرْدِ، وَرَبَّما رأينا الرِّجَلَ
من المِغْرِبِ فلا نَجِدُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ المِسخِ، إِلاَّ القليلَ، وَقَد يَجوزُ
أَن يصادِفُ ذلِكَ الهِواءُ الفاسِدُ، والماءُ الخبيثُ، والترِبَةُ
الرديَّةُ، ناساً في صِفَةِ هؤلاءِ المِغْرِبِيِّينَ والأنباطِ، وَيكونونَ
جُهاًلاً، فلا يَرتحلونَ؛ صَنائَةً بِمساكنِهِم وأوطانِهِم، ولا
يَنتقلونَ، فإذا طالَ ذلِكَ عليهم زادَ في تلكَ الشِعرِ، وفي
تلكَ الأذَنابِ، وفي تلكَ الألوانِ الشُّفْرِ، وفي تلكَ الصُّورِ
المُناسبةِ للقُرودِ، قالوا: ولم نَعرِفْ، ولم يَثبُتْ عندنا بالخبرِ
الذي لا يَعارِضُ، أَنَّ الموضعَ الذي قلبَ صُورِ قومٍ إلى صورِ
الخنازيرِ، هو الموضعَ الذي نَقلَ صُورِ قَومٍ إلى صُورِ القُرودِ،
وقَد يَجوزُ أَن تكونَ هذِهِ الصُّورُ انقلبتْ في مِهَبِّ الرِّيحِ
الشِّماليِّ، والأخرى في مِهَبِّ الجَنوبِ، وَيَجوزُ أَن يكونَ ذلِكَ
كانَ في دَهِرٍ واحدٍ؛ وَيَجوزُ أَن يكونَ بَينَهُما دَهِرٌ ودَهورٌ،
قالوا: فليسنا نَنكرُ المِسخَ إن كانَ على هذِهِ الترتيبِ؛ لأنَّهُ إن

كان على مجرى الطَّبَائِعِ، وما تدور به الأدوار، فليس ذلك
بناقضٍ لقولنا، ولا مُثَبِّتٍ لقولكم، قال أبو إسحاق: الذي قلمت
ليسَ بِمُحَالٍ، ولا يُنكَرُ أن يحدثَ في العالمِ برهاناتٌ، وذلك
المِسْحُ كان على مجرى ما أُعْطُوا من سائرِ الأعاجيبِ،
والدَّلَائِلِ والآياتِ، ونحنُ إنَّما عرفنا ذلك من قِبَلِهِمْ، ولولا
ذلك لكان الذي قلمتُ غيرُ ممتنعٍ، ولو كان ذلك المِسْحُ في
هذا الموضعِ على ما ذكرتم، ثمَّ خبر بذلك نبيُّ، أو دَعَا بِهِ
نبيُّ، لكان ذلك أعظمَ الحُجَّةِ، فأما أبو بكر الأصمُّ، وهشام
بن الحكم، فَإِنَّهُمَا كانا يقولانِ بالقلبِ، ويقولان: إِنَّهُ إذا جاز
أَنْ يقلبَ اللهُ حَرْدَلَةً من غيرِ أن يزيدَ فيها جسمًا وطولاً أو
عرضاً جاز أن يقلبَ ابنَ آدَمَ قِرْدًا من غيرِ أن ينقُصَ من
جسْمِهِ ط_____ولاً أو عرضاً.
وأما أبو إسحاق فقد كان لولا ما صَحَّ عنده من قول الأنبياء
وإجماع المسلمين على أَنَّهُ قد كان، وَأَنَّهُ قد كان حُجَّةً
وبرهاناً في وقته لكان لا ينكر مذهبهم في هذا الموضع،

وقوله هذا قولٌ جميعٍ من قال بالطَّبَّاعِ، ولم يذهبْ مذهبٌ
جَهْمٍ، وحفصٍ صِ الفِ القِرْدِ.

وقال ابن العنسيّ يذكر القرد:

عَدَاةَ الرَّمْلِ يَا قِرْدَ تُؤَامِرُهَا فِي تَفْسِهَا
تَسْتَشِيرُهَا

القول في تحريم الخنزير قال: وسأل سائلون في تحريم
الخنزير عن مسألة؛ فمنهم من أراد الطَّعْنَ، ومنهم من أراد
الاستفهام، ومنهم مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَعْرِفَ ذَلِكَ مِنْ جِهَةِ الْفُتْيَا؛
إِذْ كَانَ قَوْلُهُ خِلَافَ قَوْلِنَا.

قالوا: إِنَّمَا قَالَ اللَّهُ: "حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالِدَمُّ وَلَحْمُ
الْخِنْزِيرِ"، فذكر اللَّحْمَ دُونَ الشَّحْمِ، وَدُونَ الرَّأْسِ، وَدُونَ
الْمَخِّ، وَدُونَ الْعَصَبِ، وَدُونَ سَائِرِ أَجْزَائِهِ؛ وَلَمْ يَذْكُرْهُ كَمَا
ذَكَرَ الْمَيْتَةَ بِأَسْرَها، وَكَذَلِكَ الدَّمُّ؛ لِأَنَّ الْقَوْلَ وَقَعَ عَلَى
جَمَلْتَهُمَا، فَاشْتَمَلَ عَلَى جَمِيعِ خِصَالِهِمَا بِلِغْظٍ وَاحِدٍ، وَهُوَ
الْعُمُومُ، وَلَيْسَ ذَلِكَ فِي الْخِنْزِيرِ؛ لِأَنَّهُ ذَكَرَ اللَّحْمَ مِنْ بَيْنِ
جَمِيعِ أَجْزَائِهِ وَلَيْسَ بَيْنَ ذِكْرِ اللَّحْمِ وَالْعِظْمِ فَرْقٌ، وَلَا بَيْنَ

اللَّحْمِ وَالشَّحْمِ فَرَقَ، وَقَدْ كَانَ يَنْبَغِي فِي قِيَاسِكُمْ هَذَا لَوْ
قَالَ: حَرَّمَ عَلَيْنَا الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَالشَّحْمَ وَالْخَنزِيرَ، أَنْ تَحَرَّمُوا
الشَّحْمَ، وَإِنَّمَا ذَكَرَ اللَّحْمَ، فَلِمَ حَرَّمَ الشَّحْمَ؛ وَمَا بِالْكُفْمُ؛
تَحَرَّمُونَ الشَّحْمَ عِنْدَ ذِكْرِ غَيْرِ الشَّحْمِ فَهَلَّا حَرَّمَ اللَّحْمَ
بِالْكِتَابِ، وَحَرَّمْتُمْ مَا سِوَاهُ بِالْخَبَرِ الَّذِي لَا يُدْفَعُ؟ فَإِنْ بَقِيََتْ
خَصْلَةٌ أَوْ خَصْلَتَانِ مِمَّا لَمْ تُصِيبُوا ذِكْرَهُ فِي كِتَابٍ مَنَزَّلٍ،
وَفِي أَثَرٍ لَا يَدْفَعُ، رَدَدْتُمُوهُ إِلَى جِهَةِ الْعَقْلِ، قُلْنَا: إِنَّ النَّاسَ
عَادَاتٍ، وَكَلَامًا يَعْرِفُ كُلُّ شَيْءٍ بِمَوْضِعِهِ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ عَلَى
قَدْرِ اسْتِعْمَالِهِمْ لَهُ، وَانْتِفَاعِهِمْ بِهِ، وَقَدْ يَقُولُ الرَّجُلُ لِمَوْكِلِهِ:
اشْتَرِ لِي بِهَذَا الدِّينَارِ لَحْمًا، أَوْ بِهَذِهِ الدِّرَاهِمِ، فَيَأْتِيهِ بِاللَّحْمِ
فِيهِ الشَّحْمُ وَالْعِظْمُ، وَالْعِرْقُ وَالْعَصَبُ وَالْغُضْرُوفُ، وَالْفُؤَادُ
وَالطَّحَالُ، وَالرِّئَةُ، وَبَعْضُ أَسْقَاطِ الشَّاةِ وَحَشْوِ الْبَطْنِ،
وَالرَّأْسِ لَحْمٌ، وَالسَّمَكُ أَيْضًا لَحْمٌ، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: "هُوَ
الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا
مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا"، فَإِنْ كَانَ الرَّسُولُ ذَهَبَ إِلَى الْمُسْتَعْمَلِ

من ذلك، وتَرَكَ بَعْضَ ما يقع عليه اسمُ لحم، فقد أخذَ بما
عَلَيْهِ صاحبه، فإذا قال حَرَّمْتُ عَلَيْكُمُ لَحْمًا، فكأَنَّهُ قال: لحم
الشَّاةِ والبقرة والجزور، ولو أنَّ رَجُلًا قال: أكلت لحما وإنَّما
أكل رأساً أو كبداً أو سمكاً لم يكن كاذباً، وللناس أن يَضْعُوا
كلامهم حيثُ أَحَبُّوا، إذا كان لهم مجازٌ؛ إِلَّا في المعاملات،
فإنَّ قُلْتُ: فما تقول في الجلدِ؟ فليس للخنزير جلد، كما أَنَّهُ
ليس للإنسان جلدٌ إِلَّا بقطع ما ظهر لك منه بما تحته، وإنَّما
الجلد ما يُسْلَخُ وَيُدْحَسُ فيتبرأ ممَّا كان به مُلتزقاً ولم يكن
مُلتحماً، كفرق ما بين جلد الخَوْصَلَةِ والعِرْقِين.
فإنَّ سألتَ عن الشَّعر، وعن جلد المنْحَنِقَةِ والمَوْقُودَةِ
والمتردِّيةِ والنَّطِيحَةِ وما أكل السَّبْعُ، فإِنِّي أزعِمُ أَنَّ جلدهُ لَا
يُذَبِّغُ وَلَا يَنْتَفِعُ بِهِ إِلَّا الأَسَاكِفَةُ، والقول في ذلك أَنَّ كَلَّهُ
محَرَّمٌ، وإنَّما ذلك كقوله تعالى: "وَمَنْ يُؤَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبرُهُ"
وكقوله عَزَّ وَجَلَّ: "وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا
أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ" والعَرَبُ تقول للرجل الصانع نجَّاراً، إن كان لَا

يعمل بالْمِنْقَبِ والمنشار ونحوه ولا يضرب بالمضلع ونحو ذلك، وتسميه خَبَازًا إذا كان يطبخ ويعجن، وتسمي العيرَ لطيمة، وإن لم يكن فيها ما يحمل العِطْرَ إلاّ واحد، وتقول: هذه ظُعْنُ فُلَانٍ؛ للهودج إذا كانت فيها امرأة واحدة، ويقال: هولاء بنو فُلَانٍ؛ وإن كانت نساؤهم أكثر من الرجال، فلما كان اللحم هو العمود الذي إليه يُقَصَد، وصار في أعظم الأجزاء قَدْرًا، دَخَلَ سائرُ تلك الأجزاء في اسمه، ولو كان الشَّحْمُ معتزلاً من اللَّحْمِ ومفرداً في جميع الشَّحَامِ، كشحوم الكلى والثُّرُوبِ، لم يجرُ ذلك، وإذا تكلمت على المفردات لم يكن المَخُّ لحمًا، لا المدِّماغُ، ولا العظم، ولا الشَّحْمُ، ولا الغُضْرُوفُ، ولا الكروشُ، ولا ما أشبه ذلك، فلما قال: "حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالِدَمُّ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ" وكانت هذه الأشياء المشبَّهة باللحم تدخُلُ في باب العموم في اسم اللحم، كان القَوْلُ واقعاً على الجميع.

وقال الشاعر:

يَأْتِنَا صُبْحاً يَرِيدُ عَذَابِنَاهُمْ مَنْصَجَةً لَدَى السَّحَابِ
تَضِيحُ لَا يُعْنِي طَابِخاً بِهِ مِنْ قَبْلِ كُلِّ طَعَامٍ

مسألة الهدد وإذ قد ذكرنا بعض الكلام، والمسائل في
بعض الكلام، فسندكر شأن الهدد والمسألة في ذلك، قال
الله عز وجل: "وَتَقَعَدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدُودَ أَمْ
كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ، لَأَعَدِّبَنَّهُ عَذَابًا أَوْ لَأَذِيبَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ
مُبِينٍ" ثم قال: "فَمَكَتْ غَيْرَ بَعِيدٍ" يعني الهدد، فقال
لسليمان المتوعد له بالذبح عقوبة له والعقوبة لا تكون إلا
على المعصية لبشري آدمي لم تكن عقوبته الذبح، فدل ذلك
على أن المعصية إنما كانت له، ولا تكون المعصية لله إلا
ممن يعرف الله، أو ممن كان يمكنه أن يعرف الله تعالى
فترك ما يجب عليه من المعرفة وفي قوله لسليمان:
"أَخَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَأَ بِنِيبٍ يَاقِينِ، إِنِّي وَجَدْتُ
أَمْرًا تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ"، ثم
قال بعد أن عرف فضل ما بين الملوك والسُّوقَة، وما بين
النساء والرجال، وعرف عظم عرشها، وكثرة ما أوتيت في

ملكها، قال: وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ
وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا
يَهْتَدُونَ فَعَرَفَ السُّجُودَ لِلشَّمْسِ وَأَنْكَرَ المعاصي، ثمَّ قال:
"أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الحَبَّاءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَيَعْلَمُ مَا يُخْفُونَ وَمَا يَعْلَمُونَ" ويتعجب من سجودهم لغير
الله، ثمَّ علمَ أَنَّ اللهَ يعلمُ غيبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَيَعْلَمُ
السِّرَّ وَالْعَلَانِيَةَ، ثمَّ قال: "اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ العَرْشِ
العَظِيمِ" وهذا يدلُّ على أَنَّهُ اعْلَمُ مِنْ ناسٍ كَثِيرٍ مِنَ المميِّزين
المسندين النـاطرين.

قال سليمان: سَتَنْظُرُونَ أَصَدَقْتِ أَمْ كُنْتِ مِنَ الكاذِبِينَ ثمَّ قال:
"أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقَيْتُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا
يَرْجِعُونَ، قَالَتْ يَا أَيُّهَا المَلَأُؤْتِي أَلْقَيْتُ إِلَيَّ كِتَابَ كَرِيمٍ، إِنَّهُ مِنْ
سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، أَلَّا تَعْلَمُونَ عَلَيَّ وَأُتُونِي
مُسْلِمِينَ". "فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِي بِمَالٍ فَمَا آتَانِي
اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدْيَتِكُمْ تَفْرَحُونَ". وذلك أَنَّهَا

قالت: إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا
أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ
يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ثُمَّ قَالَ سَلِيمَانُ لِلْهَدُودِ: ارْجِعْ إِلَيْهِمْ
فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ
صَاغِرُونَ وَقَالَ: "يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ
يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ، قَالَ عِفْرِيثُ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ
تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ، قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ
مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رآهُ
مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُونِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ
وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ"
فقطعن في جميع ذلك طاعنون، فقال بعضهم: قد ثبت أن
الهدهد يحتمل العقاب والعتاب، والتكليف والثواب، والولاية،
ودخول الجنة بالطاعة، ودخول النار بالمعصية؛ لأن المعرفة
توجب الأمر والنهي، والأمر والنهي يوجبان الطاعة
والمعصية، والطاعة والمعصية يوجبان الولاية والعداوة،

فينبغي للهداهد أن يكون فيها العدو والولي، والكافر
والمسلم، والزنديق والدَّهْرِيّ. وإذا كان حُكْمُ الجنس حُكْمًا
واحدًا لزم الجميع ذلك، وإن كان الهدهد لا يبلغ عند جميع
الناس في المعرفة مبلغ المذرة، والنملة، والقملة، والفيل،
والقرد، والخنزير، والحمام وجميع هذه الأمم، تُقَدِّمُهَا عليه،
في المعرفة فينبغي أن تكون هذه الأصناف المتقدِّمة عليه،
في عقول هذه الأمة والأنبياء، وقد رأينا العلماء يتعجبون من
خُرَافَاتِ العَرَبِ والأعرابِ في الجاهليَّةِ ومن قولهم في الدِّيكِ
والغراب، ويتعجبون من الرواية في طوق الحمام فإنَّ الحمام
كان رائد نوح على نبينا وعليه السلام، وهذا القول الذي
تؤمنون به في الهدهد، من هذا النوع، قُلْنَا: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ
يَقُلْ: وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى هَدَهْدًا مِنْ عُرْضِ
الهداهد، فلم يوقع قوله على الهداهد جُمْلَةً، ولا على واحدٍ
منها غير مقصودٍ إليه، ولم يذهب إلى الجنس عامَّةً، ولكِنَّهُ
قَالَ: "وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ" فأدخَلَ في

الاسم الألف واللام، فجعله معرفة فدلَّ بذلك القصد على أنَّه ذلك الهدهُدُ بعينه، وكذلك عُرابُ نوح، وكذلك حمارُ عُزير، وكذلك ذئبُ أهبانَ بن أوس؛ فقد كانَ لِلَّهِ فيه وفيها تدبيرٌ، وليجَعَلَ ذلك آيةً لأنبيائه، وبرهاناً لرسله، ولا يستطيعُ أَعْقَلُ الناس أن يعملَ عملَ أجرِ النَّاسِ، كما لا يستطيعُ أجرُ النَّاسِ أن يعملَ أعمالَ أَعْقَلِ الناسِ، فبأعمالِ المجانينِ والعُقلاءِ عَرَفْنَا مقدارَهما من صحَّةِ أذهانهما وفسادها، وباختلافِ أعمالِ الأطفالِ والكهولِ عَرَفْنَا مقدارَهما في الضَّعْفِ والقوَّةِ، وفي الجهلِ والمعرفةِ، وبمثل ذلك فَصَلْنَا بين الجمادِ والحيوانِ، والعالمِ وأَعْلَمَ منه، والجاهلِ وأَجْهَلَ منه، ولو كان عند السُّبَّاعِ والبهائمِ ما عند الحكماءِ والأدباءِ، والوزَّراءِ والخلفاءِ والأممِ والأنبياءِ، لأثمرت تلك العقولُ، باضطرارٍ، إثمَارَ تلك العقولِ، وهذا بابٌ لا يخطئُ فيه إلا المانيَّةُ وأصحابُ الجهالاتِ فقط، فأَمَّا عوامُّ الأممِ، فضلاً عن خواصهم، فهم يعلمون مِن ذلك مثلَ ما نعلم، وإنما يُتفاضَلُ

بالبيان والحفظ، وبنسق المحفوظ، فأما المعرفة فنحن فيها سواء، ولم نعرف العقل وعدمه ونقصانه، وإفادته، وأقدار معارف الحيوان إلا بما يظهر منها، وبتلك الأدلة عرفنا فرق ما بين الحي والميت، وبين الجماد والحيوان، فإن قال الخصم: ما نعرف كلام المدّئب، ولا معرفة العُراب، ولا علم الهدد، قلنا: نحن نؤمن بأن عيسى عليه السلام خلق من غير ذكرٍ وإنما خلق من أنثى؛ وأن آدَمَ وحواءَ خلقا من غير ذكرٍ وأنثى، وأن عيسى تكلم في المهد، وأن يحيى بن زكريّا نطق بالحكمة في الصّبا، وأن عقيماً ألقح، وأن عاقراً ولدت؛ وبأشياء كثيرة خرجت خارجةً من تسقى العادة، فالسبب الذي به عرفنا أنه قد كان لذلك الهدد مقدارٌ من المعرفة، دون ما توهمتم وفوق ما مع الهدد، ومتى سألتمونا عن الحجّة فالسبيل واحدة، ونحن نقرُّ بأنّ من دخل الجنّة من المجانين والأطفال يدخلون عقلاءً كاملين، من غير تجارب وتمارين وترتيب، فمسألتكم عما ألهم الهدد، هي المسألة

عَمَّا أَلْهَمَ الطِّفْلَ فِي الْجَنَّةِ، فَإِنْ قَالَ قَائِلًا: فَإِنَّ كَانَ ذَلِكَ
الْقَوْلَ كُلَّهُ، الَّذِي كَانَ مِنَ الْهَدِيدِ، إِنَّمَا كَانَ عَلَى الْإِلْهَامِ
وَالْتَّسْخِيرِ، وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ عَنْ مَعْرِفَةٍ مِنْهُ، فَلَمْ يَقُلْ: "لَأُعَذِّبَنَّ
عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّه"؟ قُلْنَا: فَإِنَّهُ قَدْ يَتَوَعَّدُ الرَّجُلُ ابْنَهُ وَهُوَ
بَعْدُ لَمْ يَجْرِعْ عَلَيْهِ الْأَحْكَامُ بِالضَّرْبِ الْوَجِيعِ، إِنْ هُوَ لَمْ يَأْتِ
السُّوقَ، أَوْ يَحْفَظُ سُورَةَ كَذَا وَكَذَا؛ فَلَا يَعْتَفُّ أَحَدٌ عَلَى ذَلِكَ
الْوَعِيدِ، وَيَكْذِبُ فَيَضْرِبُهُ عَلَى الْكُذْبِ، وَيَضْرِبُ صَبِيًّا فَيَضْرِبُهُ
لأنَّهُ ضَرَبَهُ، وَهُوَ فِي ذَلِكَ قَدْ حَسُنَ خَطُّهُ، وَجَادَ حِسَابُهُ، وَشَدَا
مِنَ النَّحْوِ وَالْعُرُوضِ وَالْفَرَائِضِ شَدْوًا حَسَنًا، وَنَفَعَ أَهْلَهُ، وَتَعَلَّمَ
أَعْمَالًا، وَتَكَلَّمَ بِكَلَامٍ، وَأَجَابَ فِي الْفَتْيَا بِكَلَامٍ فَوْقَ مَعَانِي
الْهَدِيدِ فِي اللَّطَافَةِ وَالْغَمُوضِ، وَهُوَ فِي ذَلِكَ لَمْ يَكْمُلْ
لِاحْتِمَالِ الْفَرَضِ وَالْوَلَايَةِ وَالْعَدَاوَةِ، فَإِنْ قَالَ: فَهَلْ يَجُوزُ لِأَحَدٍ
أَنْ يَقُولَ لِابْنِهِ: إِنَّ أَنْتَ لَمْ تَأْتِ السُّوقَ ذَبَحْتُكَ؛ وَهُوَ جَادٌّ؟ قُلْنَا:
لَا يَجُوزُ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا جازَ ذَلِكَ فِي الْهَدِيدِ لِأَنَّ سَلِيمَانَ وَمَنْ هُوَ
دُونَ سَلِيمَانَ مِنْ جَمِيعِ الْعَالَمِ لَهُ أَنْ يَذْبَحَ الْهَدِيدَ وَالْحَمَامَ

والدَّيْكَ، والعَنَاق والجَدْي، والدَّبِيحُ سبيلٌ من سُبُل مناياهم،
فلو ذبحهُ سليمانُ لم يكن في ذلك إلاَّ بقدر التَّقْدِيم والتَّأخِير،
وإلاَّ بقَدْر صَرَفٍ ما بين أن يموت حَتْفَ أَنفِهِ، أو يموتَ بالدَّبِيحِ،
ولَعَلَّ صَرَفَ ما بينهما لا يكون إلاَّ بمقدار ألمِ عِشْرِينَ دِرَّةً،
ولَعَلَّ نَتْفَ جَنَاحِهِ يَفِي بِذَلِكَ الضَّرْبِ، وإذا قلنا ذلك فقد
أعطينا ذلك الهدهدَ بعينه حقَّ ما دَلَّتْ عليه الآية، ولم نَجْزُ ذلك
في جميع الهداهد، ولم تَكُنْ كَمَنْ يَنْكُرُ قَدْرَةَ اللَّهِ على أن
يُرَكَّبَ عَصْفوراً من العصافير ضرباً من التراكيب يكون أدهى
من قيس بن زهير، ولو كان الله تعالى قد فعل ذلك
بالعصافير لظهرت كذلك دلائل، على أَنَّا لو تأوَّلنا الدَّبِيحَ على
مثالِ تأويلِ قولنا في ذَبْحِ إبراهيمَ إِسْمَاعِيلَ عليهما السلام -
وَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ ذَبْحاً فِي الْمَعْنَى لِغَيْرِهِ أَوْ عَلَى مَعْنَى قَوْلِ
الْقَائِلِ: أَمَّا أَنَا فَقَدْ ذَبَحْتَهُ وَضَرَبْتُ عُنُقَهُ، وَلَكِنِ السِّيفُ خَانَنِي،
أَوْ عَلَى قَوْلِهِمْ: الْمِسْكُ الدَّبِيحُ، أَوْ عَلَى قَوْلِهِمْ: فَجِئْتُ وَقَدْ
دَبَحَنِي الْعَطَشُ لَكَانَ ذَلِكَ مُجَازاً، وَلَوْ أَنَّ صَبِيّاً مِنْ صَبِيَانَا

سُئِلَ، قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ فَرَضَ الْبُلُوغِ بِسَاعَةٍ، وَكَانَ رَأَى مَلِكَةَ سَبَا
فِي جَمِيعِ حَالَاتِهَا، لَمَّا كَانَ بَعِيداً وَلَا مَمْتَنِعاً أَنْ يَقُولَ: رَأَيْتُ
امْرَأَةً مَلِكَةً، وَرَأَيْتُهَا تَسْجُدُ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَرَأَيْتُهَا
تُطِيعُ الشَّيْطَانَ وَتَعْصِي الرَّحْمَنَ، وَلَا سِيْمَا إِنْ كَانَ مِنْ صِبْيَانِ
الْخَلَفَاءِ وَالْمُؤَزَّرَاءِ، أَوْ مِنْ صِبْيَانِ الْأَعْرَابِ، وَالِدَلِيلِ عَلَى أَنَّ
ذَلِكَ الْهَدَّ كَانَ مَسْحَرًا وَمَيْسَرًا، مَضِيَّهُ إِلَى الْيَمَنِ، وَرَجُوعُهُ
مِنْ سَاعَتِهِ، وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الطَّيْرِ الْقَوَاطِعِ فَرَجَعَ إِلَى وَكْرِهِ،
وَالدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ سَلِيمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَقُلْ: نَعَمْ قَدْ
رَأَيْتُ كُلَّ مَا ذَكَرْتَ، وَأَنْتَ لَمْ تَعْلَمْ حِينَ مَضَيْتَ بَطَّالًا هَارِبًا
مِنَ الْعَمَلِ، أَتُكْذِبُ أَمْ تَنْجَحُ، أَوْ تَرَى أُعْجُوبَةً أَوْ لَا تَرَاهَا، وَلَكِنَّهُ
تَوَعَّدَهُ عَلَى ظَاهِرِ الرَّأْيِ، وَنَافِرِهِ الْقَوْلِ؛ لِيُظْهِرَ الْآيَةَ
وَالْأَعْجُوبَةَ. نَاقِ وَالْجُدِّي، وَالذَّبْحُ سَبِيلٌ مِنْ سُبُلِ مَنَائِهِمْ، فَلَوْ
ذَبَحَهُ سَلِيمَانُ لَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ إِلَّا بِقَدْرِ التَّقْدِيمِ وَالتَّأخِيرِ، وَإِلَّا
بِقَدْرِ صَرْفِ مَا بَيْنَ أَنْ يَمُوتَ حَتْفَ أَنْفِهِ، أَوْ يَمُوتَ بِالذَّبْحِ،
وَلَعَلَّ صَرْفَ مَا بَيْنَهُمَا لَا يَكُونُ إِلَّا بِمَقْدَارِ أَلْفِ عِشْرِينَ دِرَّةً،

ولعلَّ نَفَّ جَنَاحِهِ يَفِي بِذَلِكَ الضَّرْبِ، وَإِذَا قَلْنَا ذَلِكَ فَقَدْ
أَعْطَيْنَا ذَلِكَ الْهَدَهْدَ بَعِينَهُ حَقًّا مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الْآيَةُ، وَلَمْ نَجْزُ ذَلِكَ
فِي جَمِيعِ الْهَدَاهِدِ، وَلَمْ تَكُنْ كَمَنْ يَنْكُرُ قُدْرَةَ اللَّهِ عَلَى أَنْ
يُرَكِّبَ عَصْفُورًا مِنَ الْعَصَافِيرِ ضَرْبًا مِنَ التَّرَاكِيِبِ يَكُونُ أَدْهَى
مَنْ قَيْسِ بْنِ زَهِيرٍ، وَلَوْ كَانَ اللَّهُ تَعَالَى قَدْ فَعَلَ ذَلِكَ
بِالْعَصَافِيرِ لَظَهَرَتْ كَذَلِكَ دَلَائِلُ، عَلَى أَنَّ لَوْ تَأَوَّلْنَا الذَّبِيحَ عَلَى
مِثَالِ تَأْوِيلِ قَوْلِنَا فِي ذَبْحِ إِبْرَاهِيمَ إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ -
وَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ ذَبْحًا فِي الْمَعْنَى لِغَيْرِهِ أَوْ عَلَى مَعْنَى قَوْلِ
الْقَائِلِ: أَمَّا أَنَا فَقَدْ ذَبَحْتَهُ وَضَرَبْتُ عُنُقَهُ، وَلَكِنِ السَّيْفُ خَانِنِي،
أَوْ عَلَى قَوْلِهِمْ: الْمِسْكُ الذَّبِيحُ، أَوْ عَلَى قَوْلِهِمْ: فَجِئْتُ وَقَدْ
ذَبَحَنِي الْعَطَشُ لَكَ ذَلِكَ مَجَازًا، وَلَوْ أَنَّ صَبِيًّا مِنْ صَبِيَانِنَا
سُئِلَ، قَبْلَ أَنْ يَبْلُغَ فَرَضَ الْبُلُوغِ بِسَاعَةٍ، وَكَانَ رَأَى مَلِكَةً سَبِيًّا
فِي جَمِيعِ حَالَاتِهَا، لَمَا كَانَ بَعِيدًا وَلَا مَمْتَنَعًا أَنْ يَقُولَ: رَأَيْتُ
امْرَأَةً مَلِكَةً، وَرَأَيْتُهَا تَسْجُدُ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَرَأَيْتُهَا
تُطِيعُ الشَّيْطَانَ وَتَعْصِي الرَّحْمَنَ، وَلَا سِيْمَا إِنْ كَانَ مِنْ صَبِيَانِ

الخلفاء والوزراء، أو من صبيان الأعراب، والدليل على أن ذلك الهدد كان مسخراً وميسراً، مضيئه إلى اليمن، ورجوعه من ساعته، ولم يكن من الطير القواطع فرجع إلى وكره، والدليل على ذلك أن سليمان عليه السلام لم يقل: نعم قد رأيت كل ما ذكرت، وأنت لم تعلم حين مضيت بطالاً هارباً من العمل، أتكدي أم تنجح، أو ترى أعجوبة أو لا تراها، ولكنّه توعدّه على ظاهر الرّأي، ونافره القول؛ ليظهر الآية والأعجوبة.

طعن الدهرية في ملك سليمان ثم طعن في ملك سليمان ومليكة سبأ، ناس من الدهرية، وقالوا: زعمتم أن سليمان سأل ربه فقال: "رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي" وأن الله تعالى أعطاه ذلك، فملكه على الجن فضلاً عن الإنس، وعلمه منطق الطير، وسخر له الريح، فكانت الجن له حولاً، والرياح له مسخرة ثم زعمتم وهو إما بالشام وإما بسواد العراق أنه لا يعرف باليمن ملكة هذه

صفتها، وملوكتنا اليوم دون سليمان في القدرة، لا يخفى عليهم صاحب الخزر، ولا صاحب الروم، ولا صاحب الترك، ولا صاحب التوبة، وكيف يجهل سليمان موضع هذه الملكة، مع قرب دارها واتصال بلادها وليس دوتها بحار ولا أوعار؛ والطريق نهج للحف والحافر والقدم، فكيف والجن والإنس طوعاً يمينه، ولو كان، حين خبره الهدد بمكانها، أضرب عنها صفحاً، لكان لقائل أن يقول: ما أتاه الهدد إلا بأمر يعرفه، فهذا وما أشبهه دليل على فساد أخباركم. قلنا: إن الدنيا إذا خلاها الله وتدبير أهلها، ومجاري أمورها وعاداتها كان لعمرى كما تقولون، ونحن نزعم أن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم كان أئمة أهل زمانه؛ لأنه نبي ابن نبي، وكان يوسف وزير ملك مصر من النباهة بالموضع الذي لا يدقع، وله البرد، وإليه يرجع جواب الأخبار، ثم لم يعرف يعقوب مكان يوسف، ولا يوسف مكان يعقوب عليهما السلام - دهرًا من الدهور، مع النباهة، والقدرة، واتصال الدار وكذلك

القولُ في موسى بنِ عمرانَ وَمَنْ كَانَ معه في التَّيِّه، فقد كانوا أُمَّةً من الأممِ يَتَكَسَّبُونَ أربعين عاماً، في مقدارِ فراسخٍ يسيرةٍ ولا يهتدون إلى المخرج، وما كانت بلادُ التَّيِّه إلا من ملاعبهم ومُنْتَزَهاتهم، ولا يعدم مثلُ ذلك العسكرِ الأدلاءَ والجَمَّالين، والمُكاريين، والفُيُوج، والرُّسل، والتُّجار، ولكنَّ الله صَرَفَ أوهامهم، ورفع ذلك القَصلَ من صدورهم. وكذلك القول في الشَّياطين الذين يسترِقون السَّمْعَ في كلِّ ليلة، فنَقُولُ: إِنَّهم لو كان كلما أراد مُريدٌ منهم أن يصعدَ ذَكَرَ أَنَّهُ قد رُجم صاحِبُه، وأَنَّهُ كذلك منذ كان لم يصل معه أحدٌ إلى استراقِ السَّمْع، كان مُحالاً أن يرومَ ذلك أحدٌ منهم مع الذِّكر والعِيان.

ومثل ذلك أَنَّا قد علمنا أَنَّ إبليسَ لا يزالُ عاصياً إلى يومِ البعث، ولو كان إبليسُ في حال المعصية ذاكراً لإخبارِ الله تعالى أَنَّهُ لا يزالُ عاصياً وهو يَعلم أَنَّ خَبْرَهُ صِدْقٌ، كان مُحالاً أَنْ تدعُوهُ نفسه إلى الإيمانِ، ويطمَع في ذلك، مع تصديقِهِ

بِسْأَتِهِ لَا يَخْتَارُ الْإِيمَانَ أَبَدًا.
وَمِنَ الْمَحَالِّ أَنْ يَجْمَعَ بَيْنَ وُجُودِ الْإِسْتِطَاعَةِ وَعَدَمِ الدَّوَاعِي
وَجَوَازِ الْفِعْلِ. وَلَوْ أَنَّ رَجُلًا عَلِمَ يَقِينًا أَنَّهُ لَا يَخْرُجُ مِنْ بَيْتِهِ
يَوْمَهُ ذَلِكَ، كَانَ مُحَالًّا أَنْ تَدْعُوهُ نَفْسُهُ إِلَى الْخُرُوجِ، مَعَ عِلْمِهِ
بِأَنَّهُ لَا يَفْعَلُ، وَلَكِنَّ إِبْلِيسَ لَمَّا كَانَ مَصْرُوفَ الْقَلْبِ عَنْ ذِكْرِ
ذَلِكَ الْخَبَرِ، دَخَلَ فِي حَدِّ الْمُسْتَطِيعِينَ، وَمِثْلُ ذَلِكَ أَنَّ النَّبِيَّ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا بَشَّرَهُ اللَّهُ بِالظَّفْرِ وَتَمَامِ الْأَمْرِ بِشَرِّ
أَصْحَابِهِ بِالنَّصْرِ، وَنَزُولِ الْمَلَائِكَةِ، وَلَوْ كَانُوا لِذَلِكَ ذَاكِرِينَ فِي
كُلِّ حَالٍ، لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِمْ مِنَ الْمَحَارِبَةِ مَوْئِنَةٌ، وَإِذَا لَمْ يَتَكَلَّفُوا
الْمَوْئِنَةَ لَمْ يُؤَجَّرُوا، وَلَكِنَّ اللَّهَ تَعَالَى بِنَظَرِهِ إِلَيْهِمْ رَفَعَ ذَلِكَ
فِي كَثِيرٍ مِنَ الْحَالَاتِ عَنْ أَوْهَامِهِمْ؛ لِيَحْتَمِلُوا مَشَقَّةَ الْقِتَالِ،
وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ: أَيُغْلِبُونَ أَمْ يُغْلَبُونَ؛ أَوْ يَقْتُلُونَ أَمْ
يُقْتَلُونَ، وَمِثْلُ ذَلِكَ مَا رَفَعَ مِنْ أَوْهَامِ الْعَرَبِ، وَصَرَفَ نَفُوسَهُمْ
عَنِ الْمَعَارِضَةِ الْقُرْآنِ، بَعْدَ أَنْ تَحَدَّاهُمُ الرَّسُولُ بِنَظْمِهِ،
وَلِذَلِكَ لَمْ تَجِدْ أَحَدًا طَمِعَ فِيهِ، وَلَوْ طَمِعَ فِيهِ لَتَكَلَّفَهُ، وَلَوْ تَكَلَّفَ

بَعْضُهُمْ ذَلِكَ فَجَاءَ بِأَمْرٍ فِيهِ أَدْنَى شُبْهَةٍ لِعِظَمَتِ الْقِصَّةِ عَلَى
الْأَعْرَابِ وَأَشْبَاهِ الْأَعْرَابِ، وَالنِّسَاءِ وَأَشْبَاهِ النِّسَاءِ، وَلَأَلْقَى
ذَلِكَ لِلْمُسْلِمِينَ عَمَلًا، وَلَطَلَّبُوا الْمَحَاكِمَةَ وَالتَّرَاضِي بِبَعْضِ
العرب، وَلَكَثُرَ الْقِيلُ وَالْقَالَ، فَقَدْ رَأَيْتَ أَصْحَابَ مُسَيْلَمَةَ،
وَأَصْحَابَ ابْنِ النُّوَاحَةِ إِنَّمَا تَعَلَّقُوا بِمَا أَلْفَ لَهُمْ مُسَيْلَمَةَ مِنْ
ذَلِكَ الْكَلَامِ، الَّذِي يَعْلَمُ كُلُّ مَنْ سَمِعَهُ أَنَّهُ إِنَّمَا عَدَا عَلَى
الْقُرْآنِ فَسَلَبَهُ، وَأَخَذَ بَعْضَهُ، وَتَعَاطَى أَنْ يُقَارِتَهُ، فَكَانَ لِلَّهِ
ذَلِكَ التَّدْبِيرُ، الَّذِي لَا يَبْلُغُهُ الْعِبَادُ وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ، فَإِنْ كَانَ
الدُّهْرِيُّ يُرِيدُ مِنْ أَصْحَابِ الْعِبَادَاتِ وَالرُّسُلِ، مَا يُرِيدُ مِنَ
الدُّهْرِيِّ الصَّرْفِ، الَّذِي لَا يُقَرُّ إِلَّا بِمَا أَوْجَدَهُ الْعِيَانُ، وَمَا يَجْرِي
مَجْرَى الْعِيَانِ فَقَدْ ظَلَمَ. وَقَدْ عَلِمَ الدُّهْرِيُّ أَنَّنَا نَعْتَقِدُ أَنَّ لَنَا رَبًّا
يَخْتَرِعُ الْأَجْسَامَ اخْتِرَاعًا وَأَنَّهُ حَيٌّ لَا بِحَيَاةٍ، وَعَالَمٌ لَا بِعِلْمٍ، وَأَنَّهُ
شَيْءٌ لَا يَنْقَسِمُ، وَلَيْسَ بِذِي طُولٍ وَلَا عَرْضٍ وَلَا عُقْمٍ، وَأَنَّ
الْأَنْبِيَاءَ تَحْيِي الْمَوْتَى، وَهَذَا كُلُّهُ عِنْدَ الدُّهْرِيِّ مُسْتَنَكَّرٌ، وَإِنَّمَا
كَانَ يَكُونُ لَهُ عَلَيْنَا سَبِيلٌ لَوْلَمْ يَكُنِ الَّذِي ذَكَرْنَا جَائِزًا فِي

القياس، واحتجنا إلى تثبيت الرُّبُوبِيَّةِ وتصديقِ الرِّسَالَةِ، فإذا كان ذلك جائِزاً، وكانَ كونه غيرَ مستنكَرٍ، ولا محالٍ، ولا ظلم، ولا عيبٍ، فلم يبقَ له إلا أنْ يسألَنَا عن الأصلِ الذي دعا إلى التَّوْحِيدِ، وإلى تثبيت الرسل، وفي كتابنا المنزَّل الذي يدلُّنا على أنَّه صدِّقٌ، نَظَّمَهُ البديع الذي لا يقدر على مثله العباد، مَعَ ما سيوى ذلك من الدَّلَائِلِ التي جَاءَ بها مَنْ جَاءَ به، وفيه مسطورٌ أنَّ سليمانَ بنَ داودَ غَبَرَ حِيناً وهو ميِّتٌ معتمداً على عصاه، في الموضع الذي لا يُحَجَّبُ عنه إنسيٌّ ولا جنِّيٌّ، والشَّيَاطِينُ مَهُمُ المَكْدُودُ بِالْعَمَلِ الشَّدِيدِ، وَمِنْهُمْ المَحْبُوسُ والمستعبد، وكانوا كما قال الله تعالى: "يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِي وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ" وقال "وَالشَّيَاطِينِ كُلِّ بَنَاءٍ وَعَوَاصِي، وَأَخْرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ"، وَأَنَّهُ غَبَرَ كَذَلِكَ حِيناً وهو نُجَاهٌ أَعْيُنُهُمْ، فلا هُمْ عَرَفُوا سَجِيَّةَ وُجُوهِ المَوْتَى، ولا هو إذْ كان ميِّتاً سَقَطَ سُقُوطَ المَوْتَى، وثبت قائماً معتمداً على عصاه، وعصاه ثابتة قائمة في يده،

وهو قابضٌ عليها، وليستْ هذه الصَّفَةُ صفةً موتانا، وقال:
"فَلَمَّا قَصَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ
تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ
مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ " ونحنُ دونَ الشَّيَاطِينِ وَالْجِنِّ فِي
صِدْقِ الْحَسِّ، وَنُفُوزِ الْبَصْرِ، وَلَوْ كُنَّا مِنْ بَعْضِ الْمَوْتَى بِهَذَا
الْمَكَانِ، لَمَا خَفِيَ عَلَيْنَا أَمْرُهُ وَكَانَ أَدْنَى ذَلِكَ أَنْ نَظْنَ
وَنَرْتَابَ، وَمَتَى ارْتَابَ قَوْمٌ وَظَنُّوا وَمَاجُوا وَتَكَلَّمُوا وَشَاوَرُوا،
لَقِنُوا وَتَبَّسُّوا، وَلَا سِيَّماً إِذَا كَانُوا فِي الْعَذَابِ وَرَأَوْا تَبَاشِيرَ
الْفَرَجِ، وَلَوْلَا الصَّرْفَةُ، الَّتِي يُلْقِيهَا اللَّهُ تَعَالَى عَلَى قَلْبِ مَنْ
أَحَبَّ، وَلَوْلَا أَنَّ اللَّهَ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَشْغَلَ الْأَوْهَامَ كَيْفَ شَاءَ،
وَيَذْكَرُ بِمَا يَشَاءُ، وَيُنَسِّي مَا يَشَاءُ، لَمَا اجْتَمَعَ أَهْلُ دَارِهِ
وَقَصْرِهِ، وَسُورِهِ وَرَبَضِهِ، وَخَاصَّتُهُ، وَمَنْ يَخْدُمُهُ مِنَ الْجِنِّ
وَالْإِنْسِ وَالشَّيَاطِينِ، عَلَى الْإِطْبَاقِ بِأَنَّهُ حَيٌّ، كَذَلِكَ كَانَ
عِنْدَهُمْ، فَحَدَّثَ مَا حَدَّثَ مِنْ مَوْتِهِ، فَلَمَّا لَمْ يَشْعُرُوا بِهِ كَانُوا
عَلَى مَا لَمْ يَزَالُوا عَلَيْهِ، فَعَلِمْنَا أَنَّ الْجِنَّ وَالشَّيَاطِينِ كَانَتْ

تُوهَمُ الأَغْبِيَاءُ وَالْعَوَامُّ وَالْحُشْوَةُ وَالسَّفَلَةُ، أَنَّ عِنْدَهُمَا شَيْئاً
مِنَ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّيَاطِينِ لَا تَعْلَمُ ذَلِكَ فَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَكْشِفَ
مِنْ أَمْرِهِمُ لِلْجُهَّالِ مَا كَانَ كَشَفَهُ لِلْعُلَمَاءِ، فَبِهَذَا وَأَشْبَاهِهِ مِنَ
الْأُمُورِ نَحْنُ إِلَى الْإِقْرَارِ بِهِ مُضْطَرُونَ بِالْحَجَجِ الْإِضْطْرَارِيَّةِ
فَلَيْسَ لَخُصُومِنَا حِيلَةٌ إِلَّا أَنْ يَواقِفُونَا، وَيَنْظُرُوا فِي الْعِلَّةِ الَّتِي
اضْطَرَّتْنَا إِلَى هَذَا الْقَوْلِ؛ فَإِنْ كَانَتْ صَاحِبَةً فَالصَّحِيحُ لَا
يُوجِبُ إِلَّا الصَّحِيحَ، وَإِنْ كَانَتْ سَاقِمَةً عَلِمْنَا أَنَّهَا أُتِيَتْ مِنْ
تَأْوِيلِنَا، وَأَمَّا قَوْلُهُ: "لَأُعَذِّبَنَّهٗ" فَإِنَّ التَّعْذِيبَ يَكُونُ بِالْحَبْسِ، كَمَا
قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: "لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْعَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي
الْعَذَابِ الْمُهِينِ"، وَإِنَّمَا كَانُوا مُخَيَّبِينَ، وَقَدْ يَقُولُ الْعَاشِقُ
لِمَعشُوقَتِهِ: يَا مَعْدِّبَتِي وَقَدْ عَذَّبْتَنِي وَمِنَ الْعَذَابِ مَا يَكُونُ
طَوِيلًا، وَمِنْهُ مَا يَكُونُ قَصِيرَ الْوَقْتِ، وَلَوْ خَسَفَ اللَّهُ تَعَالَى
بِقَوْمٍ فِي أَقَلِّ مِنْ عَشْرِ سَاعَةٍ لَجَازَ لِقَائِلَ أَنْ يَقُولَ: كَانَ ذَلِكَ
يَوْمَ أَحَلَّ اللَّهُ عَذَابَهُ وَنِقَمَتَهُ بِبِلَادِ كَذَا وَكَذَا. يَخْذُمُهُ مِنَ الْجَنِّ
وَالْإِنْسِ وَالشَّيَاطِينِ، عَلَى الْإِطْبَاقِ بِأَنَّهُ حَيٌّ، كَذَلِكَ كَانَ

عندهم، فحدث ما حَدَّثَ من موته، فلمَّا لم يشعُروا به كانوا على ما لم يزالوا عليه، فعِلْمُنَا أَنَّ الْجَنِّ وَالشَّيَاطِينَ كَانَتْ تُوهِمُ الْأَغْيَاءَ وَالْعَوَامَّ وَالْحُشُوءَ وَالسَّفَلَ، أَنَّ عِنْدَهُمَا شَيْئًا مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّيَاطِينَ لَا تَعْلَمُ ذَلِكَ فَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَكْشِفَ مِنْ أَمْرِهِمُ لِلْجُهَّالِ مَا كَانَ كَشَفَهُ لِلْعُلَمَاءِ، فِيهِذَا وَأَشْبَاهَهُ مِنَ الْأُمُورِ نَحْنُ إِلَى الْإِقْرَارِ بِهِ مُضْطَرُونَ بِالْحَجَجِ الْإِضْطْرَارِيَّةِ فَلَيْسَ لَخُصُومِنَا حِيلَةٌ إِلَّا أَنْ يُوَاقِفُونَا، وَيَنْظُرُوا فِي الْعَلَّةِ الَّتِي اضْطَرْتَنَا إِلَى هَذَا الْقَوْلِ؛ فَإِنْ كَانَتْ صَحِيحَةً فَالصَّحِيحُ لَا يُوجِبُ إِلَّا الصَّحِيحَ، وَإِنْ كَانَتْ سَقِيمَةً عَلِمْنَا أَنَّهَا أُتِينَا مِنْ تَأْوِيلِنَا، وَأَمَا قَوْلُهُ: "لَأُعَذِّبَنَّه" فَإِنَّ التَّعْذِيبَ يَكُونُ بِالْحَبْسِ، كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: "لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ"، وَإِنَّمَا كَانُوا مُخَيِّسِينَ، وَقَدْ يَقُولُ الْعَاشِقُ لِمَعشُوقَتِهِ: يَا مَعْدَبَّتِي وَقَدْ عَدَّبْتَنِي وَمِنَ الْعَذَابِ مَا يَكُونُ طَوِيلًا، وَمِنْهُ مَا يَكُونُ قَصِيرَ الْوَقْتِ، وَلَوْ خَسَفَ اللَّهُ تَعَالَى بِقَوْمٍ فِي أَقْلٍ مِنْ عَشْرِ سَاعَةٍ لَجَازَ لِقَائِلُ أَنْ يَقُولَ: كَانَ ذَلِكَ

يَوْمَ أَحَلَّ اللَّهُ عَذَابَهُ وَنِقَمَتَهُ بِلَادِ كَذَا وَكَذَا.
قوة الخنزير وشدة احتماله وقال أبو ناصرة: الخنزير ربّما
قتل الأسد، وما أكثر ما يُلْحَقُ بصاحب السَّيفِ والرُّمَحِ،
فيضربُه بِنَابِهِ، فيقطعُ كلَّ ما لقيه من جسده: من عظمٍ
وعصَبٍ، حتى يقتله، وربّما احتال أن ينبطح على وجهه على
الأرض، فلا يغني ذلك عنه شيئاً: وليس لشيءٍ من الحيوان
كاحتمال بدنه لِوَفْعِ السَّهَامِ، ونفوذها فيه.
بعض طباع الخنزير وهو مع ذلك أَرْوَعُ من ثعلب، إذا أَرَادَهُ
الفرس، وإذا عدا أطمع في نفسه كلَّ شيء، وإذا طولب أعيان
الخيَلِ العِتَاقِ، والخنزيرُ مع ذلك أنسلُ الخلق؛ لأنَّ الخنزيرةَ
تضعُ عِشْرِينَ خِنُوصاً، وهو مع كثرة إنساله مِنْ أَقْوَى الفُحُولِ
على السَّفَادِ، ومع القُوَّةِ على السَّفَادِ هو أطولها مُكْتَأً في
سفاده، فهو بذلك أجمعُ للفُحُولَةِ، وإذا كان الكلبُ والمدبُّ
موصوفين بشدّة القلب؛ لطول الحَظْمِ، فالخنزيرُ أولى بذلك،
وللفيل نابٌ عجيب، ولكنّه لقصر عنقه لا يبلغ النَّابُ مبلغاً،

وإِنَّمَا يَسْتَعِينُ بِخُرطومِهِ، وَخُرطومُهُ هُوَ أَنفَهُ، وَالخَطْمُ غَيْرُ
الخرطوم.

ما قيل في طيب لحمه وإهالته قال أبو ناصرة: وله طيب،
وهو طيبٌ لحمه ولحمٌ أولاده، وإذا أرادوا وصفَ اختلاطِ ودك
الكَرْكِيِّ في مَرَقِ طَبِيخٍ، قَالُوا كَأَنَّ إِهَالَتَهُ إِهَالَةُ خَنْزِيرٍ؛ لِأَنَّهُ لَا
يَسْرَعُ إِلَيْهَا الْجَمُودُ، وَسْرَعَةُ جَمُودِ إِهَالَةِ المَاعِزِ فِي الشِّتَاءِ
عَيْبٌ، وَلِلضَّانِ فِي ذَلِكَ بَعْضُ الفَضِيلَةِ عَلَى المَاعِزِ؛ وَلَا يَلْحَقُ
بِالْخَنْزِيرِ.

قبول عظم الخنزير للالتحام بعظم الانسان وإذا نقص من
الإنسان عَظْمٌ وَاحْتِيجَ إِلَى صَلْتِهِ فِي بَعْضِ الأَمْرَاضِ لَمْ يَلْتَجِمْ
بِهِ إِلَّا عَظْمُ الخَنْزِيرِ. صوت الخنزير وإذا صُرب فصاح لم يكن
السَّامِعُ يَفْصِلُ بَيْنَ صَوْتِهِ وَبَيْنَ صَوْتِ صَبِيٍّ مَضْرُوبٍ.
طيب لحمه وفي إطباقِ جميعِ الأممِ على شهوةٍ أكله
واستطابته لحمه، دليلٌ على أَنَّ لَهُ فِي ذَلِكَ مَا لَيْسَ لغيره.

زعم المجوس في المنخقة ونحوها

والمجوس تزعم أنّ المُنخَنَقَةَ والموقُودَةَ والمتردِّية، وكلّ ما
اعْتَبَط ولم يمت حَتْف أَنفِهِ، فهو أَطيب لَحْمًا وأحلى؛ لأنّ دَمَهُ
فِيهِ، والدم حُلُوٌ دَسِيمٌ، وإنما عاقَه مَن عاقَه من طَريق العادة
والدِّيانة، لا من طريق الاستقذار والزُّهْدِ الذي يَكُونُ فِي أصل
الطبيعه.

اختلاف ميل الناس إلى الطعام وقد عاف قومُ الجِرِّيِّ
والصُّبَابِ على مثل ذلك، وشُغِفَ بِهِ آخرون، وقد كانت العربُ
في الجاهليَّة تأكل دمَ الفُصْدِ، وتفضِّلُ طَعْمَهُ، وتُخبرُ عَمَّا
يورثُ من القوَّة، قال: وأيُّ شَيْءٍ أَحْسَنُ من الدَّمِ، وهل
اللَّحْمُ إلا دَمٌ استحالَ كما يستحيل اللَّحْمُ شَحْمًا؟ ولكنَّ الناسَ
إذا ذَكَروا معناه، ومن أين يخرج وكيف يخرج، كانَ ذَلِكَ كاسِيراً
لَهُمْ، وما نَعَمَ أَمَّا مَنْ شهِوتِهِ.

بعض ما يغير نظر الإنسان إلى الأشياء وكيف حال النَّارِ في
حسنها، فإنَّه ليس في الأرض جسمٌ لم يصبغ أحسن منه،
ولولا معرفتهم بقتلها وإحراقها وإتلافها، والألم والحرقَة

المولدين عنها، لتضاعف ذلك الحُسْنِ عِنْدَهُمْ، وَإِنَّهُمْ لَيَرَوْنَهَا
فِي السُّتَاءِ بِغَيْرِ الْعُيُونِ الَّتِي يَرَوْنَهَا بِهَا فِي الصَّيْفِ، لَيْسَ ذَلِكَ
إِلَّا بِقَدْرٍ مَا حَدَّثَ مِنَ الْإِسْتِغْنَاءِ عَنْهَا، وَكَذَلِكَ جِلَاءُ السَّيْفِ؛
فَإِنَّ الْإِنْسَانَ يَسْتَحْسِنُ قَدَّ السَّيْفِ وَخَرْطَهُ، وَطَبَعَهُ وَبَرِيْقَهُ،
وَإِذَا ذَكَرَ صَنِيعَهُ وَالَّذِي هُيئَ لَهُ، بَدَأَ لَهُ فِي أَكْثَرِ ذَلِكَ، وَتَبَدَّلَ
فِي عَيْنِهِ، وَشَغَلَهُ ذَلِكَ عَنْ تَأْمُلِ مَحَاسِنِهِ، وَلَوْ لَا عِلْمُ النَّاسِ
بِعِدَاوَةِ الْحَيَّاتِ لَهُمْ، وَأَنْهَاجِهَا وَحَشِيَّةَ لَا تَأْتِسُ وَلَا تَقْبَلُ أَدَبًا، وَلَا
تَرْعَى حَقَّ تَرْبِيَةِ، ثُمَّ رَأَوْا شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الْحَيَّاتِ، الْمَبِيضِ،
الْمَنْقُشَةِ الظُّهُورَ لَمَّا بَيَّنَّوْهَا وَنَوَّموْهَا إِلَّا فِي الْمَهْدِ، مَعَ
صِيَانَتِهِمْ.

رَدُّ عَلَى مَنْ طَعَنَ فِي تَحْرِيمِ الْخَنْزِيرِ فَيَقَالُ لِصَاحِبِ هَذِهِ
الْمَقَالَةِ: تَحْرِيمُ الْأَغْذِيَةِ إِنَّمَا يَكُونُ مِنْ طَرِيقِ الْعِبَادَةِ وَالْمِحْنَةِ،
وَلَيْسَ أَنَّهُ جَوْهَرٌ شَيْءٌ مِنَ الْمَأْكُولِ يُوْجِبُ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا قَلْنَا: إِنَّا
وَجَدْنَا اللَّهَ تَعَالَى قَدْ مَسَّحَ عِبَادًا مِنْ عِبَادِهِ فِي صُورِ الْخَنْزِيرِ
دُونَ بَقِيَّةِ الْأَجْنَاسِ، فَعَلِمْنَا أَنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ إِلَّا لِأُمُورٍ

اجتمع في الخنزير، فكان المسخ على صورته أبلغ من
التنكيل، لم نقل إلا هذا.

القرد

طباع القرد والقرد يضحك ويطرب، ويقعي ويحكي، ويتناول
الطعام بيديه ويضعه في فيه، وله أصابع وأظفار، وينقي
الجوز، ويأنس الأنس الشديد، ويلقن بالتلقين الكثير، وإذا
سقط في الماء غرق ولم يسبح؛ كالإنسان قبل أن يتعلم
السباحة، فلم تجد الناس للذي اعترى القرد من ذلك دون
جميع الحيوان علة إلا هذه المعاني التي ذكرتها، من مناسبة
الإنسان من قبلها، ويحكي عنه من شدة الزواج، والغيرة على
الأزواج، ما لا يحكى مثله إلا عن الإنسان؛ لأن الخنزير يغار،
وكذلك الجمل والفرس، إلا أنها لا تزوج، والجماز يغار
ويحمي عاتقه الدهر كله، ويضرب فيها كضربه لو أصاب أتاناً
من غيرها، وأجناس الحمام تزوج ولا تغار، واجتمع في القرد
الزواج والغيرة، وهما خصلتان كريمتان، واجتمعا من

مفاخر الإنسان على سائر الحيوان، ونحن لم نَرِ وَجْهَ شَيْءٍ
غَيْرِ الْإِنْسَانِ أَشْبَهَ صُورَةً وَشَبَهًا، عَلَى مَا فِيهِ مِنَ الْاِخْتِلَافِ،
وَلَا أَشْبَهَ فَمًّا وَوَجْهًا بِالْإِنْسَانِ مِنَ الْقِرْدِ، وَرُبَّمَا رَأَيْنَا وَجْهَ
بَعْضِ الْحَمْرِ إِذَا كَانَ ذَا خَطْمٍ، فَلَا تَجِدُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْقِرْدِ إِلَّا
اليسر

أَمْثَالٍ فِي الْقِرْدِ وَتَقُولُ النَّاسُ: أَكَيْسٌ مِنْ قَيْشَةٍ وَأَمْلَحٌ مِنْ
رُبَّاحٍ وَلَمْ يَقُلْ أَحَدٌ: أَكَيْسٌ مِنْ خِنْزِيرٍ، وَأَمْلَحٌ مِنْ خَنْوَصٍ، وَهُوَ
قَوْلُ الْعَامَّةِ: الْقِرْدُ قَيْيْحٌ وَلَكِنَّهُ مَلِيحٌ.
كَفَّ الْقِرْدَ وَأَصَابِعَهُ وَقَالَ النَّاسُ فِي الضَّبِّ: إِنَّهُ مِسْحٌ، وَقَالُوا:
انْظُرْ إِلَى كَفِّهِ وَأَصَابِعِهِ، فَكَفُّ الْقِرْدِ وَأَصَابِعُهُ أَشْبَهُهُ وَأَصْنَعُ،
فَقَدَّمَتِ الْقِرْدَ عَلَى الْخِنْزِيرِ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ.
عَلَّةُ تَحْرِيمِ لَحْمِ الْخِنْزِيرِ وَأَمَّا الْقَوْلُ فِي لَحْمِهِ، فَإِنَّا لَمْ نَزْعَمْ
أَنَّ الْخِنْزِيرَ هُوَ ذَلِكَ الْإِنْسَانُ الَّذِي مُسِحٌ، وَلَا هُوَ مِنْ نَسَلِهِ،
وَلَمْ تَدْعُ لَحْمَهُ مِنْ جِهَةِ الْاِسْتِقْدَارِ لِشَهْوَتِهِ فِي الْعَذْرَةِ، وَنَحْنُ
نَجِدُ الشُّبُوطَ وَالْجِرِّيَّ، وَالذَّجَاجَ، وَالْجَرَادَ، يَشَارِكُهُ فِي ذَلِكَ

ولكن للخصال التي عدّنا من أسباب العبادات، وكيف صار
أحقّ بأنّ تمسح الأعداء على صورته في خلقته.
حديث عبید الكلابي قال: وقلت مرّةً لعبيد الكلابيّ وأظهر من
حُبّ الإبل والشّعفِ بها ما دعاني إلى أن قلت له: أبينها
وبينكم قرابة؟ قال: نعم، لها فينا حُولة، إني والله ما أعني
البخاتيّ، ولكنني أعني العراب، التي هي أعرب قلت له:
مسخك الله تعالى بغيراً قال: الله لا يمسح الإنسان على
صورة كريم، وإنما يمسحه على صورة لئيم، مثل الخنزير ثم
القرد، فهذا قولُ أعرابيٍّ جلفٍ تكلم على فطريته.
قول في آية وقد تكلم المخالفون في قوله تعالى: "وَأَسْأَلُهُمْ
عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ
تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ
كَذَلِكَ تَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ" وقد طعن ناسٌ في تأويل
هذه الآية، بغير علمٍ ولا بيانٍ، فقالوا: وكيف يكون ذلك وليس
بين أن تجيء في كلّ هلال فرق، ولا بينها إذا جاءت في رأس

الهلال فرق، ولا بينها إذا جاءت في رأس السنة فرق.
هجرة السمك وهذا بحر البصرة والأبلة، يأتيهم ثلاثة أشهر
معلومة معروفة من السنة السمك الأسبور، فيعرفون وقت
مجيئه وينتظرونه، ويعرفون وقت انقطاعه ومجيء غيره، فلا
يمكنهم الحال إلا قليلاً حتى يُقيل السمك من ذلك البحر،
في ذلك الأوان، فلا يزالون في صيد ثلاثة أشهر معلومة من
السنة، وذلك في كل سنة مرتين لكل جنس، ومعلوم عندهم
أنه يكون في أحد الزمانين أسمن، وهو الجواف، ثم يأتيهم
الأسبور، على حساب مجيء الأسبور والجواف، فأما الأسبور
فهو يقطع إليهم من بلاد الزنج، وذلك معروفة عند البحرين،
وأن الأسبور في الوقت الذي يقطع إلى دجلة البصرة لا يوجد
في الزنج، وفي الوقت الذي يوجد في الزنج لا يوجد في
دجلة، وربما اصطادوا منها شيئاً في الطريق في وقت قطعها
المعروف، وفي وقت رجوعها، ومع ذلك أصناف من السمك
كالإربيان، والرق، والكوسج، والبرد، والبرستوج، وكل ذلك

مَعْرُوفِ الزَّمَانِ، متوقِّعُ المَخْرَجِ، وفي السَّمَكِ أَوَابِدُ وقواطع،
وفيها سِيَّارَةٌ لا تقيم، وذلك الشَّبَهُ يُصَابُ، ولذلك صَارُوا
يتكلمُونَ بِخَمْسَةِ السَّنَةِ، يَهْدُونَهَا، سَوَى مَا تَعَلَّقُوا بِهِ مِنْ
غَيْرِهَا، ثُمَّ القَوَاطِعُ مِنَ الطَّيْرِ قَدْ تَأْتِينَا إِلَى العِرَاقِ مِنْهُمْ فِي
ذَلِكَ الإِبَّانِ جَمَاعَاتٌ كَثِيرَةٌ، تَقْطَعُ إِلَيْنَا ثُمَّ تَعُودُ فِي وَقْتِهَا.
رد على المعترض قُلْنَا لهؤلاءِ القَوْمِ: لَقَدْ أَصَبْتُمْ فِي بَعْضِ مَا
وَصَفْتُمْ، وَأَخْطَأْتُمْ فِي بَعْضٍ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: "إِذْ تَأْتِيهِمْ
حِيَتَانِهِمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ" وَيَوْمَ
السَّبْتِ يَدُورُ مَعَ الأَسَابِيعِ، والأَسَابِيعُ تَدُورُ مَعَ شَهْرِ القَمَرِ،
وهذا لا يَكُونُ مَعَ استواءٍ مِنَ الزَّمَانِ، وَقَدْ يَكُونُ السَّبْتُ فِي
الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ وَالخَرِيفِ، وَفِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ، وَلَيْسَ هَذَا مِنْ
بَابِ أَرْزَامِ القَوَاطِعِ السَّمَكِ وَهَيْجِ الحَيَّوانِ وَطَلَبِ السَّفَادِ،
وَأَرْزَامِ الفِلاخَةِ، وَأَوْقَاتِ الجُرِّ وَالْمَدِّ؛ وَفِي سَبِيلِ الأَنْوَاءِ،
وَالشَّجَرِ كَيْفَ يَنْفُضُ الوَرَقَ وَالثَّمَارَ؛ وَالحَيَّاتِ كَيْفَ تَسْلُخُ،
وَالأَيَّالِ كَيْفَ تُلقِي فُرُوتَهَا، وَالطَّيْرِ كَيْفَ تَنطِقُ وَمَتَى تَسْكُتُ،

ولو قال لَنَا قائل: إني نَبِيٌّ وَقُلْنَا لَهُ: وما آيتك؟ وعلامتك؟
فقال: إذا كان في آخر تَشْرِينِ الْآخِرِ أَقبل إليكم الأَسْبُور من
جهة البحر، صَحَكُوا منه وسَخِرُوا بِهِ، ولو قال: إِذَا كَانَ يَوْمُ
الْجُمُعَةِ أَوْ يَوْمُ الْأَحَدِ أَقبل إليكم الأَسْبُور، حَتَّى لَا يَزَالَ يَصْنَعُ
ذَلِكَ فِي كُلِّ جُمُعَةٍ عَلِمْنَا اضْطِرَاراً إِذَا عَائِنَا الَّذِي ذَكَرَ عَلَى
تَسَقُّهِ أَنَّهُ صَادِقٌ، وَأَنَّهُ لَمْ يَعْلَمْ ذَلِكَ إِلَّا مِنْ قَبْلِ خَالِقِ ذَلِكَ،
تَعَالَى اللَّهُ عَنِ ذَلِكَ، وَقَدْ أَقْرَرْنَا بِعَجِيبِ مَا نَرَى مِنْ مَطَالِعِ
النُّجُومِ، وَمِنْ تَنَاهِي الْمَدِّ وَالْجُزْرِ عَلَى قَدْرِ امْتِلَاءِ الْقَمَرِ،
وَنُقْصَانِهِ وَزِيَادَتِهِ، وَمُحَاقِقِهِ وَاسْتِرَارِهِ، وَكُلِّ شَيْءٍ يَأْتِي عَلَى
هَذَا النَّسْقِ مِنَ الْمَجَارِي، فَإِنَّمَا الْآيَةُ فِيهِ لِلَّهِ وَحْدَهُ عَلَى
وَحْدَانِيَّتِهِ، فَإِذَا قَالَ قَائِلٌ لِأَهْلِ شَرِيعَةٍ وَأَهْلِ مُرْسَى، مِنْ
أَصْحَابِ بَحْرٍ أَوْ نَهْرٍ أَوْ وادٍ، أَوْ عَيْنٍ، أَوْ جَدُولٍ: تَأْتِيكُمْ الْحِيتَانُ
فِي كُلِّ سَبْتٍ، أَوْ قَالَ: فِي كُلِّ رَمَضَانَ، وَرَمَضَانُ مُتَحَوِّلٌ
الْأَزْمَانِ فِي الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ وَالرَّبِيعِ وَالْخَرِيفِ، وَالسَّبْتُ
يَتَحَوَّلُ فِي جَمِيعِ الْأَزْمَانِ، فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ كَانَتْ تِلْكَ الْأَعْجُوبَةُ

فيه دالة على توحيد الله تعالى، وعلى صدق صاحب الخبر،
وأَنَّ رسولُ ذلك المسخَّر لذلك الصَّنْف، وكان ذلك المجيءُ
خارجاً من النَّسِق القائم، والعادة المعروفة، وهذا الفرقُ
بذلك بَيِّنٌ، والحمدُ لله.

شنعة الخنزير والقرد

قال الله تعالى: "فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا
قِرَدَةً خَاسِئِينَ" وفي الموضع الذي ذَكَرَ أَنَّهُ مَسَخَ ناساً خنازير
قد ذكر القُرود، ولم يذكر أَنَّهُ مَسَخَ قوماً خنازير، ولم يمسحُ
منهم قروداً، وإذا كان الأمر كذلك فالمسحُ على صورة القِرَدَةِ
أَشْتَع؛ إِذْ كان المسحُ على صورتها أعظم، وكان العقابُ به
أكبر، وإنَّ الوقت الذي قد ذكر أَنَّهُ قد مسح ناساً قروداً فقد
كان مسح ناساً خنازير، فلم يدعُ ذِكْرَ الخنازير ودَكَرَ القُرودَ؛
إِلَّا والقُرودُ في هذا الباب أَوْجَعُ وَأَشْتَعُ وَأَعْظَمُ في العُقوبة،
وأدُلُّ على شِدَّةِ السَّخْطَةِ، هذا قول بعضهم.
استطرد لغوي قال: ويقال لموضع الأنف من السَّبَاعِ الخطم،

والخُراطوم وقد يقال ذلك للخنزير والفنطيسة، والجمع
الطناطيس، وقال الأعرابي: كأنَّ فناطيسها كراكر الإبل.
خصائص بعض البلدان وقال صاحب المنطق: لا يكونُ خنزيرُ
ولا أيلٌ بحرياً، وذكر أنَّ خنازيرَ بعضِ البلدانِ يكونُ لها ظلفٌ
واحد، ولا يكونُ بأرضِ نهاوندَ حمأز؛ لشدة بردِ الموضع، ولأنَّ
الجَمَـارَ صَـرِدٌ.

وقال: في أرضِ كذا وكذا لا يكونُ بها شيءٌ من الخلدِ، وإن
نقله إنسانٌ إليها لم يحفر، ولم يتخذ بها بيتاً، وفي الجزيرة
التي تسمَّى صِقْلِيَّة لا يكوُنُ بها صنفٌ من النمل، الذي يسمَّى
أقرشاً.

قول أهل الكتابين في المسخ وأهل الكتابين يُنكرون أن يكون
الله تعالى مسخَّ النَّاسِ قروداً وخنازير، وإنما مسخ امرأة
لوط حَجَرًا، كذلك يقولون.

القول في الحيات

اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا التَّكْلِفَ، وَأَعِدَّنَا مِنَ الْخَطَلِ، وَاحْمِنَا مِنَ الْعُجْبِ
بِمَا يَكُونُ مَنًّا، وَالثَّقَّةِ بِمَا عِنْدَنَا، وَاجْعَلْنَا مِنَ الْمُحْسِنِينَ.

احتياال الحيات للصيد

حدثنا أبو جعفر المكفوفُ النحويُّ العنبريُّ، وأخوه رَوْحُ
الكاتب ورجالٌ من بني العنبر، أن عندهم في رمال بلعنبر حيةٌ
تصيد العصافير وصِغَارَ الطيرِ بأعجبِ صيدٍ، زعموا أنها إذا
انتصَفَ النهارُ واشتدَّ الحرُّ في رمالِ بلعنبر، وامتنعت الأرض
على الحافي والمنتعل، ورَمِضَ الجندب، غمست هذه الحيةُ
ذنبها في الرَّمَلِ، ثم انتصبت كأنها رمحٌ مركوزٌ، أو عودٌ ثابت،
فيجيء الطائر الصغيرُ أو الجرادُ، فإذا رأى عوداً قائماً وكره
الوُقُوعَ على الرَّمَلِ لشدة حرِّه، وَقَعَ على رأس الحية، على
أنها عود، فإذا وَقَعَ على رأسها قبضت عليه، فإن كان جراداً
أو جُعلاً أو بَعْضَ ما لا يُشْبِعُها مثله، ابتلعتة وبقيت على
انتصابها، وإن كان الواقعُ على رأسها طائراً يُشْبِعُها مثله أكلتهُ
وانصرفت، وأنَّ ذلك دأبها ما مَنَعَ الرَّمَلُ جانبَه في الصَّيْفِ

والقَيْظ، في انتصاف النهار والهاجرة، وذلك أَنَّ الطَّائِرَ لَا يَشْكُ أَنَّ الْحَيَّةَ عَوْدٌ، وَأَنَّهُ سَيُقُومُ لَهُ مَقَامُ الْجِدْلِ لِلحِزْبَاءِ، إِلَى أَن يَسْكُنَ الحُرُّ وَوَهَجُ الرَّمْلِ، وفي هذا الحديثِ مِنَ العَجَبِ أَن تكون هذه الحَيَّةُ تَهْتَدِي لمثل هذه الحيلة، وفيه جَهْلُ الطَّائِرِ بفرقِ ما بين الحيوانِ والعُودِ، وفيه قِلَّةُ اِكْتِراثِ الحَيَّةِ بالرَّمْلِ الذي عادَ كالجمرِ، وصلاحُ أن يكون مَلَّةً وموضِعاً للخبزة، ثمَّ أن يشتمل ذلك الرَّمْلُ على ثلث الحَيَّةِ ساعاتٍ مِنَ النَّهَارِ، والرَّمْلُ على هذه الصفة، فهذه أعجوبةٌ من أعاجيب ما في الحياتِ.

رضاع الحية وإعجابها باللبن

وزعم لي رِجَالٌ مِنَ الصَّقَالِبَةِ، خَصِيانٌ وفحول، أَنَّ الحَيَّةَ فِي بلادهم تأتي البقرةَ المحقَّلةَ فتنتطوي على فخذِها ورُكبتِها إلى عراقِيبها، ثمَّ تُشْخَصُ صدرها نحوَ أخلافِ صرْعِها، حتى تُلْتَقِمَ الخِلفَ؛ فلا تستطيع البقرةُ مع قوَّتِها أن تترَمِّمَ، فلا تزلُّ لُ تمصُّ اللبن، وكلما مصَّت استرخت، فإذا كادت تلتفُّ

أرسلتها، وزعموا أن تلك البقرة إمّا أن تموت، وإمّا أن يصيبها في ضرعها فسادٌ شديدٌ تَعَسَّرُ مداواته، والحيّة تُعَجَّبُ باللبن، وإذا وجدت الأفاعي الإناء غير مخمّر كرعت فيه، ورُبَّمَا مَجَّت فيه ما صار في جوفها، فيصيبُ شاربَ ذلك اللبنِ أذى ومكروهٌ كثير، ويقال إنَّ اللبن محتضر، وقد ذهب ناسٌ إلى العمّار، على قولهم إنَّ الثوبَ المعصفر محتضر، فظنَّ كثيرٌ من العلماء أنَّ المعنى في اللبن إمّا رَجَعَ إلى الحيات.

ما تعجب به الحيات

والحيّة تُعَجَّبُ باللُّفَّاح والبِطِّيخ، وبالْحُرْفِ، والخردل المرخوف؛ وتكره ريح السذاب والشَّيخ، كما تكره الوردُ ريح الزّعفران.

قوة بدن الحية

وليس في الأرض شيءٌ جسمه مثلُ جسم الحية، إلا والحيّة أقوى بدناً منه أضعافاً، ومن قوّتها أنها إذا أدخلتُ رأسها في

جُحِرَها، أو في صَدْعٍ إلى صدرها، لم يستطع أقوى النَّاس وهو قابضٌ على ذنبها بكلتا يديه أن يخرجها؛ لشِدَّةِ اعتمادها، وتعاونِ أجزائها، وليست بذاتِ قوائمٍ لَهَا أظفارٌ أو مخالبٌ أو أظلاف، تُشْبِهُها في الأرض، وتتشبث بها، وتعتمد عليها، وربما انقطعت في يدي الجاذب لها، مَعَ أنها لدنَّةٌ ملساءٌ عَليكة فيحتاج الرفيق في أمرها عند ذلك، أن يُرسلها من يديه بعض الإرسال، ثمَّ ينشطها كالمختطف والمختلس، وربما انقطع ذنبها في يد الجاذب لها، فأما أذنانُ الأفاعي فإنها تنبت، ومن عجيب ما فيها من هذا الباب، أن نابتها يُقطع بالكاز، فينبت حتى يتمَّ نباته في أقلَّ من ثلاث ليال. نزع عين الخطاف والخطَّاف في هذا الباب خلافُ الخنزير؛ لأنَّ الخطاف إذا قُلمت إحدى عينيه رجعت، وعينُ البردؤن يركبها البياضُ، فيذهب في أيامٍ يسيرة.

الاحتيال لناب الأفعى

وناب الأفعى يُحتالُ له بأن يُدخلَ في فيها حُمَّاضُ أُتْرُجٍ،
ويطبقَ لحيُّها الأعلى عَلى الأسفل، فلا تقتل بِعَصَّتِها أياماً
صالحة، والمِغْناطيس الجاذب للحديد، إذا حُكَّ عليه الثُّوم، لم
يجذب الحديد.

خصائص الأفعى

والأفعى لا تدورُ عينيُّها في رأسها، وهي تلد وتبيض، وذلك
أنها إذا طَرَّقت ببيضها تحطَّم في جوفها، فترمي بفراخها
أولاداً، حتى كأنها من الحيوان الذي يلد حيواناً مثله، وفي
الأفاعي من العَجَب أنها تُذبح حتى يُفَرى منها كلُّ ودَج،
فتبقى كذلك أياماً لا تموت، وأمرُ الحاوِي فقبض على
خَرَزَة عنقها، فقلت له: اقبضها من الخَرَزَة التي تليها قبضاً
رفيقاً، فما فَتَحَ بينها بقدر سَمِّ الإبرة حَتَّى بَرَدَتْ مِيْتَة، وزعم
أنه قد ذبحَ غيرَها من الحَيَّاتِ فعاشَتْ على شبيهِ ذلك، ثمَّ
إنه فَصَلَ تلك الخَرَزَة عَلى مثالِ ما صنع بالأفعى، فماتت
بأسرَعٍ مِنَ الطَّائِفِ.

قوة بدن الممسوح وكلُّ شيءٍ ممسوحِ البدن، ليس بِذِي أَيْدٍ
ولا أَرْجُلٍ، فَإِنَّهُ يَكُونُ شَدِيدَ الْبَدَنِ، كَالسَّمَكَةِ وَالْحَيَّةِ، حَدِيثٌ
فِي سَمِ الْأَفْعَى وَزَعَمَ أَحْمَدُ بْنُ غَالِبٍ قَالَ: بَاعَنِي حَوَاءٌ
ثَلَاثِينَ أَفْعَى بَدِينَارَيْنِ، وَأَهْدِي إِلَيَّ خَمْسًا اصْطَادَهَا مِنْ قُبَالَةِ
الْقَلْبِ، فِي تَلْكَ الصَّحَارَى عَلَى شَاطِئِ دَجَلَةَ، قَالَ: وَأَرَدْتُهَا
لِلتَّرْيَاقِ، قَالَ: فَقَالَ لِي حِينَ جَاءَنِي بِهَا: قُلْ لِي: مَنْ
يَعَالِجُهَا؟ قَالَ: فَقُلْتُ لَهُ: فَلَانَ الصَّيْدَلَانِيَّ، فَقَالَ: لَيْسَ عَنْ
هَذَا سَأَلْتُكَ، قُلْ لِي: مَنْ يَذْبَحُهَا وَيَسْلُخُهَا؟ قَالَ: قُلْتُ: هَذَا
الصَّيْدَلَانِيُّ بَعِينُهُ، قَالَ: أَخَافُ أَنْ يَكُونَ مَغْرُورًا مِنْ نَفْسِهِ،
إِنَّهُ وَاللَّهِ إِنْ أَخْطَأَ مَوْضِعَ الْمَفْصِلِ مِنْ قِفَاهُ، وَحَرَكْتُهُ أَسْرَعُ
مِنَ الْبَرْقِ، فَإِنْ كَانَ لَا يَحْسُنُ وَلَا يَدْرِي كَيْفَ يَتَغَفَلُهُ، فَيَنْقُرُهُ
تَغْفَرَةً، لَمْ يُفْلِحْ بَعْدَهَا أَبَدًا، وَلَكِنِّي سَأَتَطَوَّعُ لَكَ بِأَنْ أَعْمَلَ
ذَلِكَ بَيْنَ يَدَيْهِ، قَالَ: فَبَعَثْتُ إِلَيْهِ، وَكَانَ رَأْسُهُ إِلَى الْجَوْنَةِ،
فَيُغْفَلُ الْوَاحِدَةَ فَيَقْبِضُ عَلَى قِفَاهَا بِأَسْرَعٍ مِنَ الطَّرْفِ، ثُمَّ
يَذْبَحُهَا، فَإِذَا ذَبَحَهَا سَأَلَ مِنْ أَفْوَاهِهَا لُعَابٌ أَبْيَضٌ، فَيَقُولُ:

هذا هو السم الذي يقتل قال: فجالت يده جَوْلَةً، وقطرت من ذلك اللُّعَابُ قطرةً عَلَى طَرْفِ قَمِيصِ الصَّيْدَلَانِيِّ، قال: فَتَفَشَّى ذلك القاطِرُ حَتَّى صار في قدر الدَّرْهِمِ العَظِيمِ، ثم إِنَّ الحَوَّاءَ امْتَحَنَ ذلك الموضع فتهافت في يده، وبقيت الأفاعي مُدَبَّحَةً تجول في الطست ويكدم بعضها بعضاً، حتى أمسينا، قال: وبكرت على أبي رجاء إلى باب الجِسرِ، أَحَدَّثَهُ بالحديث، فقال لي وِدَدْتُ أَنِّي رأيت موضع القطرة من قَمِيصِ الصَّيْدَلَانِيِّ قال: فوالله مارِمْتُ حَتَّى مرَّ مَعِيَ إلى الصَّيْدَلَانِيِّ، فَأَرَيْتُهُ موضِعَهُ، وأصحابنا يزعمون أَنَّ لعابَ الأفاعي لا يَعْمَلُ في الدَّمِ، إِلَّا أَنَّ أَحْمَدَ ابنَ المثنى زعم أَنَّ من الأفاعي جنساً لا يُضُرُّ الفراريج من بين الأشياء، ولا أدري أَيُّ الخبرين أبعد: أَخْبَرُ ابنَ غالب في تفسيح التَّوْبِ، أو خبر ابن المثنى في سلامة القَرُوجِ عَلَى الأفعى ما تضيء عينه من الحيوان وزعم محمد بن الجهم أَنَّ العيون التي تضيء بالليل كأنها مصابيحُ، عِيُونُ الأسد والنمورِ، والسَّنَانِيرِ

والأفاعي، فبينما نحنُ عندَه إذْ دخل عليه بعضُ من يجلب
الأفاعي من سِجِسْتان، وَيَعْمَلُ التَّرياقات، ويبيعها أحياءً
ومقتولة، فقال له: حَدَّثهم بالذي حَدَّثتني به من عين
الأفعى، قال: نَعَمْ، كنتُ في مَنْزِلِي نائماً في ظلمة، وقد
كنتُ جمعْتُ رؤوس أفاع كَنِّ عندي، لأرميَ بها، وأغفلتُ
تحت السَّرير رأساً واحداً، ففتَحْتُ عَيْني تَجَاهَ السَّرير في
الظلمة، فرأيت ضياءً إِلَّا أَنَّهُ ضئيلٌ ضعيفٌ رقيق، فقلت:
عينٌ غولٍ أو بعضِ أولاءِ السَّعالى، وذهبتُ نفسي في ألوانِ
من المعاني، فقامت ففدَحْتُ ناراً، وأخذتُ المصباح معي،
ومضيت نحوَ السرير فلم أَجدُ تَحْتَهُ إِلَّا رَأْسَ أفعى، فأطفأتُ
السَّراج ونمتُ وفتَحْتُ عَيْني، فإذا ذلك الضوء على حاله،
فنهضتُ فصنعتُ كصنيعي الأوَّل، حتى فعلتُ ذلك مِراراً،
قال: فقلت آخر مرَّة: ما أرى شيئاً إِلَّا رَأْسَ أفعى، فلو نَحَيْتُهُ
فَنَحَيْتُهُ وأطفأتُ السَّراج، ثمَّ رجعتُ إلى منامي، ففتَحْتُ
عَيْني فلم أَرَ الضَّوء، فعلمت أَنَّهُ من عين الأفعى، ثمَّ سألتُ

عن ذلك، فإذا الأمرُ حَقٌّ، وإذا هو مشهورٌ في أهل هذه الصَّناعة علة قوة بدن الحية قال: وربَّما قبضَ الرَّجُلُ الشَّدِيدُ الأَسْرَ والقُوَّةَ القَبْضَةَ على قفا الحية فتلتفُّ عليه فتصرُّعُه، وفي صُعودِها وفي سعيها خلفَ الرَّجْلِ الشَّدِيدِ الحُضْرَ، أو عند هربها حتَّى تفوت وتسبق، وليست بذاتِ قوائِم، وإنما تنسابُ عَلى بطنها، وفي تدافُعِ أجزائها وتعاونها، وفي حَرَكَةِ الكلِّ من ذاتِ نفسها، دليلٌ على إفراطِ قُوَّةِ بدنها، ومن ذلك أنها لا تمضغ، وإنما تبتلع، فرَبَّما كان في البَصْعة أو في الشيء الذي ابتلعته عَظْمٌ، فتأتي جِذْمَ شجرةٍ، أو حَجراً شاخِصاً فتنتوي عليه انطواءً شديداً فيتحطَّم ذلك العَظْمُ حتَّى يصيرَ رُقَاتاً، ثمَّ يُقطعُ ذنبها فينبت، ثمَّ تعيشُ في الماء، إن صارت في الماء، بعد أن كانت برِّيَّة، وتعيشُ في البرِّ بعد أن طال مُكثُّها في الماء وصارت مائية، قال: وَ إِنَّمَا أَتْنَهَا هَذِهِ القُوَّةَ، واشتدَّت فِقْرُ ظهرها هذه الشَّدَّةُ؛ لكثرةِ أضلاعِها، وذلك أنَّ لها من الأضلاعِ عددَ أيَّامِ

الشَّهْر، وهي مع ذلك أطولُ الحيوانِ عمراً، موت الحية
 ويزعمون أنَّ الحَيَّةَ لا تموتُ حَتَّى أَنْفِها، وإِنَّمَا تموتُ بِعَرَضٍ
 يَعرِضُ لَهَا، ومع ذلك فإنه ليس في الحيوانِ شيءٌ هُوَ أَصْبَرُ
 عَلَى جوعٍ من حَيَّةٍ؛ لِأَنَّهَا إِن كَانَتْ شَابَةً فَدَخَلَتْ فِي حَائِطِ
 صَخْرٍ، فَتَتَبَّعُوا مَوْضِعَ مَدْخَلِهَا بَوْتِدٍ أَوْ بِحِجْرٍ، ثُمَّ هَدَمُوا هَذَا
 الْحَائِطَ، وَجَدُوهَا هُنَاكَ مِنْطَوِيَّةً وَهِيَ حَيَّةٌ، فَالشَّابَةُ تُذَكَّرُ
 بِالصَّبْرِ عِنْدَ هَذِهِ الْعَلَّةِ، فَإِن هَرِمَتْ صُعُرَتْ فِي بَدَنِهَا،
 وَأَقْنَعَهَا النَّسِيمُ، وَلَمْ تَشْتَهِ الطَّعْمَ، وَقَدْ قَالَ الشَّاعِرُ: وَهُوَ
 جَاهِلِيٌّ:

فَابَعْتُ لَهُ مِنْ بَعْضِ أَعْرَاضِ لُمَيْمَةَ مِنْ حَنْشٍ أَعْمَى
 عَاشَ حَتَّى هُوَ لَا يَمَشِي كَلَّمَا أَقْصَدَ مِنْهُ الْجُوعُ
 أَصَمُّ
 شَمُّ

وهذا القولُ لهذا المعنى، وفي هذا الوجه يقول الشاعر:

قَدْ صُعُرْتُ مِنَ الْكِبَرِ صِلِّ صَفَاً مَا يَنْطَوِي مِنْ
 الْقِصْرِ
 الإِطْرَاقِ مِنْ غَيْرِ كَمَطْرِقٍ قَدْ ذَهَبَتْ بِهِ
 الْفِكْرُ

جَاءَ بِهَا الطوفان أَيَّامَ رَحَ صَبْرُ الحية على فَقْدِ الطَّعْمِ ومن
أعاجيبها أنها وإن كانت مَوْضُوفَةً بالشرِّه والنَّهْمِ، وسرعة
الابتلاع، فلها في الصَّبْرِ في أَيَّامِ الشِّتَاءِ ما ليس للزَّهيدِ، ثمَّ
هي بَعْدُ ممَّا يصير بها الحالُ إلى أن تستغنيَ عن الطَّعْمِ،

النمس والثعابين

ثمَّ قَدْ يزعمون أنَّ بمصرَ دويبةً يقال لها النمس يتخذها
الناطور إذا اشتدَّ خوفه مِنَ الثُّعابين؛ لأنَّ هذه الدَّابة تنقبضُ
وتنضمُّ، تَتَصَّأَلُ وتستدقُّ، حتَّى كأنها قُديدة أو قطعة حبل،
فإذا عصَّها الثُّعبان وانطوى عليها زفرَتْ، وأخذت بتفْسها
وزخرت جوقها فانتفخ، فتفعل ذلك وقد انطوى عليها،
فتقطعه قطعاً من شِدَّةِ الزُّخرة، وهذا من أعجب الأحاديث

القواتل من الحيات

والثُّعابينُ إحدى القواتلِ، ويزعمون أنها ثلاثة أجناسٍ لا ينجعُ
فيها رُقيةٌ ولا حيلة، كالثعبان، والأفعى، والهنديَّة، ويقال: إنَّ

ما سِوَاهَا فَإِنَّمَا يَقْتُلُ مَعَ مَا يُمِدُّهَا مِنَ الْفَرْعِ؛ فَقَدْ يَفْعَلُ
الْفَرْعُ وَحْدَهُ؛ فَكَيْفَ إِذَا قَارَنَ سُمِّهَا؟ وَسُمُّهَا إِنَّمَا لَمْ يَقْتُلْ
أُمَّ

ما يفعل الفرع في المسموم ويزعمون أَنَّ رجلاً قال تحت
شجرة، فتدلت عليه حية منها فعصت رأسه، فانتبه محمراً
الوجه، فحك رأسه، وتلفت، فلم ير شيئاً، فوضع رأسه ينام،
وأقام مدةً طويلة لا يرى بأساً، فقال له بعض من كان رأى
تدليها عليه ثم تقلصها عنه وهروبها منه: هل علمت من أي
شيء كان انتباهك تحت الشجرة؟ قال: لا والله، ما علمت،
قال: بلى، فإن الحية الفلانية نزلت عليك حتى عصت
رأسك، فلما جلست فزعاً تقلصت عنك وتراجعت، ففزع
فزعاً وصرخ صرخةً كانت فيها نفسه، وكانهم توهّموا أنه
لما فزع واضطرب، وقد كان ذلك السم مغموراً ممنوعاً
فزال مانعه، وأوغله ذلك الفرع، حين تفتحت منافسه، إلى

موضع الصَّمِيمِ والدِّمَاغِ وعمقِ البدنِ، فانحلَّ موضعُ العَقْدِ
الذي انعقدتْ عليه أجزاءه وأخلاقه. وأنشد الأصمعيُّ:

تنهشه بمنبذ

وأنشدَ لأبي دُوَادٍ الإياديُّ:

فَاتَانِي تَفْجِيمٌ كَعَبٍ لِي الْمَنْطِقَ إِنْ النَّكِيثَةَ الْإِفْحَامُ
أثر الفرع في فعل السم قال: فالفرعُ إمَّا أن يكونَ يُوصِلُ
السمَّ إلى المقاتِلِ، وإمَّا أن يكونَ معيناً له، كتعاون الرَّجُلَيْنِ
على نزع وتيد، فهم لا يجزمون على أن الحيَّة من القواتل
البيَّة، إلَّا أن تقتلَ إذا عصَّت النَّائمَ والمغشيَّ عليه، والطفلَ
الغريِّرَ، والمجنونَ الذي لا يعقلُ، وحتى تجرَّبَ عليه الأدوية.

الترياق وانقلاب الأفعى

وكنت يوماً عند أبي عبد الله أحمد بن أبي دُوَادٍ، وكان عنده
سَلْمُويه وابن ماسويه، وبختيشوع بن جبريل، فقال: هل ينفع
التُّرياق من نهشة أفعى؟ فقال بعضهم: إذا عصَّتِ الأفعى
فأدركتْ قبل أن تنقلب نفع الترياق، وإن لم تُدرِكْ لم ينفع؛
لأنهم إن قَلَّوا من التُّرياقِ قتلَهُ السُّمُّ، وإن كثَّروا مِنْهُ قتلَهُ

الفاضلُ عن مقدار الحاجة، قلت: فإنَّ ابنَ أبي العجوزِ خَبَّرني
بأنها ليست تنقلب لِمَجِّ السَّمِّ وإفراغِهِ، ولكنَّ الأفعى في نابها
عَصَل، وإذا عَصَّت استفرغت إدخال النَّابِ كُلِّهِ، وهو أَحَجَنُ
أَعْصَل، فيه مشابهة من الشَّصِّ، فإذا انقلبتْ كان أسهلَ لنزعه
وسلَّهُ، فأَمَّا لصبِّ السَّمِّ وإفراغِهِ فلا، قَالَ: واللَّهِ لعلَّه ما قلت
قلتُ: مَا أَسْرَعَ ما شككتَ ثمَّ قلتَ له: فكأنما وضعوا الترياق
واجتلبوا الأفاعيَ وضئوا وعزُّوا على أنه لا ينفع إلاَّ بَدْرِكِ
الأفعى قبلَ أنْ تَنقلب وكيف صار التُّرياقُ بعد الانقلاب لا
يكونُ إلاَّ في إِحْدَى منزلتين: إمَّا أن يقتل بكثرتِهِ، وإمَّا ألاَّ
يُنْفَعَ بقلته فكأنَّ الترياقَ ليس نفعُهُ إلاَّ في المنزلةِ الوسطى
التي لا تكون فاضلةً ولا ناقصةً ولكني أقولُ لك: كيف يكون
نفعه إذا كان الترياقُ جَيِّدًا قويًّا، وعُوجِل فسُقي المقدارُ
الأوسطَ، قَبْلَ أنْ يَبْلُغَ الصَّمِيمَ، ويغوصَ في العُمُقِ، وعلى هذا
وُضع، وهم كانوا أَحْرَمَ وأحْدَقَ مِنْ أن يتكلَّفوا شيئاً، ومقدارُهُ
مِن النَّفْعِ لا يُوصَلُ إلَيَّ معرفته.

ويقول بعضُ الخُذَّاقِ: إِنَّ سَقِي التَّرِياقِ بَعْدَ النِّهَشِ بِسَاعَةٍ أَوْ
سَاعَتَيْنِ مَوْتُ المَنهُوشِ، ثم قلت له: وما عَلَّمَك؟ وبأيِّ سببٍ
أيقنتَ أنها تمجُّ من جوفِ نابها شيئاً؟ ولعله ليس هنالك إلاَّ
مخالطةُ جوهَرِ ذلك النَّابِ لدم الإنسانِ أَوَلَسْنَا قَدْ نَجِدُ من
الإنسانِ مَنْ يَعْضُ صاحِبَهُ فيقتُلُهُ، ويكونُ معروفاً بذلك؟ وقد
تُقَرَّرُون أنَّ الهنديَّةَ والتُّعْبَانَ يقتُلانِ، إمَّا بمخالطةِ الرِّيقِ الدمِ،
وإمَّا بمخالطةِ السِّنِّ الدَّمِ، من غير أن تدَّعُوا أنَّ أسناتهما
مجوِّفة، وقد أجمع جميعُ أصحابِ التجاربِ أنَّ الحيَّةَ تُضْرَبُ
بِقَصَبَةٍ فتكونُ أشدَّ عليها من العصا، وقد يضربُ الرجلُ على
جسده بقُضْبَانِ اللُّوزِ وَ قُضْبَانِ الرُّمَّانِ، وقُضْبَانِ اللُّوزِ أَعْلَكُ
وَأَلْدَنُ، ولكنها أسلمُ، وقُضْبَانِ الرُّمَّانِ أخفُّ وأسخفُّ ولكنها
أعطبُ، وقد يطا الإنسانُ على عَظْمِ حَيَّةٍ أَوْ إِبْرَةِ عَقْرَبٍ،
وهما مَيِّتَتَانِ، فيلقى الجهدَ، وقد يُخْرِجُ السَّكِينُ من الكيرِ وهو
مُحَمَّى، فيغَمَسُ في اللبنِ فمتى خالطَ الدَّمَ قامَ مقامَ السمِّ،
من غير أن يكونَ مَجَّ في الدَّمِ رطوبةً غليظةً أو رقيقةً.

وبعض الحجارة يُكْوَى بها وهو رِخْو الأورام حتى يفرقها
ويُخَمِّصَهَا من غير أن يكونَ نَفْدًا إِلَيْهَا شَيْءٌ مِنْهُ، وليس إلاَّ
الملاقاة، قلتُ: ولعلَّ قُوَى قد انفصلتُ من أنيابِ الأفاعي إلى
دماء النَّاسِ، وقد رَوَوْا أَنَّهُ قيل لجالينوس: إِنَّ هَاهُنَا رجلاً
يرقي العقاربَ فتموُّثٌ، أو تنحلُّ فلا تعمل، فرآه يرقِيها ويتفَلُّ
عليها، فدعا به بحضرةِ جماعةٍ وهو على الرِّيقِ، ودعا بَعْدائه
فتعدَّى مَعَهُ، ثمَّ دُعِيَ له بالعقاربَ فَتَفَلَّ عليها، فلم يجدْ لعابه
يصنعُ شيئاً إلاَّ أن يكونَ ريقاً، وهو حَدِيثٌ يدورُ بينَ أهلِ
الطبِّ، وأنت طيبٌ، فلم أرهُ في يومه ذلك قال شيئاً إلاَّ من
طريقِ الحَزْر والحَزْدَس، والبلاغات.
السمومُ وسمومُ الحَيَّاتِ ذواتِ الأنيابِ، والعقاربِ ذواتِ
الإبر، إِنَّمَا تَعْمَلُ في الدَّمِ بالإجمادِ والإذابة، وكذا سمومُ ذواتِ
الشعرِ والقُرُونِ والجُمَّ، إِنَّمَا تَعْمَلُ في العصبِ، ومنها ما
يعمل في الدم.

شرب المسمومِ اللَّبَنِ

وحدَّثني بعضُ أصحابنا قال: كنتُ إمَّا برماي وإما بباري وهما بلادُ حَيَّاتٍ وَأَفَاعٍ، ونحن في عُرْسٍ، إذ أدخَلوا الخِذْرَ العروسَ فأبطؤوا عليه شيئاً، فأغفى وتلَوْتُ على ذراعِه أفعى، فذهبَ ينفُضها وَحَجَمْتُ على ذراعِه وقد يقال ذلك إذا كانت العَصَّةُ في صورةِ شَرَطِ الحَجَّامِ فَصَرَخَ وجاؤوا يتعادون فوجدوها فقتلوها، وسقوه في تلك اللَّيلةِ لَبَنٍ أربعينَ عنزاً، كُلَّمَا استقرَّ في جوفه قَعْبٌ من ذلك اللَّبَنِ قاءَ فَيَخْرُجُ مِنْهُ كَأَمْثالِ طَلَعِ الفُحَّالِ الأبيضِ، فيه طرائق من دَسَمٍ تعلوه خُضرةٌ، حتى استوفى ذلك اللَّبَنُ كُلَّهُ، قال: فعندها قال شيخٌ من أهل القرية: إن كنتم أخرجتم ذلك السَّمَّ فقد أخرجتم نَفْسَهُ مَعَهُ قال: فغَبَرَ أَيَّاماً بأسوا حالٍ ثمَّ مات، قال: وكنْتُ أعجَبُ من سُرْعَةِ استحالةِ اللَّبَنِ وجموده.

اكتفاء الحيات والضباب بالنسيم

قلتُ: والحَيَّاتُ البرِّيَّةُ إذا هَرِمَتِ تنسَمَّتِ النَّسِيمَ فَاكْتَفَتْ
بذلك، وكذلك الصُّبَابُ إذا هَرِمَتِ، قال: ولا يكون ذلك للمائيَّة
من حَيَّاتِ الغياضِ وشُطوطِ الأنهارِ، ومناقِعِ المياهِ.

الحيات المائية

قال: والحَيَّاتِ المائيَّةِ، إمَّا أن تكون برِّيَّةً أو جبليَّةً، فَاكْتَسَحَتْهَا
السُّيُولُ واحتملَتْهَا في كثيرٍ مِنْ أصنافِ الحَشْرَاتِ والمدَّوَابِّ
والسُّبَاعِ، فتوالدت تلك الحَيَّاتُ وتلاقحتْ هناك، وإمَّا أن تكون
كانت أمهائُها وآبائُها في حَيَّاتِ الماءِ، وكيف دارت الأمورُ فَإِنَّ
الحَيَّاتِ في أصلِ الطُّبَعِ مائيَّةِ، وهي تعيشُ في النَّدى، وفي
الماءِ، وفي المَبْرِّ وفي البحرِ، وفي الصَّخْرِ والرَّمْلِ، ومن
طبائعها أن ترقِّ وتلطِّف على شكلين: أحدهما لطولِ العمرِ،
والآخر للبعْدِ من الرِّيفِ، وعلى حسب ذلك تعظُمُ في المياهِ
والغياضِ.

ما أشبه الحيات من السمك

قال: وكلُّ شيء في الماء ممّا يعايش السمك، مما أشبه الحيات كالمارماهي والأنكليس فإنها كلها على ضربين: فأحدهما من أولاد الحيات انقلبت بما عرض لها من طباع البلد والماء، والآخر من نسل سمك وحيات تلاقحت؛ إذ كان طباع السمك قريباً من طباع تلك الحيات، والحيات في الأصل مائيّة، وكلّهما كحيات حيات. قرابة بعض النبات لبعض وقد زعم أهل البصرة أنّ مُسنان الكوفة قريبٌ من بُزنيّ البصرة، قلبته البلدة، ويزعم أهل الحجاز أنّ نخل النارجيل هو نخل المُقل، ولكنّه انقلب لطباع البلدة، وأشباه ذلك كثير، ويزعمون أنّ الفيلة مائة الطباع بالجاموسيّة والخزيريّة التي فيها بالنسيم قال: والمدّيب أيضاً، وإن كان عندهم ممّا لا يجتري بالنسيم، فإنّه من الحيوان الذي يفتح فاه للنسيم؛ ليبرد جوفه من اللهيب الذي يعتري السباع؛ ولأنّ ذلك يمدّ قوّته، ويقطع عنه ببرودته ولطافته الرّيق، فإن كان ذا سُعر إذا عدا احتشمت ريحاً. اختلاف صبر الذئب والأسد على الطعام ورّما جاع الأسد ففعل فعل الذئب، فالأسد والمدّيب يختلفان في الجوع والصبر؛ لأنّ الأسد شديد التهم، رغيّب حريص شره؛ وهو مع ذلك يحمّل أن يبقى أباماً لا يأكل شيئاً، والذئب وإن كان أفر منزلاً، وأقلّ خصباً، وأكثر كذاً وإخفاً، فلا بدّ له من شيء يلقيه في جوفه، فإذا لم يجد شيئاً استعار النسيم. حيلة بعض الجائع والنّاس إذا جاؤوا واشتدّ جوعهم شدّوا على بطونهم العمائم، فإن استقلوا، وإلّا شدّوا الحجر شعر في الذئب وأنشد:

الغصا العادي أضلّ شرفٍ مُستقيلٍ الرّيح
جراؤه يَلحَبُ

كأنّه يجمع استدخال الرّيح والنسيم، فلعلّه أن يجد ريح جرائه.
وقال الرّاجز:

يَسْتَخْبِرُ الرّيحَ إِذَا لَمْ يَسْمِعْهُ لِمَقْرَاعِ الصَّفا المَوْقِعِ

شمّ الظليم

والظَّليم يكون على بيضه فيشتمُّ ريح القانص من أكثر من
غَلْوَةٍ، ويبعدُ عَنْ رِئَالِه فيشتمُّ رِيحَهَا من مكانٍ بعيد. وأنشدني
يحيى بن نُجيم بن زَمْعَةَ قال:

من هَيْقٍ وَأَهْدَى من جَمَلٍ
وأنشدني عَمْرُو بن كِرْكِرَةَ:

زَالَ يَشْتَمُّ اشْتِمَامَ الْهَيْقِ
قال: وَإِنَّمَا جعله ذئبَ غَضاً لأنهم يقولون: ذئبُ الخمرِ أخبث،
ويقولون: شَيْطَانُ الحَمَاطَةِ: يريدون الحَيَّةَ.

بعض ضروب الحيات

وكلُّ حَيَّةٍ خفيفةُ الجسمِ فهي شَيْطَانٌ، والثَّقَالُ لا تَنشِطُ من أرضٍ إلى أرضٍ، وتثقلُ عَمَّا تبلُغُه
المستطيلاتُ الخِفافِ، وقال طرفة:

مَنْتَى حَصْرَمِيٍّ كَأَنَّهُ تَعَمُّجُ شَيْطَانٍ بذي خِرْوَعٍ
قَفْرِ

الكِرْمَانِي عن أَسِّ ولا أدري مَنْ أَسُّ هذا في صفة ناقة:

شَنَاحِيَّةٌ فِيهَا شَنَاحٌ كَأَنَّهَا
أَسْطَعُ حَشْرِ

والحَبَابُ: الحَيَّةُ العَامِلَةُ الشَّارِبَةُ. ذكر.

بعض المضاف إلى النبات من الحيوان وكما يقولون: ذئب الخمر، يقولون: أرنب الخلة، وتيس
الرَّبَلِ، وضبُّ السَّحَا، والسَّحَا بقله تحسُّنُ حاله مَنْ أكلها، وكذلك يقولون: ما هو إِلَّا فُقْعَدُ بُرْقَةٍ لأنه
يكون أخبثَ له، وذلك كله علقدر طبائع البلدان والأغذية العاملة في طبائع الحيوان.
بعض طبائع البلدان ألا ترى أنَّهم يزعمون أنَّ مَنْ دَخَلَ أرضَ بُبَّتْ لم يزلُّ ضاحكاً مسروراً، من غير

عَجِبَ حَتَّى يَخْرَجَ مِنْهَا، وَمِنْ أَقَامَ بِالْمَوْصِلِ حَوْلًا ثُمَّ تَفَقَّدَ قُوَّتَهُ وَجَدَ فِيهَا فُضْلًا، وَمِنْ أَقَامَ بِالْأَهْوَازِ حَوْلًا فَتَفَقَّدَ عَقْلَهُ دُوَ فِرَاسِيَّةٍ وَجَدَ التُّقْصَانَ فِيهِ بَيْنًا، كَمَا يُقَالُ فِي حُمَى حَيْبَرِ، وَطِحَالِ الْبَحْرَيْنِ، وَدَمَامِيلِ الْجَزِيرَةِ، وَجَرَبِ الرَّنَجِ، وَقَالَ الشَّمَّاحُ:

نَطَاةَ حَيْبَرَ زَوَدَتْهُ بَكُورَ الْوَرْدِ رَيْثَةَ الْفُلُوعِ

وقال أوس بن حجر:

بِهِ إِذْ جِئْتُهُ حَيْبَرِيَّةً يَعُودُ عَلَيْهِ وَرُدُّهَا وَقْلَالَهَا

وقال آخر:

حَمَى حَيْبَرَ تَمْلُهُ

وكذلك القول في وادي جحفة، وفي مَهْيَعَةَ، وفي أصول النخل حيث كان. وقال عبد الله بن همام السَّلُولِيُّ في دماميل الجزيرة:

لَهُ مِنْ شُرْطَةِ الْحَيِّ غَلِيظُ الْقُصَيْرِ لِحْمُهُ

مُتَكَوِسُ

إِذَا يَمْضِي يَحْكُ كَأَنَّ مَا بِهِ مِنْ دَمَامِيلِ الْجَزِيرَةِ

نَاخِسُ

فحدَّثني أبو زُرَّارِ الصُّرَّارِي قال: مات ضِرَارُ بن عمرو وهو ابن تسعين سنةً بالدَّمَامِيلِ، قلت: واللَّهِ إِنَّ هَذَا لَعَجَبٌ قَالَ: كَلَّا، إِنَّ مَا احْتَمَلَهَا مِنَ الْجَزِيرَةِ، وَكَذَلِكَ الْقَوْلُ فِي طَوَاعِينِ الشَّامِ، قَالَ أَحَدُ بَنِي الْمَغِيرَةِ، فِيمَنْ مَاتَ مِنْهُمْ بِطَوَاعِينِ الشَّامِ، وَمَنْ مَاتَ مِنْهُمْ بِطَعْنِ الرَّمَاحِ أَيَّامَ تِلْكَ الْمَغَارِي:

يَنْزِلِ الشَّامَ وَ يَغْرَسُ الشَّامُ إِنْ لَمْ يُفْنِهِ كَاذِبُ

بَنِي رَيْطَةَ فُرْسَاتِهِمْ عِشْرِينَ لَمْ يُقْصَصْ لَهُمْ

شَارِبُ

بَنِي أَعْمَامِهِمْ مِثْلَهُمْ هَذَا عَجَبَ الْعَاجِبِ

وَطَاغُونُ مَنَايَاهُمْ ذَلِكَ مَا خَطَّ لَنَا الْكَاتِبُ

قدوم عبد الله بن الحسن على عمر بن عبد العزيز وهشام قال: ولما قدِمَ عبدُ اللَّهِ بنُ الحِسنِ بنُ الحِسنِ رضي اللهُ عنهم، على عمَرَ بنِ عبدِ العزِيزِ رضي اللهُ عنه في حَوَائِجِ لَهُ، فَلَمَّا رَأَى مَكَاتَهُ بِالشَّامِ، وَعَرَفَ سِنَّتَهُ وَسَمَّتَهُ وَعَقْلَهُ، وَلِسَاتَهُ، وَصَلَاتَهُ وَصِيَامَهُ، فَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَلَّا يَرَاهُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ، فَقَالَ لَهُ: إِنَِّّي أَخَافُ عَلَيْكَ طَوَاعِينَ الشَّامِ؛ فَإِنَّكَ لَنْ تُعْنِمَ أَهْلَكَ أَكْثَرَ مِنْكَ،

فَالْحَقُّ بِهِمْ؛ فَإِنَّ حَوَائِجَكَ سَتَسِيئُكَ إِلَيْهِمْ، ثُمَّ قَدِمَ عَلَى هِشَامٍ، فَفَكَرَهُ عَبْدُ اللَّهِ أَنْ يَدْخُلَ مَنْزِلَ لَهُ حَتَّى يَأْتِيَهُ فِي ثِيَابِ سَفَرِهِ؛ مَخَافَةَ سُوءِ ظَنِّهِ، فَلَمَّا أَعْلَمَهُ الْحَاجِبُ مَكَاتَهُ، وَدَخَلَ عَلَيْهِ وَعَايَنَهُ، كَرِهَ أَنْ يَقِيمَ بِهَا طَرَفَةَ عَيْنٍ، قَالَ: اذْكَرْ حَوَائِجَكَ، قَالَ: أَحَطُّ رَحْلِي وَأَصْعُ ثِيَابَ سَفَرِي، وَأَتَذَكَّرُ حَوَائِجِي، قَالَ: إِنَّكَ لَنْ تَجِدَنِي فِي حَالٍ خَيْرًا لَكَ مَنِّي السَّاعَةَ يَرِيدُ أَنَّ الْقُلُوبَ أَرْقُ مَا تَكُونُ إِذَا تَلَاقَتِ الْعَيُونُ عَن بَعْضِ عَهْدٍ، وَلِيَسْ ذَلِكُ أَرَادَ.

طحال البحرين والعامّة تنشد:

يَسْكُنُ الْبَحْرَيْنِ يَعْظُمُ يُعْبَطُ بِمَا فِي بَطْنِهِ وَهُوَ
طِحَالُهُ جَائِعٌ

وَنَظَرَ دُكَيْنُ الرَّاجِزُ، إِلَى أَبِي الْعَبَّاسِ مُحَمَّدِ بْنِ دُوَيْبِ
الْفُقَيْمِيِّ الرَّاجِزِ، وَهُوَ عَلِيٌّ مَصْفَرٌّ مَطْحُولٌ، وَهُوَ يَمْتَحُ عَلَى
بَكْرَةٍ وَيَرْتَجِزُ، فَقَالَ: مِنْ هَذَا الْعُمَانِيِّ؟ فَلَزِمَتْهُ هَذِهِ النِّسْبَةُ.
جَرِبَ الزَّنْجَ وَحَدَّثَنِي يَوْسُفُ الزَّنْجِيِّ أَنَّهُ لَا بَدَّ لِكُلِّ مَنْ قَدِمَ
مِنْ شِيقِ الْعِرَاقِ إِلَى بِلَادِ الزَّنْجِ إِلَّا يَزَالُ جَرِبًا، مَا أَقَامَ بِهَا، وَإِنْ
أَكْثَرَ مِنْ شُرْبِ نَبِيذِهَا، أَوْ شَرَابِ النَّارِجِيلِ، طَمَسَ الْخُمَارُ
عَلَى عَقْلِهِ، حَتَّى لَا يَكُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَعْتَوَةِ إِلَّا الشَّيْءُ
اليسير.

طَبِيعَةُ الْمَصِيصَةِ وَخَبَّرَنِي كَمْ شَتَّتَ مِنَ الْعُزَاةِ، أَنْ مَنْ أَطَالَ
الصَّوْمَ بِالْمَصِيصَةِ فِي أَيَّامِ الصَّيْفِ، هَاجَ بِهِ الْمِرَارُ، وَأَنَّ كَثِيرًا
مِنْهُمْ قَدْ جُنُّوا عَن ذَلِكَ الْإِحْتِرَاقِ.

طبيعة قصبة الأهواز فأما قصبة الأهواز، فإنها قلبت كل من
نزلها من بني هاشم إلى كثير من طباعهم وشمائلهم، ولا بد
للهاشمي، قبيح الوجه كان أو حسناً، أو دميماً كان أو بارعاً
رائعاً، من أن يكون لوجهه وشمائله طبائع يبين بها من جميع
قريش وجميع العرب، فلقد كادت البلدة أن تنقل ذلك فتبدله،
ولقد تخيفته وأدخلت الصيم عليه، وبيئت أثرها فيه فما ظنك
بصنيعها في سائر الأجناس؟ ولفساد عقولهم، ولو طبع
بلادهم، لا تراهم مع تلك الأموال الكثيرة، والصياع الفاشية،
يحبون من البنين والبنات ما يحب أوساط أهل الأمصار على
الثروة واليسار، وإن طال ذلك، والمال منبهة كما تعلمون،
وقد يكتسب الرجل، من غيرهم، المويل اليسير، فلا يرضى
لولده حتى يفرض له المؤدبين، ولا يرضى لنسائه مثل الذي
كان يرضاه قبل ذلك، وليس في الأرض صناعة مذكورة، ولا
أدب شريف؛ ولا مذهب محمود، لهم في شيء منه نصيب
وإن حس، ولم أربها وجنة حمراء لصبي ولا صبية، ولا دمًا

ظاهرًا ولا قريبًا من ذلك، وهي قِتَالَةٌ لِلْعُرْبَاءِ، وَعَلَى أَنْ حُمَّاهَا
خَاصَّةً لَيْسَتْ لِلغَرِيبِ بِأَسْرَعَ مِنْهَا إِلَى الْقَرِيبِ، وَوَبَاؤُهَا
وَحُمَّاهَا، فِي وَقْتِ انْكَشَافِ الْوَبَاءِ وَنُزُوعِ الْحَمَى عَنْ جَمِيعِ
الْبُلْدَانِ، وَكُلُّ مَحْمُومٍ فِي الْأَرْضِ فَإِنَّ حُمَّاهُ لَا تُنْزِعُ عَنْهُ، وَلَا
تَفَارِقُهُ وَفِي بَدَنِهِ مِنْهَا بَقِيَّةٌ، فَإِذَا نَزَعَتْ عَنْهُ فَقَدْ أَخَذَ مِنْهَا عِنْدَ
نَفْسِهِ الْبَرَاءَةَ، إِلَى أَنْ يَعُودَ إِلَى الْخَلْطِ، وَأَنْ يَجْمَعَ فِي جَوْفِهِ
الْفَسَادَ، وَلَيْسَتْ كَذَلِكَ الْأَهْوَازُ لِأَنَّهَا تُعَاوِدُ مِنْ نَزَعَتْ عَنْهُ مِنْ
غَيْرِ حَدَثٍ، كَمَا تُعَاوِدُ أَصْحَابَ الْحَدَثِ؛ لِأَنَّهُمْ لَيْسُوا يُؤْتُونَ مِنْ
قَبْلِ النَّهْمِ، وَمَنْ قَبْلَ الْخَلْطِ وَالْإِكْثَارِ، وَإِنَّمَا يُؤْتُونَ مِنْ عَيْنِ
الْبَلَدَةِ، وَكَذَلِكَ جَمَعَتْ سُوقُ الْأَهْوَازِ الْأَفَاعِي فِي جِبِلِّهَا
الطَّاعِنِ فِي مَنَازِلِهَا، الْمَطِيلُ عَلَيْهَا؛ وَالجَّرَّارَاتِ فِي بِيوتِهَا
وَمَقَابِرِهَا وَمَنَابِرِهَا، وَلَوْ كَانَ فِي الْعَالَمِ شَيْءٌ هُوَ شَرُّ مِنْ
الْأَفْعَى وَالجَّرَّارَةِ، لَمَا قَصَّرَتْ قَصَبَةُ الْأَهْوَازِ عَنْ تَوَلِيدِهِ
وَتَلْقِيحِهِ، وَبَلِيئُهَا أَنَّهَا مِنْ وَرَائِهَا سِبَاخٌ وَمَنَاقِعُ مِيَاهٍ غَلِيظَةٍ
وَفِيهَا أَنْهَارٌ تُشْقِهَا مَسَائِلُ كُنْفِهِمْ، وَمِيَاهُ أَمْطَارِهِمْ

وَمُتَوَصَّاتِهِمْ، فَإِذَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ قَطَالَ مُقَامُهَا، وَطَالَتْ مَقَابِلُهَا لِذَلِكَ الْجَبَلِ، قَبْلَ بِالصَّخْرِيَّةِ الَّتِي فِيهِ تِلْكَ الْجَرَّارَاتُ، فَإِذَا امْتَلَأَتْ يَبَسًا وَحَرَارَةً، وَعَادَتْ جَمْرَةً وَاحِدَةً، قَذَفَتْ مَا قَبِلَتْ مِنْ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، وَقَدْ تُحْدِثُ تِلْكَ السَّبَاحُ وَتِلْكَ الْأَنْهَارُ بُخَارًا فَاسِدًا، فَإِذَا التَّقَى عَلَيْهِمْ مَا تُحْدِثُ السَّبَاحُ وَمَا قَذَفَهُ ذَلِكَ الْجَبَلُ، فَسَدَ الْهَوَاءُ، وَبُفْسَادِ الْهَوَاءِ يَفْسُدُ كُلُّ شَيْءٍ يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ ذَلِكَ الْهَوَاءُ. وَحَدَّثَنِي إِبْرَاهِيمُ بْنُ عَبَّاسِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ مَنْصُورٍ، عَنِ مَشِيخَةٍ مِنْ أَهْلِ الْأَهْوَازِ، عَنِ الْقَوَابِلِ، أَنَّهُنَّ رُبَّمَا قَبِلْنَ الطِّفْلَ الْمَوْلُودَ، فَيَجِدْنَهُ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ مَحْمُومًا، يَعْرِفْنَ ذَلِكَ وَيَتَحَدَّثْنَ بِهِ.

عيون الحيات والخطاطيف

قال: ويعرض لفراخ الحيات مثل الذي يعرض لفراخ الخطاطيف؛ فإن نازعاً لو نزع عيون فراخ الخطاطيف، وفراخ الحيات، لعادت بصيرة. مفارقة السلحفاة والرق والضفدع للماء وزعم أن السلحفاة

والرَّقِّ، والضَّفدَع، مِّمَّا لَا بَدَّ لَهُ مِنَ التَّنْفُّسِ، وَلَا بَدَّ لَهَا مِنَ
مَفَارِقَةِ الْمَاءِ، وَأَنَّهَا تَبْيِضُ وَتَكْتَسِبُ الطَّعْمَ وَهِيَ خَارِجَةٌ مِنَ
الْمَاءِ، وَذَلِكَ لِلنَّسَبِ الَّذِي بَيْنَهَا وَبَيْنَ الضَّبِّ، وَإِنْ كَانَ هَذَا
بَرِّيًّا وَهَذَا بَحْرِيًّا. شَبِهَ بَعْضَ الْحَيَوَانَ الْمَبْرِيَّ بِنَظِيرِهِ مِنَ
الْبَحْرِيِّ وَيَزَعْمُونَ أَنَّ مَا كَانَ فِي الْمَبْرِ مِنَ الضَّبِّ وَالْوَرَلِ
وَالْحِرْبَاءِ، وَالْحَلَكَاءِ، وَشَحْمَةِ الْأَرْضِ، وَالْوَرَعِ وَالْعِظَاءِ مِثْلَ
الَّذِي فِي الْبَحْرِ مِنَ السُّلْحَفَةِ وَالرَّقِّ، وَالتَّمْسَاحِ، وَالضَّفدَعِ،
وَأَنَّ تِلْكَ الْأَجْنَاسَ الْبَرِّيَّةَ وَإِنْ اخْتَلَفَتْ فِي أُمُورِهَا، فَإِنَّهَا قَدْ
تَتَشَابَهَ فِي أُمُورٍ، وَأَنَّ هَذِهِ الْأَجْنَاسَ الْبَحْرِيَّةَ مِنْ تِلْكَ، كَكَلْبِ
الْمَاءِ مِمَّنْ كَلَّابُ الْأَرْضِ.
صَوْمَ بَعْضَ الْحَيَوَانَ وَقَدْ زَعَمَ صَاحِبُ الْمَنْطِقِ أَنَّ الْحَيَّةَ
وَسَامَّ أَبْرَصَ مِنَ الْعِظَاءِ، وَالتَّمْسَاحِ، تَسْكُنُ فِي أَعْشَشَتِهَا
الْأَرْبَعَةَ أَشْهُرَ الشَّدِيدَةِ الْبَرْدِ، لَا تَطْعَمُ شَيْئًا، وَأَنَّ سَائِرَ
الْحَيَّاتِ تَسْكُنُ بَطْنَ الْأَرْضِ، فَأَمَّا الْأَفَاعِي فَإِنَّهَا تَسْكُنُ فِي
صُدُوعِ الصَّخْرِ، وَلَيْسَ لَشَيْءٍ مِنَ الْحَيَوَانَ مِنَ الضَّبْرِ عَنِ

الطَّعْمِ ما لهذه الأجناس، وإنَّ الفيل ليناسبُها من وجهين:
أحدهما من طول العمر، فإنَّ منها ما قد عاش أربعمئة
سنة، والوجه الآخر أنَّ الفيلة مائيَّة وهذه الأجناس مائيَّة وإن
كان بعضها لا يسكن الماء.
داهية الغبر قال: وسمعتُ يونس بن حبيبٍ يقول: داهية
الغبر قال: وقيل ذلك لأنها ربَّما سكنتُ بقُربِ ماءٍ، إمَّا غديرٍ
وإما عينٍ، فتحمي ذلك الموضعَ، وربما غبر ذلك الماءُ في
المنقَع حيناً وقد حمته، وقال الكذابُ الحرمازيُّ:

المعلَّى نزلتُ إحدى داهيةُ الدهرِ وصمَّاءُ الغبر

قال: وسأل الحكم بنُ مروانَ بنِ زبائعٍ، عن بني عبد الله بن
غطفان، قال: أفعى إنَّ أيقظتها لسعَّتك، وإن تركتها لم
تضرك.

نادرة تتعلق بالحيات

وذكر عن سعيد بن صخر قال: تُهش رجلٌ من أهل البادية
كثيرُ المال، فأشفى على الموت، فأتاهم رجلٌ فقال: أنا

أَرْقِيهِ، فَمَا تُعْطُونِي؟ فَشَارَطُوهُ عَلَى ثَلَاثِينَ دِرْهَمًا، فَرَقَاهُ
وَسَقَاهُ أَشْيَاءَ بَعْضُ الْأَخْلَاطِ، فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ الرَّاقِي
وَالْمَدَاوِي: حَقِي قَالَ الْمَلْدُوغُ: وَمَا حَقُّهُ، قَالُوا: ثَلَاثُونَ دِرْهَمًا،
قَالَ أُعْطِيهِ مِنْ مَالِي ثَلَاثِينَ دِرْهَمًا فِي نَفَثَاتٍ نَفَثَهَا، وَحَمَضٍ
سَقَاهُ لَا تُعْطَى وَهُوَ شَيْئًا.

حَدِيثُ سَكْرِ الشُّطْرَنْجِيِّ وَحَدَّثَنِي بَعْضُ أَصْحَابِنَا عَنْ سَكْرِ
الشُّطْرَنْجِيِّ، وَكَانَ أَحْمَقَ الْقَاصِّينَ، وَأَحْذَقَهُمْ بَلْعَبِ
الشُّطْرَنْجِ، وَسَأَلْتَهُ عَنْ خَرَقٍ كَانَ فِي خَرْمَةِ أَنْفِهِ فَقُلْتُ لَهُ: مَا
كَانَ هَذَا الْخَرَقُ؟ فَذَكَرَ أَنَّهُ خَرَجَ إِلَى جَبَلٍ يَتَكَسَّبُ بِالشُّطْرَنْجِ،
فَقَدِمَ الْبَلَدَةَ وَلَيْسَ مَعَهُ إِلَّا دِرْهَمٌ وَاحِدٌ، وَلَيْسَ يَدْرِي أَيْنَ جَحُّ أُمَّ
يُخْفِقُ، وَيَجِدُ صَاحِبَهُ الَّذِي اعْتَمَدَهُ أُمَّ لَا يَجِدُهُ؟ فَوْرَدَ عَلَى حَوَائِ
وَبَيْنَ يَدَيْهِ جُؤُونَ عِظَامٌ فِيهَا حَيَاتٌ جَلِيلَةٌ.
وَالْحَيَّةُ إِذَا عَضَّتْ لَمْ تَكُنْ غَايِبًا النَّهْشِ أَوْ الْعَضِّ، وَأَنْ تَرْضَى
بِالنَّهْشِ، وَلَكِنَّهَا لَا تَعَضُّ إِلَّا لِلْأَكْلِ وَالْإِبْتِلَاعِ، وَرَبَّمَا كَانَتْ
الْحَيَاتُ عِظَامًا جَدًّا وَلَا سَمُومَ لَهَا، وَلَا تَعْقِرُ بِالْعَضِّ، كَحَيَاتِ

الجَوْلَانِ، وفي البادية حَيَّة يقال لها الحُقَّاثُ، والحُقَّاثُ من الحَيَّات تَأْكُل الفأرَ وأشْبَاهَ الفأرِ، ولها وعيدٌ مُنْكَرٌ، ونَفْحٌ وإِظْهَارٌ لِلصَّوْلَةِ، وليس وراء ذلك شيءٌ، والجاهل ربَّما مات من الفزع منها، وربَّما جمعت الحَيَّة السَّمَّ وشِدَّةَ الجَرْحِ، والعضَّ والابتلاعَ، وَحَطَمَ العِظْمَ، فوقف سُكْرٌ على الحوَّاء وقد أخرج من جونتِه أعظم حَيَّاتٍ في الأرضِ، وادَّعى نفوذَ الرُّقِيَّةِ وجودةَ التَّرياقِ، فقال له سُكْرٌ: خذْ مِنِّي هذا الدَّرْهَمَ، وارقني رُقِيَّةً لا تضرَّني معها حَيَّةٌ أبداً قال: فَإِنِّي أفعلُ، قال: فَأَرْسِلْ قَبْلَ ذلك حَيَّةً، حتَّى ترقيني بعد أن تعصَّني، فَإِنْ أفقْتُ علمتُ أَنَّ رُقِيَّتَكَ صحيحةٌ، قال: فَإِنِّي أفعلُ، فاخترْ أَيَّتَهُنَّ شئتَ، فأشار إلى واحدةٍ ممَّا تعصَّ للأكلِ دون السَّمِّ، فقال: دَعُ هذه، فَإِنَّ هذه إن قبضتُ على لحمك لم تفارقك حتى تقطعك قال: فَإِنِّي لا أريد غيرها، وظنَّ أَنَّهُ إِنَّمَا زَوَّاهَا عنه لفضيلةٍ فيها، قال: أمَّا إِذْ أُبَيِّتُ إِلَّا هذه فاخترْ موضعاً من جسدك حتَّى أرسلها عليه، فاخترَ أَنفه، فناشده وخوَّفه، فأبى إِلَّا ذلك أو

يردّ عليه دِرْهَمَهُ، فأخذها الحَوَاءُ وطواها على يده، كي لا يدعها تنكز فتقطع أنفه من أصله، ثم أرسلها عليه، فلما أنشبت أحد نابيّها في شِقِّ أنفه صَرَخ عليه صَرَخَةً جمعت عليه أهل تلك البلدة، ثم عُشِي عليه، فأخذ الحَوَاءُ فوضع في السِّجْنِ، وقتلوا تلك الحَيَّاتِ، وتركوه حتّى أفاق كأنه أجنُّ الخلق، فتطوّعوا بحمله فحملوه مع المُكاري، وردّوه إلى البصرة، وبقي أثرُ نابِها في أنفه إلى أن مات. ما يغتصب بيت غيره من الحيوان قال: وأشياء من الحشرات لا تتخذ لنفسها ولا لبيضها ولا أولادها بيوتاً، بل تظلم كلُّ ذي جُحر جُحره، فتخرجه منه، أو تأكله إنَّ ثبت لها، والعربُ تقول للمُسيء: أَظْلَمُ مِنْ حَيَّةٍ لَأَنَّ، الحَيَّة لا تتخذ لنفسها بيتاً، وكلُّ بيتٍ قصدت نحوه هرب أهله منه، وأخلّوه لها.

عداوة الورل والحية

والورل يقوى على الحياتِ ويأكلها أكلاً ذريعاً، وكلُّ شِدَّةٍ يلقاها ذو جُحر منها فهي تلقى مثل ذلك من الورل، والورلُ

الْطَفُّ جِزْمًا مِنَ الصَّبِّ، وزعم أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: أَظْلَمُ مِنْ وَرَلٍ
كَمَا يَقُولُونَ: أَظْلَمُ مِنْ حَيَّةٍ، وكَمَا يَقُولُونَ: أَظْلَمُ مِنْ ذَنْبٍ
وَيَقُولُونَ: مَنْ اسْتَرَعَ الذَّنْبَ ظَلَمَ .
الورل والضبّ وبراثن الورل أقوى من براثن الضبّ،
والضبابُ تحفر جحرتها في الكُدَى، والورل لا يحفر لنفسه بل
يُخْرِجُ الصَّبَّ من بيته، فتزعم الأعرابُ أَنَّهُ إِنَّمَا صار لا يحفر
لنفسه إبقاءً على براثنه، ويمنع الحيّة أن تحفر بيتها أن أسناتها
أَكَلَتْ من أسنان الفأر ومن التي تحفر بالأفواه والأيدي، كالنمل
والدّرّ وما أشبه ذلك، والحيّة لا ترى أن تعاني ذلك، وَحَفْرُ
غيرها ومعاناته يكفيها

شعر في ظلم الحية

وفي. صَرَبِ المثل بظلم الحيّة، يقول مضرّس بن لقيط:

لعمرك إني لو أخاصم حيةً إلى فقعسي ما أنصفتني
فقعس
قلت مات الداء بيني سعى حاطبٌ منهم لآخر
وبينهم يقبس
لكم طلّساً إلى ذئاب الغضا والذئب بالليل

كانكم

وجعله أطلس؛ لأنه حين تشتدُّ ظُلمة اللَّيل فهو أخفى له، ويكونُ حينئذٍ أخبث له وأضرى.
وقال حريزُ بنُ نُشَبةِ العَدَوِيِّ، لَبني جعفر بن كلاب، وَصَرَبَ جَوْرَ الحَيَّةِ وَالدَّبَّ فِي الحُكْمِ مثلاً،
فقال:

حين أحبو جعفرًا أسقيهم طرق ماء غير
مدحى مشروب
أخاصم أفعى نابها أو الأسود من صم
الأهاضيب
معها ألباً وكان لها نابٌ بأسفل ساقٍ أو
بعرقوب
أخاصم ذئباً في لجاءني جمعكم يسعى مع
أكليته الذيب

فم الأفعى

قال: والحَيَّةُ واسعةُ الشَّحْوِ والفم، لها خطم، ولذلك ينفذ
نابها، وكذلك كلُّ ذِي فَمٍ واسعِ الشَّحْوِ، كفم الأسد، فإذا
اجتمعَ له سَعَةُ الشَّحْوِ وطولُ اللَّحْيَيْنِ، وكان ذا خَطْمٍ
وخرطومٍ فهو أشدُّ له؛ كالخنزير، والدَّبَّ والكُلب، ولو كان
لرأس الحَيَّةِ عَظْمٌ كان أشدَّ لعَضَّتِها، ولكنَّه جلدٌ قد أطبقَ
على عَظْمَيْنِ رقيقينِ مستطيلينِ بفكِّها الأعلى والأسفل،
ولذلك إذا أهوى الرَّجُلُ بحَجَرٍ أو عَصَى، رأيتها تلوَّى رأسها

وتحتال في ذلك، وتمنعه بكلِّ حيلةٍ، لأنَّها تعلم وتحسُّ بِصَعْفِ ذلك الموضع منها، وهو مَقْتَلٌ، وما أكثر ما يكون في أعناقها تخصيرٌ، ولصدورها أغباب، وذلك في الأفاعي أعمُّ، وذلك الموضعُ المستدقُّ إنَّما هو شيءٌ كهية الخريطة، وكهية فم الجِرابِ، مُنْضَمُّ الأثناء، مُتَّبِى الغصُون، فإذا شئت أن تفتح انفتح لك فمٌ واسع، ولذلك قال إبراهيم بن هانئ: كان فَتْحُ فَمِ الجِرابِ يحتاجُ إلى ثلاثة أيدي، ولولا أنَّ الحمالين قد جعلوا أفواههم بدل اليد الثالثة لقد كان ذلك ممتنعًا حتَّى يستعينوا بيدِ إنسان. وهذا ممَّا يعدُّ في مجون ابن هانئ، وكذلك خُلوقُ الحياتِ وأعناقها وصدورُها، قد تراها فتراها في العين دقيقةً، ولا سيَّما إذا أفرطت في الطول.

شراة الحية والأسد

وهي تبتلعُ فِراخ الحمام، والحيةُ أنهمُ وأشره من الأسد، والأسدُ يبلغُ البَصْعَةَ العظيمةً من غير مضغٍ، وذلك لما فيه من فَضْلِ الشرِّه، وكذلك الحية، وهما واثقان بسهولة وسعة

قول الأعراب في الأصله

والأعراب تقول في الأصله قولاً عجيباً: تزعمُ أنَّ الحية التي يقال لها الأصله لا تمرُّ بشيءٍ إلاَّ احترق، مع تهاويل كثيرة، وأحاديث شنيعة.

الأجدهاني

وتزعم الفرس أنَّ الأجدهاني أعظم من البعير، وأنَّ لها سبعة رؤوس، وربما لقيت ناساً فتبتلع من كلِّ جهةٍ فمٍ ورأسٍ إنساناً، وهو من أحاديث الباعة والعجائز.

الحيه ذات الرأسين

وقد زعم صاحب المنطق أنه قد ظهرت حية لها رأسان، فسألت أعرابياً عن ذلك فرعم أن ذلك حق، فقلت له: فمن أي جهة الرأسين تسعى؟ ومن أيهما تأكل وتعض؟ فقال: فأما السعْيُ فلا تسعى، ولكنها تسعى إلى حاجتها بالقلب، كما يتقلب الصبيان على الرمل، وأما الأكل فإنها تتعشى بضم

وتتغذى بغم، وأما العَضُّ فإنها تعضُّ برأسيها معًا فإذا به أكذبُ
البريَّة، وهذه الأحاديثُ كلها، ممَّا يزيد في الرعب منها، وفي
تهويل أمرها.

فُرانق الأسد ومِثْلُ شأنِ التَّيْنِ مِثْلُ أَمْرٍ فُرانقِ الأسد، فإنَّ
ذكره يجري في المجلس، فيقول بعضهم: أنا رأيتُه وسَمِعْتُهُ!

فزع الناس من الحية

وربما زاد في الرعب منها والاستهالة لمنظرها قولُ جميعِ
المحدِّثين: إِنَّ من أعظم ما خَلَقَ اللهُ الحيةَ والسَّرطانَ
والسَّمك!

طول عمر الحية

وتقول الأعراب: إِنَّ الحيةَ أطولُ عمراً من النَّسر، وإنَّ
الناسَ لم يَجِدُوا حيةً قطُّ ماتت حنْفَ أنفِها، وإنما تموت بالأمر
يعرض لها، وذلكُ لأمر؛ منها قولهم: إِنَّ فيها شياطينَ، وإنَّ
فيها مِنْ مسخ، وإنَّ إبليسَ إنما وسوس إلى آدم وإلى حواء

من جَوْفِهِ

زعم الفضل بن إسحاق وزعم لي الفضل بن إسحاق، أنه كان لأبيه نُحَّانٍ، وأنَّ طولَ كُلِّ نَحٍّ تسعةَ عشرَ ذراعاً

ضروب الحيات

ومن الحيَّات الجُرْدُ والزُعْرُ، وذلك فيها من الغالب، ومنها ذواتُ شعرٍ، ومنها ذواتُ قرونٍ، وإِنَّمَا يتخلق لها في كلِّ عام قشْرٌ وغلَافٌ فأما مقادير أجسامها فقط. انسلخ جلد الإنسان وأما الجلودُ فَإِنَّ الأرمينيَّ زعم أنه كان عندهم رجلٌ ينقشِرُ من جلده وينسلخُ في كلِّ شهرٍ مرَّةً، قال فجمع ذلك فوجد فيه مِلءٌ جراب أو قال: أكثر.

علة الفرع من الحية

وأما الذي لا أشك في أنه قد زاد في أقدارها في النفوس، وعظَّم من أخطارها، وهوَّل من أمرها، ونبّه على ما فيها من الآية العجيبة والبرهان النير، والحجّة الظاهرة، فَمَا في قلب

العصا حَيَّة، وفي ابتلاعها ما هُوَلَّ به القوم وسَحَرُوا من
أَعْيُنِ النَّاسِ، وجاؤوا به من الإفك، قال الله عزَّ وجلَّ:
"وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ حَقِيقٌ
عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ
فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَالَ إِنَّ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا
إِنَّ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ، فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ"
إلى قوله: "فَأَلْقُوا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ" فإن قلت: إنه إنما حَوَّلَ
العصا ثُعْبَانًا لأنهم جاؤوا بحبال وعِصِيٍّ؛ فحوَّلوها في أعين
الناس كلها حَيَّات، فلذلك قلبَ الله العصا حَيَّةً على هذه
المعارضة، ولو كانوا حين سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ جَعَلُوا حِبَالَهُمْ
وعِصِيَّهُمْ ذِنَابًا فِي أَعْيُنِ النَّاسِ وَنُمُورًا، لَجَعَلَ اللَّهُ عَصَا
مُوسَىٰ ذِنَابًا أَوْ تَمْرًا، فلم يكن ذلك لخاصَّةٍ فِي بَدَنِ الْحَيَّةِ،
قلنا: الدليل على باطل ما قلتم، قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: "وَمَا تَلْكَ
بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ، قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا
عَلَىٰ غَنَمِي وَلِي فِيهَا مَآرِبٌ أُخْرَىٰ قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ"

فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى " وقال الله عز وجل: "إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنستُ ناراً" إلى قوله: "وَأَلْقَى عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ" فقلبت العصا جَانًّا، وليس هناك حبالٌ ولا عِصِيٌّ، وقال الله: "قال لئن اتخذت إلهًا غيري لأجعلنك من المسجونين قال أولو جنتك بشيءٍ مُبين قال فأت به إن كنت من الصادقين فألقى عصاهُ فإذا هي تُعبأٌ مُبينٌ" فقلبُ العصا حَيَّةً كان في حالاتٍ شتى، فكان هذا مما زاد في قدر الحياة، وقد ورد أنه صلى الله عليه وسلم قال في دعائه أن لا يميته الله لَدِيغًا، وتأويل ذلك: أنه صلى الله عليه وسلم ما استَعَاذَ بالله من أن يموتَ لَدِيغًا، وأن تكونَ ميته بأكلِ هذا العدوِّ، إلا وهو من أعداءِ الله، بل من أشدِّهم عداوة وقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: أشدُّ النَّاسِ عذاباً يومَ القيامةِ مَنْ قَتَلَ نَبِيًّا أو قَتَلَهُ نَبِيٌّ كَأَنَّهُ كَانَ فِي الْمَعْلُومِ أَنَّ النَّبِيَّ لَا يَقْتُلُ أَحَدًا، وَلَا يَتَّفِقُ ذَلِكَ إِلَّا فِي

أَشْرَارِ الْخُلُقِ، وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ، الَّذِي اتَّقَى مِنْ قَتْلِ أَبِي بِنِ
خَلْفِ بِيَدِهِ، وَالنَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ، وَعُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ،
وَمَعَاوِيَةُ بْنُ الْمَغِيرَةِ بْنِ أَبِي الْعَاصِي صَبْرًا. وَحَدَّثَتْ عَنْ عَبْدِ
اللَّهِ بْنِ أَبِي هَنْدٍ، قَالَ: حَدَّثَنِي صَيْفِيُّ بْنُ أَبِي أَيُّوبَ، أَنَّهُ سَمِعَ
أَبَا بَشِيرٍ الْأَنْصَارِيَّ يَقُولُ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
يَتَعَوَّذُ مِنْ هَوْلَاءِ السَّبْعِ: كَانَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ
الْهَدْمِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ التَّرْدِي، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْغَمِّ وَالغَرَقِ،
وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْحَرَقِ وَالْهَرَمِ، وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ يَتَخَبَّطَنِي
الشَّيْطَانُ عِنْدَ الْمَوْتِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ أَمُوتَ فِي سَبِيلِكَ
مُدْبِرًا، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ أَمُوتَ لَدِيغًا. وَطَلْحَةُ بْنُ عَمْرٍو قَالَ:
حَدَّثَنِي عَطَاءٌ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ
يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْأَسَدِ وَالْأَسْوَدِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ
الْهَمِّ

استطراد لغوي قال: ويقال للحية: صَفَرَتْ تَصْفِرُ صَفِيرًا،
والرجل يصفر بالطير للتنفير، وبالذباب وببعض الطير

للتعليم، وتتخذ الصَّفارة يُصَقَّرُ بِهَا لِلْحَمَامِ وَلِلطَيْرِ فِي
المزارع، قال أعشى هَمْدان يهجو رَجُلًا:

جثا للزَّرع يوم حَصادِ قَطَعِ النَّهَارِ تَأْوُهُا وَصَفِيرَا

لسان الحية

والحَيَّة مشقوفة اللسانِ سوداؤه، وزعم بعضهم أن لبعض الحَيَّات لسانين، وهذا عندي غلطٌ، وأظنُّ
أنَّهُ لما رأى افتراقَ طرف اللسانِ قضى بأنَّ له لسانين.
عجيبه للضب ويقال: إن للضَبِّ أَيْرين، ويسمَّى أير الضَّبِّ تَرْكًا، قال الشاعر:

له نِزْكَانٍ كَانَا فَضِيلَةً عَلَى كُلِّ حَافٍ فِي الْأَنَامِ
وَنَاعِلٍ
قَالَ أَبُو خَلْفِ النَّمْرِيِّ: سَأَلَ أَبُو حَيَّةِ النَّمِيرِي عَنْ أَيْرِ الضَّبِّ،
فَزَعَمَ أَنَّ أَيْرَ الضَّبِّ كَلْسَانَ الْحَيَّةِ: الْأَصْلُ وَاحِدٌ، الْفَرْعُ اثْنَانِ

زعم بعض المفسرين في عقاب الحية

وبعض أصحاب التفسيرِ يَزْعُمُ أَنَّ اللَّهَ عَاقَبَ الْحَيَّةَ حِينَ
أَدْخَلَتْ إِبْلِيسَ فِي جَوْفِهَا، حَتَّى كَلَّمَ آدَمَ وَحَوَّاءَ وَخَدَعَهُمَا عَلَى
لِسَانِهَا، بَعَشَرَ خِصَالٍ: مِنْهَا شَقُّ اللِّسَانِ، قَالُوا: فَلِذَلِكَ تَرَى
الْحَيَّةَ إِذَا صُزِبَتْ لِلْقَتْلِ كَيْفَ تَخْرُجُ لِسَانَهَا لِثَرِي الصَّارِبِ
عَقُوبَةَ اللَّهِ، كَأَنَّهَا تَسْتَرْحِمُ، وَصَاحِبُ هَذَا التَّفْسِيرِ لَمْ يَقُلْ ذَلِكَ

إِلَّا لِحَيَّةٍ كَانَتْ عِنْدَهُ تَتَكَلَّمُ، وَلَوْ لَا ذَلِكَ لَأَنْكَرَ آدَمُ كَلَامَهَا، وَإِنْ
كَانَ إِبْلِيسُ لَا يَحْتَالُ إِلَّا مِنْ جِهَةِ الْحَيَّةِ، وَلَا يَحْتَالُ بِشَيْءٍ غَيْرِ
مَم_____وَّهِ وَلَا مَش_____بِهِ.

استطرد لغوي قال: ويقال: أرضٌ مَحْوَاةٌ وَمَحْيَاةٌ مِنْ
الْحَيَّاتِ، كَمَا يُقَالُ أَرْضٌ مَصَّبَةٌ وَصَبِيَّةٌ مِنَ الصَّبَابِ، وَفَائِرَةٌ مِنَ
الْف_____أر.

قولهم: هذا أجل من الحرش وقال الأصمعيُّ في تفسير
قولهم في المثل: هذا أَجَلٌ مِنَ الْحَرَشِ: إِنَّ الصَّبَّ قَالَ لابنه:
إِذَا سَمِعْتَ صَوْتَ الْحَرَشِ فَلَا تَخْرُجَنَّ قَالَ: وَذَلِكَ أَنَّهُمْ
يُزَعَمُونَ أَنَّ الْحَرَشَ تَحْرِيكُ الْيَدِ عِنْدَ جُحْرِ الصَّبِّ، لِيُخْرَجَ إِذَا
ظَنَّ أَنَّهُ حَيَّةٌ قَالَ: وَسَمِعَ ابْنُهُ صَوْتَ الْحَفْرِ فَقَالَ: يَا أَبَتُ هَذَا
الْحَرَشُ؟ قَالَ: يَا بَنِيَّ، هَذَا أَجَلٌ مِنَ الْحَرَشِ فَأَرْسَلَهَا مَثَلًا.

أَسْمَاءُ مَا يَأْكُلُ الْحَيَّاتُ

بين الحيات وبين الخنازير عداوة، والخنازير تأكلها أكلاً ذريعاً، وسمومٌ ذواتِ الأنيابِ مِنَ الْحَيَّاتِ،
وَذَوَاتِ الْإِبْرِ، سَرِيعَةٌ فِي الْخَنَازِيرِ، وَهِيَ تَهْلِكُ عِنْدَ ذَلِكَ هَلَاكاً وَشَيْكاً، فَلِذَلِكَ لَا تَرْضَى بِقَتْلِهَا حَتَّى

تأكلها، وتأكل الحيات العقبان، والأبائل، والأراوي، والأوعال، والسنانير والشاهمرك، والقنفذ، إلا أن القنفذ أكثر ما يقصد إلى الأفاعي، وإنما يظهر بالليل، قال الرّاجز:

ليل دائم التّجّاب

وهذا الرّاجز هو أبو محمد الفقعسي القول في القنفذ وكذلك يشبه التّمّام، والمُدّاخِل، والدّيسيس، بالقنفذ، لخروجه بالليل دون النهار، ولاحتياله للأفاعي، قال عبّدة بن الطيب:

اعصوا الذي يلقي القنافذ متنصحا وهو السمام
الأنقع

عقاربه ليعث بينكم حرباً كما بعث العروق
الأخدع

لا يشفي غليل فؤاده غسلُ بماء في الإناء
مشعشع

تأمّنوا قوماً يشب بين القوابل بالعداوة
ينشع

وهذا البيت الآخر يضم إلى قول مجنون بني عامر:

هَواها قَبْلُ أَنْ أُعْرِفَ فَصَادَفَ قَلْباً خَالِياً
فَتَمَكَّنَا

ويضم إليه قول ابن أود: الطينة تَقَبَلُ الطبائع ما كانت لِيْتَةً.

ثم قال عبّدة بن الطيب، في صلة الأبيات التي ذكر فيها القنفذ والتّميمة:

الذّين تُرَوّثُهُمُ يَشْفِي صُدَاعَ رُؤوسِهِمْ أَنْ
خُلَاتِكُمْ تُصَرَّعُوا

إذا دمس الظلامُ جدُّعوا قنafdَ بالنميمة
عَلَيْهِمْ تمزَعُ

وهذا الشعر من عُرر الأشعار، وهو مَمّا يحفظ.

وقال الأودي:

القن لا تخفى مدارجَهُ خيب إذا نام عنه الناس لم
ينم

عهد آل سجستان على العرب وفي عهد آل سجستان على العرب حين افتتحوها: لا تقتلوا قُنْفُذًا ولا وِرْلًا وَلَا تَصِيدُوا، لأنها بلادُ أفاعٍ، وأكثر ما يجتلبُ أصحابُ صنعة الترياق والحوأؤون الأفاعي من سجستان، وذلك كَسَبُ لهم وجرقةً ومَتَجِرٌ، ولولا كَثْرَةُ قنافِذِها لما كان لهم بها قرارٌ.

أكل القنفذ للحية

والقنفذُ لا يبالي أيِّ موضع قبضَ من الأفعى، وذلك أنه إن قبض على رأسها أو على قفاها فهي مأكولةٌ على أسهل الوجوه، وإن قبضَ على وسطها أو على ذنبها، جذبَ ما قبض عليه، فاستدار وتجمَّع، ومنحه سائرَ بدنه، فمتى فَتَحَتْ فاهَا لتقبضَ على شيء منه، لم تصلُ إلى جلده مع شوكةِ النَّابِتِ فيه، والأفعى تهربُ منه، وطلبةُ لها وجرأتهُ عليها، على حَسَبِ هربها منه وضغفها عنه. أمثال في الحية والورل والصبِّ وأما قولهم: أضل من حية؛ وأضلُّ من وِرْلٍ؛ وأضلُّ من صبِّ، فأما الحية فإنها لا تتخذ

لنفسها بيتاً، والمدكّر لا يقيم في الموضع، وإنما يقيم على
بيضها بقدر ما تخرج فراخها وتقوى على الكسب والتماس
الطعم، ثم تصير الأنثى سيّارةً، فمتى وجدت جحراً دخلت
واثقةً بأنّ السّاكنَ فيه بين أمرين: إمّا أقام فصار طُعماً لها،
وإمّا هرب فصار البيثُ لها ما أقامت فيه ساعةً، كان ذلك من
ليلٍ أو نهار.

بيض الحيات

وقد رأيتُ بيض الحيات وكسرئها لأتعرّف ما فيها، فإذا هو
بيضٌ مستطيلٌ أكدرُ اللون أخضر، وفي بعضه تمشُّ ولَمْعٌ،
فأمّا داخله فلم أرَ قيحاً قطُّ، ولا صديدًا خرَجَ من جرحٍ فاسدٍ،
إلّا والذي في بيضها أسمعُ منه وأقدر، ويزعمون أنها كثيرةُ
البيض جداً، وأنّ السلامة في بيضها على دون ذلك، وأنّ
بيضها يكون منصّداً في جوفها طويلاً على غرار واحد، وعلى
خيطة واحد، وهي طويلة البطن والأرحام، وعددُ أضلاعها عددُ
أيام الشهر، وكان ذلك بعض ما زاد في شدّة بدنّها.

أكثر الحيوان نسلًا والخلق الكثير الدرء الدجاج، والضبُّ أكثر بيضاً من الدجاجة، والخنزيرة تضع عشرين خنوصاً. ويخرج من أجواف العقارب عقاربٌ صغائرٌ، كثيرة العدد جدًّا، وعامة العقارب إذا حيلت كان حنْفُها في ولادها، لأنَّ أولادها إذا استوى خلْقُها أكلت بطون الأمهات حتى تثقبها، وتكون الولادة من ذلك الثقب، فتخرج والأمهات ميتة. وأكثر من ذلك كله ذرء السمك، لأنَّ الإنسان لو رَعَم أن بيضة واحدة من بعض الأسبور عشرة آلاف بيضة، لكان ذلك لعظم ما تحمل، وليدقة حبه وصغره، ولكن يعتريها أمران: أحدهما الفساد، والآخر أنَّ الذكورة في أوان ولادة الإناث تتبع أذنانها، فكلمًا زحرت بشيء التقمُّته والتهمُّته. ثمَّ السمك بعد ذلك في الجملة إنما طبعها أن يأكل بعضها بعضًا.

علة كثرة الأولاد ويزعمون أن الكثرة في الأولاد إنما تكون من العفن واللخن، وعلى قدر كثرة المائيَّة وقلَّتها، فذهبوا

إلى أن أرحامَ الرُّومِيَّاتِ والنَّصْرانيَّاتِ أَكْثَرُ لَخْنًا ورُطوبَةً، لأنَّ
عَسَلَ الفُرُوجِ بالماءِ الباردِ مرارًا في اليومِ، ممَّا يطيبُ
الأرحامَ، وينفي اللِّخْنَ والعَفْنَ، ويزعمون أنَّ المرأةَ إذا كان
فرجُها نظيفاً، وكانت مُعَطَّرَةً قويَّة المُنَّةِ قَلَّ حملُها، فإنَّ
أفرطَتْ في السَّمَنِ عادتْ عاقراً، وسِمانُ الرِّجالِ لا يكاد
يعتريهم ذلك.

وكذلك العاقر من إناث الإبل والبقر والغنم والنَّخْلِ، إذا قويت
النَّخلة وكانت شابَّةً، وسَمِنَ جُمَارُها، صارتْ عاقراً لا تحملُ،
فيحتالون عند ذلك بإدخال الوهن عليها.
اعتراض على التعليل السابق وقد طعن في ذلك ناسٌ فقالوا:
إنَّ في الصَّبِّ على خلاف ما ذكرتم، قد تبيضُ الأنثى سبعين
بيضةً فيها سبعون حِسْلاً، ولولا أنَّ الصَّبَّ يأكلُ ولدَه لانتفشَّت
الصحارى ضباباً، والضب لا يحفر إلاَّ في كُدْيَةٍ وفي بلادِ
العَرَادِ، وإذا هرمت تبلَّغَتْ بالنَّسيمِ، وهذا كله ممَّا يستدلُّ به
على بُغْدِ طبعها من اللِّخَنِ والعَفَنِ.

وقيل لهم: قد يمكنُ أن يكون ذلك كذلك في جميع صفاتها إلاَّ في أرحامها فقط.

سفاد الحيات

وليس للحياتِ سفادٌ معروفٌ يَنْتَهي إليه علمٌ، ويقف عليه عيان، وليس عند الناس في ذلك إلاَّ الذي يَرَوْنَ من ملاقة الحية للحية، والتواءِ كلِّ منهما على صاحبه، حتى كأنهما زوج خيزرانٍ مفتولٍ، أو خَلْخَالٌ مفتولٌ، فأَمَّا أن يقفوا على عضوٍ يَدْخُلُ أو فَرَجٍ يَدْخُلُ فِيهِ فَلَا. شعر في الأيم والجرادة الذكر والعرب تذكُر الحياتِ بأسمائها وأجناسها، فإذا قالوا: أَيْم، فإنما يريدون الذَّكَرَ دونَ الأنثى، ويذكرونه عِنْدَ جودَةِ الانسيابِ، وَخِفَّةِ البدنِ، كما تذكُر الشُّعراء في صفة الخيل الجرادةَ المذَّكَرَ، دُونَ الأنثى، فهم وإن ألْحَقُوا لها فإنما يريدون الذَّكَرَ، قال يَشْرُ بن أبي خازم :

هَبْوَةٌ فِيهَا اصْفَرَّ

لأنّ الأنثى لا تكون صفراء، وإنما الموصوفُ بالصُّفْرَةَ الذَّكَر، لأنّ الأنثى تكون بين حالتين: إمّا أن تكون حُبلى ببيضها فهي مُثْقَلَة، وإمّا أن تكون قد سرأت وقدّفت بيضها، فهي أضعفُ ما تكون. قال الشاعر:

أَتَذْهَبُ سَلَمَى فِي اللَّمَامِ وَفِي اللَّيْلِ أَيُّمٌ حَيْثُ شَاءَ
تُرَى

آثار الحيات والعطاء في الرمال

وإذا انسابت في الكُتبانِ والرَّمَلِ، يبيّنُ مواضعَ مَرَاجِفِهَا، وعُرِفَتْ آثارُهَا. وقال آخر:

مَرَاجِفَ الْحَيَّاتِ فِيهَا قُبَيْلَ الصُّبْحِ آثَارُ السَّيَاطِ
وكذلك يعرفون آثار العطاء، وأنشد ابن الأعرابي:

ضَرْبُ أَذْنَابِ الْعِطَاءِ مَلَاعِبٌ وَلِدَانٍ تَخَطُّ وَتَمصَعُ

وقال الآخر، وهو يصف حيات:

مَرَاجِفِهَا أَنْسَعُ جُرْرَنَ فُرَادَى وَمَثْنَاتِهَا
وقال ثمامة الكلبي:

مَرَاجِفَ الْهَزَلَى صَبَاحًا حُدُودُ رَصَائِعِ جُدَلَتْ تَوَامَا
والهزلى من الحيات، قال جرير أو غيره:

ذَاتِ أَصْفَاءٍ سُهُوبٍ مَرَاجِفُ هَزَلَى بَيْنَهَا مَتَاعِدُ

وقال بعضُ المحدثين، وذكر حال البرامكة كيف كانت، وإلى أيّ شيءٍ صارت:

نَظَرْتُ إِلَى التُّرَى قُلْتُ: الشَّجَاعُ ثَوِي بِهَا
بِعَرَاصِمِهِمْ
وقال البعيث:

حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهِيَ صَفِيحَةٌ بَيْنَ اللَّضْيَافَةِ أَرْشَمَا
مُدَامِنُ جَوْعَاتٍ كَأَنَّ عَرُوقَهُ مَسَارِبُ حَيَّاتٍ تَسْرَبُنُ

سَمَسَمَا

روعة جلد الحية

ولا ثوب، ولا جناح، ولا سِنَّر عنكبوت، إلا وَقَشْرُ الحَيَّةِ أَحْسَنُ منه وأرقُّ، وأخفُّ وَأَنْعَمُ، وأعجبُ
ص_____ نعةً وتركيباً

ولذلك وصف كُتَيْبٌ قميص ملكٍ، فشَبَّهه بِسَلْحِ الحَيَّةِ، حيث يقول:

أَفَادَ المَالَ أودَى بِفَضْلِهِ
حقوق، فَكَّرَهُ العاذلاتِ سِرْبَالاً عَلَيْهِ كَأَنَّهُ
يُوافِقُهُ سَبِيءٌ لَهَزَلَى لَمْ تُقَطَّعْ
شَرَانِقُهُ

والسَّبِيءُ: السَّلْحُ والجلد، قال الشاعر:

نصل الأظفار وانسباً الجلدُ

صمم النعام والأفعى

وتزعمُ العربُ أَنَّ النَّعَامَ والأفعى صُمُّ لا تسمع، وكذلك هما من بين جميع الخَلْقِ، وسندكُرُ من ذلك
في هذا الموضوع طرفاً، ونؤخر الباقي إلى الموضوع الذي نذكر فيه جملة القول في النَّعَامِ، أصحاب
الدعوى الكبيرة وقد ابْتُلِينَا بصَرَّيين من الناس، ودعواهما كبيرة، أحدهما يبلغ من حبه للغرائب أن
يجعل سمعه هدفاً لتوليد الكذابين، وقلبه قراراً لغرائب الزُّور، ولكَلْفِهِ بالغريب، وشَعْفِهِ بالطَّرْفِ، لا
يقفُ على النَّصْحِ والتمييز، فهو يدخل الغتَّ في السمين، والممكن في الممتنع، ويتعلَّقُ بأدنى
سببٍ ثَمَّ يدفع عنه كـ_____ الـ_____ دفع.
والصَّنْفُ الآخر، وهو أَنَّ بعضهم يرى أَنَّ ذلك لا يكون منه عُنْدَ من يسمعه يتكلم إلا من خاف التقرُّز
م_____ الك_____ ذب.

قول في صمم الأفعى وعماه فزعم ناسٌ أَنَّ الدَّلِيلَ على أَنَّ الأفاعي صُمُّ، قولُ الشاعر:

نضناضاً من الحياتِ أصمَّ لا يَسْمَعُ للرُّقاةِ

قد ذكروا بالصَّممِ أجناساً من خبيثات الحيات، وذهبوا إلى امتناعها من الخروج عند رُقية الرَّاقِي عند رأس الجُحْرِ، فقال بعضهم:

قَرَّتَيْنِ مِنَ الْأَفَاعِي صَمَّاءُ لَا تَسْمَعُ صَوْتِ
الدَّاعِي

ويزعمون أنّ كلَّ تَصْنَاضٍ أفعَى، وقال آخر:

حَتَشٍ لَا يُجِيبُ الرَّقَاةَ قَشَ ذِي حُمَةٍ كَالرِّشَا
سَمِيعٍ طَوِيلِ السُّبَا مُنْهَرَتِ الشَّدَقِ عَارِي
النِّسَا

فزعم أنّه أصمُّ سميعٌ، فجاز له أن يجعله أصمَّ بقوله: وَمِنْ حَتَشٍ لَا يُجِيبُ الرَّقَاةَ وقال الآخر:

أَعْمَى لَا يُجِيبُ الرَّقَى يَفْتَرُّ عَنْ عَصَلِ حَدِيدَاتِ
والأفعَى ليس بأعمى، وعينه لا تنطبق، وإنَّ قُلِعَتْ عينُه عادت، وهو قائمٌ آلَعَيْنِ كَعَيْنِ الجرادِ، كأنها مسمأٌ مضروب، ولها بالليل شُعاع خفيٌّ، قال الرَّاعِي يصفُ الأفعَى:

ذِرَاعِيهِ إِذَا مَا تَبَادَرَا رَأْسِ صِلِّ قَائِمِ الْعَيْنِ
أَسْفَعِ

وهذه صفةُ سَلِيمِ الأفعَى، فيجوز أن يكون الشاعِرُ وصفها بالتمنع من الخروج بالصَّممِ، كما وصفها بـ العَمَى، لمكان الشُّبَابِ وطُولِ الإطراق.

قال الشاعِرُ:

سَمِيعِ طَوِيلِ السُّبُهَاتِ الشَّدَقِ عَارِي الْقَرَا

وقال آخر:

منهَرَتِ الشَّدَقِ رَفُودِ سَارِ طَمُورٍ بِالذُّجْنَاتِ
الصُّحَى

تَحْسَبُهُ مَيِّتاً مِنْ طُولِ إِطْرَاقِ
وَإِخْبَاتِ

يُسَبِّتُهُ الصُّبْحُ وَطَوْرًا لَهُ وَنَفْتُ فِي الْمَغَارَاتِ
أَنَّهُ وَصَفَ أفعَى

بقوله:

أعمى لا يُجيبُ الرُّقى
مُنَهَرَتِ الشَّدَقِ رَقُودِ
الصُّحَى "الخ"

ثم ذكر أنيابه، فقال:

وَاسْتَأْخَرَا
عَنْ ضِرْسِيهِ
إِلَى صَمَاحِينَ وَلَهَوَاتِ

فجعله أعصل الأنياب، منهرت الأُشْدَاق، ثم وصفها بالشُّبَاتِ وطولِ الإطْرَاقِ، وبِسُرْعَةِ النَّسْطَةِ،
وَحَقْفَةِ الحِرْكَةِ، إذا هَمَّتْ بِذَلِكَ وَكَلِمَاتٍ تَعْظُمُ.
شعر امرأة جمع صفة الحية وقد وصفتها امرأة جاهليَّةُ بجميع هذه الصِّفَةِ، إلا أنها زادت شيئاً،
والشُّعْرُ صحيح، وليس في أيدي أصحابنا مِنْ صِفَةِ الأَفْعَى مثلها.
وقد رأيتُ عند داودَ بنِ مُحَمَّدِ الهاشميِّ كتاباً في الحَيَّاتِ، أكثر من عشرة أجلادٍ، ما يصحُّ منها مقدارُ
جِلْدٍ وَنَصْفٍ.
ولقد ولَّدُوا على لسانِ خَلْفِ الأَحْمَرِ، والأصمعيِّ، أرجازاً كثيرة، فما طُنُّكَ بتوليدهم على ألسنة
القُـ
ولقد ولَّدُوا على لسانِ جَحْشَوَيْهِ في الحلاقِ أشعاراً ما قالها جَحْشَوَيْهِ قط، فلو تَقَدَّرُوا من شيءٍ
تَقَدَّرُوا مِنْ هَذَا البَابِ.
والشُّعْرُ الذي في الأفعى:

كَادَ يَقْتُلْنِي أَصْمٌ
مُرَقَّشٌ
مِنْ حُبِّكُمْ وَالخَطْبُ غَيْرُ
كَبِيرٍ
كَالْقُرْصِ فُلُطِحَ مِنْ دَقِيقِ
شَعِيرِ
لَهَا زِمُّهُ عَزِينِ
وَأَسُّهُ
عَيْنًا لِلْوَقَاعِ كَأَنَّهَا سَمْرَاءُ طَاحَتْ مِنْ نَفِيضِ
بَرِيرِ
مَلَقَاهُ بِكُلِّ تَنُوقَةٍ كَفَّةً مُنْخَلِ مَاطُورِ
شِدْقِيهِ إِذَا
شِدْقًا عَجُوزِ مَضْمَصَتْ
لِطُهُورِ
اسْتَعْرَضَتْهُ

فقد زعمت كما ترى أنها تدبر عيناً، وزعم الأول أنها قائمة العين، إلا أن تزعم أنها لم تُرد بالإدارة أن مقلتها تزول عن موضعها، ولكنها أرادت أنها جواله في إدراك الأشخاص، البعيدة والقريبة، والمتيامن والمتياسرة والمتمياسرة. وقد يجوز أن يكون إنما جعلها سمياً لدقة الجس، وكثرة الاكترات وجودة الشم، لا جودة السمع؛ فإن الذين زعموا أن النعام صماء زعموا أنها تُدرِك من جهة الشم والعين، جميع الأمور التي كانت تعرفها من قبل السمع لو كانت سمياً، وقد قال الشاعر في صفة الحية:

إلى الصّوت والظلماء عرّدت السَّيْلَ لاقى الحَيْدَ فأطلّعا

هذا بعد أن قال:

وما تبتغي مني كملتمس
صيداً وما نال منه الرّي والشبعا

إلى باب جحر في العسيب ترى في رأسه
مقدمه أربد والأنياب
شبكة ترى السم يجري بينها
قطة ما شم من خضراء
أبيسها أو شم من حجر أوهاه
فأنصدعا

فقد جعل لها أنياباً عُصلاً، ووصفها بغاية الخُبث، وزعم أنها تسامع، فهؤلاء ثلاثة شعراء.

الثقة بالعلماء فإن قلت: إن المولّد لا يؤمن عليه الخطأ، إذ كان دخيلاً في ذلك الأمر، وليس كالأعرابي الذي إنما يحكي الموجود الظاهر له، الذي عليه تشأ، وبمعرفة غذي، فالعلماء

الذين اتَّسَعُوا فِي عِلْمِ الْعَرَبِ، حَتَّى صَارُوا إِذَا أَخْبَرُوا عَنْهُمْ
بِخَبْرٍ كَانُوا التُّقَاتِ فِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ، هُمُ الَّذِينَ نَقَلُوا إِلَيْنَا،
وَسِوَاءُ عَلَيْنَا جَعْلُوهُ كَلَاماً وَحَدِيثاً مَثُوراً، أَوْ جَعْلُوهُ رَجْزاً
وَقِصَّةً مَوْزُوناً.

وَمَتَّى أَخْبَرَنِي بَعْضُ هَؤُلَاءِ بِخَبْرٍ لَمْ أُسْتَضْهِزْ عَلَيْهِ بِمَسْأَلَةِ
الْأَعْرَابِ، وَلَكِنَّهُ إِنْ تَكَلَّمَ وَتَحَدَّثَ، فَأَنْكَرْتُ فِي كَلَامِهِ بَعْضَ
الْإِعْرَابِ، لَمْ أَجْعَلْ ذَلِكَ قُدْوَةً حَتَّى أُوقِفَهُ عَلَيْهِ، لِأَنَّهُ مَمَّنٌ لَا
يُؤْمِنُ عَلَيْهِ اللَّحْنُ الْخَفِيُّ قَبْلَ التَّفَكُّرِ، فَهَذَا وَمَا أَشْبَهُهُ حِكْمَةٌ
خِلَافُ الْأَوَّلِ.

الرُّقِيَّةُ وَالرُّقِيَّةُ تَكُونُ عَلَى صُرُوبٍ: فَمِنْهَا الَّذِي يَدَّعِيهِ الْحَوَّاءُ
وَالرَّفَاءُ؛ وَذَلِكَ يُشْبِهُ بِالَّذِي يَدَّعِي نَاسٌ مِنَ الْعَزَائِمِ عَلَى
الشَّيَاطِينِ وَالْجِنِّ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ يَزْعَمُونَ أَنَّ فِي تِلْكَ الرُّقِيَّةِ
عَزِيمَةٌ لَا يَمْتَنِعُ مِنْهَا الشَّيْطَانُ، فَكَيْفَ الْعَامِرُ؟ وَأَنَّ الْعَامِرَ إِذَا
سُئِلَ بِهَا أَجَابَ، فَيَكُونُ هُوَ الَّذِي يَتَوَلَّى إِخْرَاجَ الْحَيَاتِ مِنَ
الصَّخْرِ، فَإِنْ كَانَ الْأَمْرُ عَلَى مَا قَالُوا فَمَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ بَيْنَ

خروج الأفاعي الصم.
وغيرها فرق، إذا كانت العزائم والرقي والتفت ليس شيئاً
يعمل في نفس الحية، وإنما هو شيء يعمل في المذي يخرج
الحيّة، وإذا كان ذلك كذلك فالسميع والأصم فيه سواء.
وكذلك يقولون في التّحبيب والتّبغيض، وفي النّشرة وحلّ
العُقود، وفي التّعقيد والتحليل.
العزيمة ويزعمون أنّ الجن لا تجيب صاحب العزيمة حتى
يتوّحّش ويأتي الخرابات والبراري، ولا يأنس بالناس، ويتشبهه
بالجنّ، ويغسل بالماء القراح، ويتبخّر باللّبان الذّكر، ويراعي
المشتري فإذا دقّ ولطّف، وتوّحّش وعزم، أجابته الجنّ، وذلك
بعد أن يكون بدنه يصلح هيكلًا لها، وحتى يلدّ دخوله وادي
منازلها، وألّا يكره ملابسته والكؤن فيه، فإنّ هو ألحّ عليها
بالعزائم، ولم يأخذ لذلك أهبتها خبلته، وربّما قتلته، لأنها تظنّ
أنّه متى توّحّش لها، واحتمى، وتتنظف فقد فرغ، وهي لا تجيب
بذلك فقط، حتى يكون المعرّم مشاكلاً لها في الطّباع.

فيزعمون أنّ الحياتِ إنما تُخْرَجُ إخراجاً، وأنّ الذي يخرجها هو الذي يخرج سمومها من أجساد الناس، إذا عَزَمَ عليها.
التعويد والرُّقِيَّة الأخرى بما يُعْرَفُ من التعويد، قال أبو عُبيدَةَ: سَمِعْتُ أَعْرَابِيًّا يَقُولُ: قَدْ جَاءَكُمْ أَحَدُكُمْ يَسْتَرْقِيكُمْ فَارْزُقُوهُ، قَالَ: فَعَوَّذُوهُ بِنِعْمَةِ الْعَوَائِدِ.
والوجه الآخر مشتقٌّ من هذا ومحمولٌ عَلَيْهِ، كالرَّجُلِ يَقُولُ: مَا زَالَ فُلَانٌ يَرْقِي فُلَانًا حَتَّى لَانَ وَأَجَابَ.

رقى الحيات

وقد قالت الشعراء في الجاهليَّة والإسلام في رقى الحيات، وكانوا يؤمنون بذلك ويصدقون به، وسنخبر بأقوال المتكلمين في ذلك، وبالله التوفيق.
ومنهم من زعم أنّ إخراج الحية من جحرها إلى الرّاقى، إنما كان للعزيمة والإقسام عليها، ولأنّها إذا فهمت ذلك أجابت وأبته وتمتنع.
وكان أميَّة بن أبي الصلت، لا يعرف قولهم في أنّ العَمَّار هم الذين يُجيبون العزائم بإخراج الحيات من بيوتها، وفي ذلك يقول :

والحياة الذكر الرقشاء من جحرها أمّات الله
أخرجها والقسم
دعا باسمها الإنسان أوذات الإله بدا في مشيها
سمعت
رزم
خلفها حمة لولا الذي قد كان ثبتها في جحرها

سمعت
حديداً وكفٌ غيرِ والخلقُ مختلفٌ في القول
والشيم
الحمم

لنافثٍ يعتديه الله والكلم

دعين
بأسماء
أجبن

مخافة ربِّ كان عرجاء تظلع في أنيابها
عذبتها
بلته فذاقت بعض فليس في سمعها، من
مصدقه رهبة صمم
يأمنها أم كيف وليس بينهما قربي ولا
تألفه رحم

يقول: لو أنّها أخرجت حين اسْتُخْلِفتُ بالله لما خرجت،

إذ ليس بينهما قُربي ولا رَجِم، ثمَّ ذكر الحُمَّة والنَّاب.

وقال آخرون: إنما الحيّة مثل الضبِّ والضَّبِيع، إذا سمع

بالله والهدْم والَصَّوت خرج ينظر، والحوّاء إذا دنا من

الجُحر رفع صوته وصفَّقَ بيديه، وأكثر من ذلك، حتى

يخرج الحيّة، كما يُخرَج الضبُّ والضَّبِيع.

وقال كثيرٌ:

وَسَوْدَاءٌ مِطْرَاقٌ إِلَيَّ مِنْ إِذَا الْحَاوِي دَنَا فَصَدَا لَهَا

والتَّصْدِيَةُ، التَّصْفِيقُ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: "وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً" الْآيَةُ، فَالْمُكَاءُ: صَوْتُ بَيْنِ النَّفْخِ وَالصَّفِيرِ، وَالتَّصْدِيَةُ: تَصْفِيقُ الْيَدِ بِالْيَدِ، فَكَانَ الْحَوَاءُ يَحْتَالُ بِذَلِكَ لِلْحَيَّةِ، وَيُوهِمُ مَنْ حَضَرَ أَنَّهَ بِالرُّقِيَّةِ أَخْرَجَهَا، وَهُوَ فِي ذَلِكَ يَتَكَلَّمُ وَيَعْرِضُ، إِلَّا أَنَّ ذَلِكَ صَوْتُ رَفِيعٍ، وَهُوَ لَوْ رَفَعَ صَوْتَهُ بَيْتِ شَعْرٍ أَوْ بَحْرَافَةٍ، لَكَانَ ذَلِكَ وَالَّذِي يَظْهَرُ مِنَ الْعَزِيمَةِ عِنْدَ الْحَيَّةِ سَوَاءً، وَإِنَّمَا يَنْكُرُ الصَّوْتِ، كَمَا يَنْكُرُهُ الصَّبُّ وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنَ الْوَحْشِ.

كَفَفْتُ يَدًا عَنْهَا وَأَرْضَيْتُ الْقَوْلَ حَتَّى صَدَّقَتْ مَا
سَمِعَهَا وَعَى لَهَا
وَأَشْعَرْتَهَا نَفْثًا بَلِيغًا فَلَوْ وَقَدِ جَعَلْتَ أَنْ تَرَعَنِي
النَّفْثَ بِهَا
تَسَلَّلْتُهَا مِنْ حَيْثُ أَدْرَكَهَا إِلَى الْكَفِّ لَمَا سَالَمْتَ
الرَّقِيَّ وَانْسَلَلَهَا

فَقَالَ كَمَا تَرَى: كَفَفْتُ يَدًا عَنْهَا وَأَرْضَيْتُ سَمْعَهَا ثُمَّ قَالَ:

وَأَشْعَرْتَهَا نَفْثًا بَلِيغًا فَلَوْ تَرَى
الْأَعْشَى:

مِسْمَعٍ إِنِّي أَمْرٌ مِنْ لِيَّ عِزًّا مَوْثُهَا وَحِيَاثُهَا
تُلْمِسِ الْأَفْعَى يَدِيكَ إِذَا مَا سَعَتْ يَوْمًا إِلَيْهَا
تَرِيدُهَا سَفَاثُهَا
آخِرُ:

بِهِ الْحَيَّةُ فِي أَقْطَارِهَا مِنْ أَبِي شَمٍّ سَفَا وَجَارِهِ

وَالسَّفَا: السَّرَابُ الْيَابِسُ بَيْنَ السَّرَابَيْنِ، يُقَالُ سَفَا سَفَاً وَسَفَاةً. تَمُوتُ الْحَوَاءُ وَالرَّاقِي وَالْحَوَاءُ وَالرَّاقِي يُرِي النَّاسَ أَنَّهُ إِذَا رَأَى جَحْرًا لَمْ يَخَفْ عَلَيْهِ: أَجْحَرُ حَيَّةٌ هُوَ أَمْ جُحْرُ شَيْءٍ غَيْرِهِ، فَإِنْ كَانَ جُحْرَ حَيَّةٍ لَمْ يَخَفْ عَلَيْهِ أَهِيَ فِيهِ أَمْ لَا، ثُمَّ إِذَا رَقِيَ وَعَزَّمْ فَا مَنَعَتْ مِنَ الْخُرُوجِ، وَخَافَ أَنْ تَكُونَ أَفْعَى صَمَاءً لَا تَسْمَعُ، وَإِذَا أَرَاغَهَا لِأَخْذِهَا فَأَخْطَأَ، لَمْ يَأْمَنْ

من أن تنقره تَفْرَةً؛ لا يُفْلِحُ بعدها أبداً، فهو عند ذلك يستبيري بأن يشمَّ من تراب الجُحر، فلا يخفى عَلَيَّ: أهي أفعى أم حَيَّةٌ من سائر الحيات، فلذلك قال:

به الحية في أقطاره والوجار: الجُحر.

ريح الأفعى

وزعم لي بَعْضُ الحَوَائِينِ أَنَّ لِلحَيَّاتِ تَنَنًا وَسَهْكَأً، وَأَنَّ رِيحَ
الأَفْعَى مَعْرُوفَةٌ، وَلَيْسَ شَيْءٌ أَغْلَقَ، وَلَا أَعْتَقَ، وَلَا أَسْرَعَ
لرَائِحَةٍ مِنْ طِينِ أَوْ تَرَابِ، وَأَنَّه إِذَا شَمَّ مِنْ طِينَةِ
الجُحْرِ لَمْ يَخْفَ عَلَيْهِ، وَقَالَ: اعْتَبِرْ ذَلِكَ بِهَذَا الطِينِ
السَّدَانِيِّ وَالرَّاهِطِيِّ إِذَا أُلْقِيَ فِي الزَّعْفَرَانِ وَالْكَافُورِ، أَوْ
ذَلِكَ مِنَ الطَّيِّبِ، فَإِنَّهُ مَتَى وُضِعَ إِلَى جَنْبِ رَوْثَةٍ أَوْ
عَدْرَةٍ، قَبِلَ ذَلِكَ الْجِسْمَ، وَالرَّقَاءَ يُوهِمُ النَّاسَ إِذَا دَخَلَ
دُورَهُمْ لِاسْتِخْرَاجِ الحَيَّاتِ أَنَّهُ يَعْرِفُ أَمَاكِنَهَا بِرَائِحَتِهَا،
فَلِذَلِكَ يَأْخُذُ قِصْبَةً وَيَشْعَبُ رَأْسَهَا، ثُمَّ يَطْعُنُ بِهَا فِي سَقْفِ
وَالرَّوَايَا، ثُمَّ يَشْمُهَا وَيَقُولُ مَرَّةً: فِيهَا حَيَّاتٌ؛ وَيَقُولُ
مَرَّةً: بَلَى فِيهَا حَيَّاتٌ، عَلَى قَدْرِ الطَّمَعِ فِي الْقَوْمِ، وَفِي

الأصوات

وَأَمْرُ الصَّوْتِ عَجِيبٌ، وَتَصَرُّفُهُ فِي الْوَجْهِ عَجَبٌ، فَمَنْ ذَلِكَ
 أَنْ مِنْهُ مَا يَقْتُلُ، كَصَوْتِ الصَّاعِقَةِ، وَمِنْهَا مَا يَسْرُِّ النَّفْسَ
 حَتَّى يُفْرِطَ عَلَيْهَا السُّرُورُ؛ فَتَقَلِّقَ حَتَّى تَرُقُصَ، وَحَتَّى رُبَّمَا
 رَمَى الرَّجُلُ بِنَفْسِهِ مِنْ حَالِقٍ، وَذَلِكَ مِثْلُ هَذِهِ الْأَغَانِي
 الْمَطْرِبَةِ، وَمَنْ ذَلِكَ مَا يُكْمَدُ، وَمَنْ ذَلِكَ مَا يَزِيلُ الْعُقْلَ حَتَّى
 يُغَشَى عَلَى صَاحِبِهِ، كَنَحْوِ هَذِهِ الْأَصْوَاتِ الشَّجِيئَةِ، وَالْقِرَاءَاتِ
 الْمَلْحَنَةِ، وَلَيْسَ يَعْتَرِيهِمْ ذَلِكَ مِنْ قِبَلِ الْمَعْنَى؛ لِأَنَّهُمْ فِي كَثِيرٍ
 مِنْ ذَلِكَ لَا يَفْهَمُونَ مَعْنَى كَلَامِهِمْ، وَقَدْ بَكَى مَا سَرَّجُوهُ مِنْ
 قِرَاءَةِ أَبِي الْخَوْخِ، فَقِيلَ لَهُ: كَيْفَ بَكَيْتَ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَلَا
 تَصَدِّقُ بِهِ؟ قَالَ: إِنَّمَا أَبْكَانِي الشَّجَا.

وبالأصوات ينومون الصبيان والأطفال.
أثر الصوت في الحيوان والدواب تصرُّ آذانها إذا غنى
المكاري، والإبل تصرُّ آذانها إذا حدا في آثارها الحادي، وتزداد
نشاطاً، وتزيد في مشيها، ويجمع بها الصيادون السمك في
حظائرهم التي يتخذونها له، وذلك أنهم يضربون بعصي معهم،
ويعططون، فتقبل أجناس السمك شاخصة الأبصار مصغية
إلى تلك الأصوات، حتى تدخل في الحظيرة ويضرب
بالطساس للطير، وتصاد بها، ويضرب بالطساس للأسد وقد
أقبلت، فتروغها تلك الأصوات.
وقال صاحب المنطق: الأيايل تُصَاد بالصفير والغناء، وهي لا
تنام مادامت تسمع ذلك من حاذق الصوت، فيشغلونها بذلك
ويأثون من خلفها فإن رأوها مسترخية الآذان وثبوا عليها، وإن
كانت قائمة الأذنين فليس إليها سبيل.
والصفير تُسقى به الدواب الماء، وتنقر به الطير عن البذور.
وزعم صاحب المنطق أن الرعد الشديد إذا وافق سباحة

السَّمَكُ فِي أَعْلَى الْمَاءِ رَمَتْ بِيضُهَا قَبْلَ انْتِهَاءِ الْأَجْلِ، وَرَبَّمَا
تَمَّ الْأَجْلَ فَتَسْمَعُ الرَّعْدَ الشَّدِيدَ، فَيَتَعَطَّلُ عَلَيْهَا أَيَّامًا بَعْدَ
الْوَقْتِ.

قول لأبي الوجيه العكلي

وقال أبو الوجيه العُكْلِيُّ: أَحِبُّ السَّحَابَةَ الْخَرَسَاءَ وَلَا أُجِبُّهَا
فَقِيلَ لَهُ: وَكَيْفَ ذَلِكَ؟ قَالَ: لِأَنَّهَا لَا تَخْرَسُ حَتَّى تَمْتَلِيَّ مَاءً
وَتَصُبُّ صَبًّا كَثِيرًا، وَيَكُونُ غَيْثًا طَبَقًا، وَفِي ذَلِكَ الْحَيَا، إِلَّا أَنَّ
الْكَمَاءَ لَا تَكُونُ عَلَى قَدْرِ الْغَيْثِ، ذَهَبَ إِلَى أَنَّ لِلرَّعْدِ فِي
الْكَمَاءِ عَمَلًا.

دعابة لجعفر بن سعيد

وقال جعفر بن سعيد: سأل كسرى عن الكَمَاءِ فَقِيلَ لَهُ: لَا
تَكُونُ بِالْمَطَرِ دُونَ الرَّعْدِ، وَلَا بِالرَّعْدِ دُونَ الْمَطَرِ، قَالَ: فَقَالَ
كسرى: رَشُّوا بِالْمَاءِ وَاضْرِبُوا بِالطَّبُولِ وَكَانَ مِنْ جَعْفَرِ عَلِيٍّ
التَّمْلِيحِ، وَقَدْ عَلِمَ جَعْفَرٌ أَنَّ كَسْرَى لَا يَجْهَلُ هَذَا الْمَقْدَارَ.

أثر الصوت في الحية

فالحية واحدة من جميع أجناس الحيوان الذي للصوت في طبعه عمل، فإذا دنا الحوَاء وصفق بيديه، وتكلم رافعاً صوته حتى يزيّد، خرج إليه كلُّ شيء كان في الجحر، فلا يشكُّ من لا علم له أنّ من لا علم له أنّ الحية خرجت من جهة الطاعة وخوف المعصية، وأنّ العامر أخرجها تعظيماً للعزيمة، ولأنّ المعتزم مُطاع في العمار، والعامّة أسرع شيء إلى التصديق.

شعر في الروح وهيكلها

وفي الروح، وفي أنّ البدن هيكلٌ لها، يقول سليمانُ الأعمى؛ وكان أخا مسلم ابن الوليد الأنصاريّ، وكانوا لا يشكون بأنّ سليمانَ هذا الأعمى، كان من مُستجيبِي بشارِ الأعمى، وأنّه كان يختلف إليه وهو غلام فقبل عنه ذلك الدّين، وهو الذي يقول:

في ذَا الجِسمِ مُعْتَبَرًا لِطَلُوبِ العِلْمِ مُقْتَبِسُهُ
لِلرُّوحِ يَنْطَقُهُ عِرْقُهُ وَالصَّوْتُ مِنْ نَفْسِهِ
تَعْظُ إِلَّا اللَّيْبَ فَمَا يُعْدَلُ الصَّلْعُ عَلَى قَوْسِهِ
مَعْرُوسٍ يُعَاشُ بِهِ فَقَدْتُهُ كَفُّ مُعْتَرِسِهِ
وكَذَلِكَ الدَّهْرُ مَاتَمُهُ أَقْرَبُ الْأَشْيَاءِ مِنْ عُرْسِهِ

قول في شعر لأمية بن أبي الصلت

وكانت العربُ تقول: كان ذلك إذ كان كلُّ شيءٍ ينطق، وكان ذلك والحجارةُ رطبةً، قال أميةُ:

هم لا لبوس لهم تقيهم صم السلام لهم رطاب
قام ينطق كل شيءٍ ووخان أمانة الديك الغراب
وأرسلت الحمامة بعدتل على المهالك لا

تهاب

هل ترى في وعينة بها الماء
الأرض عيناً العباب

فجاءت بعد مار كضت عليها التأط والطين
بقطف الكباب

فرسوا الآيات لها طوقاً كما عقد
صاغوا السخاب

ماتت تورثه بنيها وإن تقتل فلي له
انسلاب

فذكر رطوبة الحجارة، وأن كل شيء قد كان ينطق، ثم

خبر عن منادمة الديك الغراب، واشترط الحمامة على نوح،

وغير ذلك مما يدل على ما قلنا، ثم ذكر الحية، وشأن

إبليس وشأنها، فقال:

الأفعى ترببها لده وذو الجنى أرسلها تساب
رب البرية يأمنها ولا الجنى أصبح يستتاب

فإن قلت: إن أمية كان أعرابياً، وكان بدوياً، وهذا من خرافات أعراب الجاهلية، وزعمت أن أمية

لم يأخذ ذلك عن أهل الكتاب فإني سأشيدك لعدي بن زيد، وكان نصرانياً ديناً، وتزجماً، وصاحب

كتب، وكان من دهاة أهل ذلك الدهر.

قال عدِيُّ بن زَيْدٍ، يذكُرُ شأنَ آدمَ ومَعْصِيَتِهِ، وكيفَ أَغْوَاهُ، وكيفَ دخلَ في الحِيةِ، وَأَنَّ الحِيةَ كانتَ في صورةِ جَمَلٍ فمسخها اللهُ عقوبةً لها، حينَ طاوَعَت عَدُوَّهُ على وِلْيَتِهِ، فقال :

قضى لسته أيامٍ خليقته	وكان آخرها أن صور الرجلا
آدم صوتاً فاستجاب له	بنفخة الروح في الجسم الذي جبلا
أورثه الفردوس يعمرها	وزوجه صنعةً من ضلعه جعلها
ينهه ربه عن غير واحدةٍ	شجرٍ طيب أن شم أو أكلا
فكانت الحية الرقشاء إذ خلقت	ترى ناقة في الخلق أو جملا
للتى عن أكلها	بأمر حواء لم تأخذ له الدغلا
كلاهما خاط إذ بزا لبوسهما	ورق التين ثوباً لم يكن غزلا
فلاطها الله إذ أغوت خليقته	الليالي ولم يجعل لها أجلا
تمشي على بطنها في الدهور عمرت	الترب تأكله حزنا وإن سهلا
أبوانا في حياتهما	وأوجدا الجوع والأوصاب والعللا
الملك والإنجيل نقرؤه	نشفى بحكمته أحلامنا عللا
غير ما حاجةٍ إلا ليجعلنا	فوق البرية أرباباً كما فعلا

عقاب حواء وآدم والحية

فَرَوُّوا أَنَّ كَعَبَ الْأَحْبَارِ قَالَ: مَكْتُوبٌ فِي التَّوَارَةِ أَنَّ حَوَّاءَ عِنْدَ ذَلِكَ عُوقِبَتْ بَعَشْرَ خِصَالٍ، وَأَنَّ آدَمَ لَمَّا أَطَاعَ حَوَّاءَ وَعَصَى رَبَّهُ عُوقِبَ بَعَشْرَ خِصَالٍ، وَأَنَّ الْحَيَّةَ الَّتِي دَخَلَ فِيهَا إِبْلِيسُ عُوقِبَ أَيْضًا بَعَشْرَ خِصَالٍ. وَأَوَّلُ خِصَالِ حَوَّاءَ الَّتِي عُوقِبَتْ بِهَا وَجَعُ الْاِفْتِضَاضِ، ثُمَّ الطَّلُقُ، ثُمَّ النَّزْعُ، ثُمَّ بَقْنَاعُ الرَّأْسِ، وَمَا يَصِيبُ الْوَحْمَى وَالنَّفْسَاءَ مِنَ الْمَكْرُوهِ، وَالْقَضْرُ فِي الْبُيُوتِ، وَالْحَيْضُ، وَأَنَّ الرِّجَالَ هُمُ الْقَوَّامُونَ عَلَيْهِنَّ، أَنْ تَكُونَ عِنْدَ الْجَمَاعِ هِيَ الْأَسْفَلُ.

وَأَمَّا خِصَالُ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: فَالَّذِي انْتَقَصَ مِنْ طَوْلِهِ، وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ يَخَافُ مِنَ الْهُوَامِّ وَالسَّبَّاعِ، وَنَكَدَ الْعَيْشِ، وَبِتَوَقُّعِ الْمَوْتِ، وَبِسُكْنَى الْأَرْضِ، وَبِالْعُرْيِ مِنْ ثِيَابِ الْجَنَّةِ، وَبِأَوْجَاعِ أَهْلِ الدُّنْيَا، وَبِمُقَاسَاةِ التَّحْفِظِ مِنْ إِبْلِيسَ، وَبِالْمَحَاسِبَةِ بِالطَّرْفِ، وَمَا شَاعَ عَلَيْهِ مِنْ اسْمِ الْعَصَاةِ، وَأَمَّا الْحَيَّةُ فَإِنَّهَا عُوقِبَتْ بِنَقْصِ جَنَاحِهَا، وَقَطْعِ أَرْجُلِهَا، وَالْمَشْيِ عَلَى بَطْنِهَا،

وبإعراء جلدها - حتى يقال: أَعْرَى مِنْ حَيَّةٍ وَبَشَقٌ لِسَانِهَا -
لذلك كلما خَافَتْ من القتل أخرجَتْ لسانها لترِيهم العُقوبة -
وبما أَلْقِي عليها من عَدَاوَةِ النَّاسِ، وبمخافة الناس، وبجعله
لها أَوَّلَ مَلْعُونٍ مِنَ اللَّحْمِ وَالِدَّمِّ، وبالذي يُنسب إليها من
الكذب والظلم.

ظلم الحية وكذبها

فأما الظلم فقولهم: أظلم من حَيَّةٍ وأما الكذب فإنها
تنطوي في الرَّمْلِ على الطَّرِيقِ وَتُدْخِلُ بَعْضَ جَسَدِهَا فِي
الرَّمْلِ، فتظهر كأنها طَبَقٌ خَيْرَانٍ، ومنها حَيَاتٌ بِيضٌ قِصَاؤُ
تجمعُ بين أطرافها على طُرُقِ النَّاسِ، وتستديرُ كأنها طَوَّقُ
أَوْ خَلْخَالٍ، أو سوارٍ ذهبٍ أو فضةٍ - ولما تلقي على نفسها
من السُّبَاتِ، ولما تُظهر من الهَرَبِ مِنَ النَّاسِ، وكلُّ ذلك
إِثْمًا تَغْرُهُمْ وَتَصْطَاذُهُمْ بتلك الحيلة، فذلك هو كِذْبُهَا.
عقاب الأرض قال: وَعُوقِبَتِ الْأَرْضُ حِينَ شَرِبَتْ دَمَ ابْنِ آدَمَ
بِعَشْرِ خِصَالٍ: أَنْبَتَ فِيهَا الشُّوكَ، وَصَيَّرَ فِيهَا الْفِيافِيَّ، وَخَرَقَ

فيها البحار، وملح أكثر مائها، وخلق فيها الهوامَّ والسَّباع،
وجعلها قراراً لإبليسَ والعاصين، وجعل جهنمَ فيها، وجعلها لا
تُربي ثمرتها، إلا في الحرِّ، وهي تعذب بهم إلى يوم القيامة،
وجعلها ثوطاً بالأخفافِ، والحوافرِ، والأظلافِ، والأقدامِ،
وجعلها ما لِحَسَّة الطَّعْمِ.

شراب الأرض للدم ثم لم تشرب بعد دم ابن آدم دم أحدٍ
من ولده، ولا من غير ولده، قال: ولذلك قال عمر بن
الخطاب رضي الله تعالى عنه لأبي مريم الحنفي: لَأَنَا أَشَدُّ
لَكَ بُغْضاً مِنَ الْأَرْضِ لِلدَّمِ.
وزعم صاحبُ المنطق أنَّ الأرض لا تشرب الدَّم، إلا يسيراً
من دمائها الإبل خاصَّة.

اختبار العسل وإذا أرادوا أن يمتحنوا جَوْدَةَ العسل من
رداءته، قَطَرُوا على الأرض منه قَطْرَةً، فإذا استدارت كأنها
قطعة زئبقٍ، ولم تأخذ من الأرض ولم تُعْطِهَا فهو الماذيُّ
الخالصُ الدَّهْبِيُّ، فإن كان فيه عُشوشةُ نفشت القطرة على

قدر ما فيها، وأَخَذَتْ مِنَ الْأَرْضِ وَأَعْطَتْهَا، وَإِنْ لَمْ يَقْدِرُوا
عَلَى اللَّحْمِ الْغَرِيضِ دَفَنُوهُ وَغَرَّقُوهُ فِي الْعَسَلِ، فَإِنَّهُمْ مَتَى
رَجَعُوا فغسلوه عنه وَجَدُّوهُ غَضًّا طَرِيًّا، لِأَنَّهُ ذَهَبِيُّ الطَّبَاعِ،
لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَائِرِ الْأَجْرَامِ شَيْءٌ، فَهُوَ لَا يُعْطِيهِ شَيْئًا وَلَا
يَأْخُذُ مِنْهُ. وَكَذَلِكَ الدَّهَبُ إِذَا كَانَ مَدْفُونًا.
زَمَنَ الْفَطْحِ وَهَذِهِ الْأَحَادِيثُ، وَهَذِهِ الْأَشْعَارُ، تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمْ
قَدْ كَانُوا يَقُولُونَ: إِنَّ الصُّخُورَ كَانَتْ رَطْبَةً لَيِّنَةً، وَإِنَّ كُلَّ
شَيْءٍ قَدْ كَانَ يَعْرِفُ وَيَنْطِقُ، وَإِنَّ الْأَشْجَارَ وَالنَّخْلَ لَمْ يَكُنْ
عَلَيْهَا شَوْكٌ، وَقَدْ قَالَ الْعَجَّاجُ، أَوْ رُؤْبَةُ:

عُمَرَ نُوحٍ زَمَنَ الْفِطْحِ وَالصَّخْرُ مُبْتَلًى كَطِينِ الْوَحْلِ

مرويات كعب الأحبار

وَأَنَا أَظُنُّ أَنَّ كَثِيرًا مِمَّا يُحْكَى عَنْ كَعْبٍ أَنَّهُ قَالَ: مَكْتُوبٌ فِي
التَّوْرَةِ أَنَّهُ إِنَّمَا قَالَ: نَجْدٌ فِي الْكُتُبِ، وَهُوَ إِنَّمَا يَعْنِي كُتُبَ
الأنبياء، والذي يتوارثونه من كتب سليمان؛ وما في كتبهم من
مثل كتب إشعيا وغيره، والذين يروون عنه في صفة عُمَرَ بْنِ

الخطاب رضي الله عنه، وأشباه ذلك، فإن كانوا صدقوا عليه
وكان الشيخ لا يضع الأخبار فما كان وجه كلامه عندنا إلا على
ما قلت لك.

نطق الحية

وفي أن الحية قد كانت تسمع وتنطق، يقول التابع في المثل الذي صرته، وهو قوله:

لنا مولى يحب	فيعذرنا من مرة
سراحنا	المتناصره
ليهنكم أن قد نفيتم	محل عبيدان المحلا
بيوتنا	باقره
للاقي من ذوي الضغن	بلا عثرة والنفس لا بد
عائره	عائره
لقيت ذات الصفا من	وما انفكت الأمثال في
حليفها	الناس سائره
فقالت له: أدعوك للعقل	تغشيني منك للظلم
وافراً	بادره
فواثقها بالله حتى	فكانت تديه الجزع خفياً
تراضيا	وظاهره
توفي العقل إلا	وجارت به نفس عن الخير
جائره	جائره
أني يجمع الله	فيصبح ذا مالٍ ويقتل
شملة	واتره
على فأسٍ يحد	ليقتلها والنفس للقتل
غرابها	حاذره
وقاها الله ضربة	ولله عينٌ لا تغمض

فأسه
: تعالى نجعل الله
العقل حتى تنجز لي
ساهره
آخره

فقال يمين الله أفعل
ختاراً يمينك فاجرته

لك قبرٌ لا يزال
مواجهاً
وضربة فأس فوق
رأسه فاقره

فذهب النَّايِعَةُ فِي الْحَيَاتِ مَذْهَبَ أُمِّيَّةِ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ،

وعديّ بن زيدي، وغيرهما من الشعراء.

الصخور والأشجار في ماضي الزمان وأنشدني عبد الرحمن

بن كيسان:

رَطِيباً يَوْمَ ذَلِكَ
صَخْرُهَا
خَصِيْداً طَلَّحُهَا وَسَيَالُهَا

فزعم كما ترى أنّ الصُّخُورَ كانت لَيْتَةً، وأنَّ الأشجارَ: الطَّلْحَ والسَّيَالَ كانت خَصِيْداً لا شوْكَ عليها. وزعم بعضُ المفسِّرين وأصحابُ الأخبار، أنّ الشُّوكَ إنما اعترها في صبيحة اليوم الذي زعمتِ النَّصارى فيهِ أنَّهُ المسحُوحُ ابْنُ اللَّه.

أثر قدم إبراهيم عليه السلام وكان مقاتلٌ يقولُ - حَدَّثَنَا بِذَلِكَ عَنْهُ أَبُو عَقِيلِ السَّوَّاقِ، وكما أحدَ روايته والحاملين عنه - إِنَّ الصُّخُورَ كانت لَيْتَةً، وإنَّ قدمَ إبراهيم عليه السلام أثرت في تلك الصخرة، كتأثير

أقدامِ الناس في ذلك الزَّمان، إلاَّ أنّ الله تعالى توفَّى تلك الآثارَ، وعقَّى عليها، ومسَّحَهَا ومحاها، وترك أثرَ مقامِ إبراهيم عليه السلام، والحجَّةُ إنما هي في إفراده بذلك ومحو ما سواه من آثار

أقدامِ الناس، ليس أنّ إبراهيم صلى الله عليه وسلم كان وطئ على صخرة خلقاء يابسةٍ فأثر فيها. فضل المتكلمين والمعتزلة وأنا أقول على تثبيت ذلك بالحجة، ونعوذُ بالله من الهذر والتكلف

وانتحال ما لا أقوم به، أقول: إني لولا مكان المتكلمين لهلكت العوامُّ من جميع الأمم، ولولا مكان المعتزلة لهلكت العوامُّ من جميع النحل، فإن لم أفل، ولولا أصحاب إبراهيم وإبراهيم لهلكت العوامُّ

من المعتزلة، فإني أقول: إنه قد أنهج لَهُمْ سُبُلًا، وَفَتَقَ لَهُمْ أُمُورًا، واختصر لهم أبواباً ظهرت فيها المنفعة، وشملتهم بهما النعمة. ما يحتاج إليه الناس وأنا أزرعهم أن الناس يحتاجون بدياً إلى طبيعة ثم إلى معرفة، ثم إلى إنصاف، وأول ما ينبغي أن يبتدئ به صاحب الإنصاف أمره ألا يعطى نفسه فوق حقها، وألا يضعها دون مكانها، وأن يتحفظ من شيئين؛ فإن نجاته لا تتم إلا بالتحفظ منهما: أحدهما تهمة الإلف، والآخر تهمة السابح إلى القلوب - واللأسه الموفق. حديث عن تأليف هذا الكتاب وما أكثر ما يعرض في وقت إكبابي على هذا الكتاب، وإطالتي الكلام، وإطبابي في القول، بيت ابن هزيمة، حيث يقول:

الحديث تغر القوم خلوتعتي يلج بهم عي وإكثار
وقولهم في المثل: كل مجر في الخلاء يسر.
وأنا أعود بالله أن أعز من نفسي، عند غيبة خصمي، وتصفح العلماء لكلامي، فإني أعلم أن فتنة اللسان والقلم، أشد من فتنة النساء، والحرص على المال. وقد صادف هذا الكتاب مني حالات تمنع من بلوغ الإرادة فيه، أول ذلك العلة الشديدة، والثانية قلة الأعوان، والثالثة طول الكتاب، والرابعة أنني لو تكلفت كتاباً في طوله، وعدد ألفاظه ومعانيه، ثم كان من كتب العرض والجوهر، والطفرة، والتولد، والمداخلة، والغرائز، والتماس لكان أسهل وأقصر أياماً، وأسرع فراغاً؛ لأنني كنت لا أفرغ فيه

إلى تَلْفُطِ الأشعار، وتَتَّبِعِ الأمثال، واستخراج الآي من القرآن، والحجج من الرواية، مع تفرُّقِ هذه الأمور في الكتب. وتباغِد ما بين الأشكال، فإنَّ وَجَدْتَ فيه خلاً من اضطرابٍ لفظيٍّ، ومن سوءِ تأليفٍ، أو من تقطيعِ نظامٍ، ومن وقوع الشيء في غير موضعه - فلا تنكِرْ، بعدَ أن صَوَّرْتُ عندك حالي التي ابتدأتُ عليها كتابي. ولولا ما أرجو من عَوْنِ الله على إتمامه؛ إذ كنتُ لم أتمسُّ به إلاَّ إفهامك مواقعَ الحجج لله، وتصاريفَ تدبيره، والذي أودَعَ أصنافَ خلقه من أصنافِ حكمته لَمَّا تعرَّضْتُ لهذا المكروه، فإنَّ تَظَرَّتْ في هذا الكتابِ فانظُرْ فيه نظراً مَنْ يلمس لصاحبه المخارجَ، ولا يَدْهَبُ مذهبَ التعنُّتِ، وَمَدْهَبَ مَنْ إذا رأى خيراً كَتَمَهُ، وإذا رأى شَرًّا أذاعه. وليعلم مَنْ فَعَلَ ذلكَ أَنَّهُ قد تعرَّضَ لبابٍ إنَّ أُخِذَ بمثله، وتُعَرَّضَ له في قوله وكتبه، أنْ ليس ذلكَ إلاَّ من سبيلِ العُقوبةِ، والأخذ منه بالظلامه، فلينظُرْ فيه على مثال ما أدَّب الله به، وعرَّفَ

كيف يكون النظر والتفكير والاعتبار والتعليم؛ فإنَّ الله عزَّ وجلَّ يقول: "وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مِمَّا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ".

الحكمة الجليلة في دقيق الأشياء فينبغي أن تكون إذا مررت بذكر الآية والأعجوبة، في الفراشة والجرجسة، ألاَّ تحقِّر تلك الآية، وتصعَّر تلك الأعجوبة؛ لصغر قدرهما عندك، ولقلَّة معرفتهما عند معرفتك، لصغر أجسامهما عند جسمك، ولكن كن عند الذي يظهر لك من تلك الحكم، ومن ذلك التدبير، كما قال الله عزَّ وجلَّ: "وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ" ثم قال: "فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَا خُذُوا بِأَحْسَنِهَا" ثم قال الله تعالى: "وَإِذْ تَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ"، وقد قال عامر بن عبد قيس: الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت في القلب، وإذا خرجت من اللسان لم تجاوز الأذان.

حث على الإخلاص والتنبه عند النظر وأنا أعيد نفسي بالله
أَنْ أَقُولَ إِلَّا لَهُ، وَأَعِيدُكَ بِاللَّهِ أَنْ تَسْمَعَ إِلَّا لَهُ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ
عَزَّ وَجَلَّ: "وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَهْتَدُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ
إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ" فَاحْذَرْ مِنْ أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ، وَمِمَّنْ
يَنْظُرُ إِلَى حِكْمَةِ اللَّهِ وَهُوَ لَا يَبْصُرُهَا، وَمِمَّنْ يَبْصُرُهَا بِفَتْحِ
الْعَيْنِ وَاسْتِمَاعِ الْأَذَانِ؛ وَلَكِنْ بِالتَّوَقُّفِ مِنَ الْقَلْبِ، وَالتَّثَبُّتِ
مِنَ الْعَقْلِ، وَبِتَحْفِيزِهِ وَتَمَكِينِهِ مِنَ الْيَقِينِ، وَالْحِجَّةِ الظَّاهِرَةِ،
وَلَا يَرَاهَا مَنْ يُعْرِضُ عَنْهَا.
وقد قال الله عز وجل: "وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ
لَا يَسْمَعُونَ" وقال: "إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّمُّ الْبُكْمُ
الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ" ولو كانوا صمًّا بُكْمًا وكانوا هم لا يعقلون،
لَمَا عَيَّرَهُمْ بِذَلِكَ، كَمَا لَمْ يَعْيُرْ مَنْ خَلَقَهُ مَعْتَوْهَا كَيْفَ لَمْ
يَعْقِلْ، وَمَنْ خَلَقَهُ أَعْمَى كَيْفَ لَمْ يَبْصُرْ، وَكَمَا لَمْ يَلْمِ
الدَّوَابَّ، وَلَمْ يَعَاقِبِ السَّبَاعَ، وَلَكِنَّهُ سَمَّى الْبَصِيرَ الْمُتَعَامِيَ
أَعْمَى، وَالسَّمِيعَ الْمُتَصَامِمَ أَصَمًّا، وَالْعَاقِلَ الْمُتَجَاهِلَ جَاهِلًا.

وقد قال الله عز وجل: "فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" فَانظُرْ كما أمرك الله، وانظر من الجهة التي دَلَّكَ مِنْهَا، وخذ ذلك بقوة، قال تعالى: "خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَادْكُورُوا مَا فِيهِ" .

عود إلى الحيات ثم رَجَعَ بنا القولُ إلى ما في الحيات من العلم والعبرة، والفائدة والحكمة؛ ولذلك قال أبو ذرَّ الغفاريُّ: لقد تَرَكْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما يَمُرُّ بنا طائرٌ إلا وَعِنْدَنَا من شأنه عِلْمٌ، وهذا القولُ صحيح عن أبي ذر، ولم يَخْصَّ أَبُو ذَرٍّ خَشَاشَ الطَّيْرِ من بُغَاثِهَا وأَحْرَارِهَا، ولا ما يَدْخُلُ فِي بَابَةِ الْهَمَجِ، وقد أَرَيْنَاكَ من تحقيق قولهِ طَرَفًا، ولعلك إن جمعتَ نظركَ إلى نظرنا، أن تستتمَّ هذا الباب، فقد قال الشاعر:

ليس الرأي في رأي عليَّ اليومَ ما تَرَيَانِ

وقال الأحنف: ما من الناس أحدٌ إلَّا وقد تعلَّمْتُ منه شيئاً،
حَتَّى من الأُمَّةِ الوَزْهَاءِ والعَبْدِ الأَوْرَةِ.
والحيَّاتُ مختلفاتُ الجهاتِ جدًّا، وهي من الأممِ المتي يكثر
اختلافُ أجناسِها في الصَّرِّ والسَّمِّ، وفي الصَّغْرِ والعِظَمِ،
وفي التعرُّضِ للنَّاسِ، وفي الهربِ منهم، فمنها ما لا يؤذي
إلَّا أنْ يكونَ الناسَ قد آذَوْهَا مَرَّةً، وأمَّا الأسودُ فَإِنَّهُ يحقِّدُ
ويُطالب، ويكُمِّن في المتاعِ حتى يُدْرِكَ بطائلته، وله زمانٌ
يقتلُ فيه كلَّ شيءٍ نهشَه. وأمَّا الأفعى فليس ذلك عندها،
ولكنها تَظهر في الصَّيفِ مع أوَّلِ الليلِ، إذا سكَنَ وهَجُ
الرَّمْلِ وظاهرُ الأرض؛ فتأتي قارِعَةَ الطَّرِيقِ حتى تستديرَ
وتَطْحَنَ كأنَّها رَحَى، ثمَّ تُلصِقُ بَدَنَهَا بالأرضِ وتُشخِصُ رأسها؛
لئلاَّ يدركها السُّبُباتُ، معترضة؛ لئلاَّ يطأها إنسانٌ أو دابَّةٌ
فتنهشَه، كأنَّها تريد ألاَّ تنهشَ إلَّا بأن يُتعرَّضَ لها، وهي قد
تعرَّضت لتهشَه باعتراضها في الطَّرِيقِ وتناوُمها عليه وهي
من الحيَّاتِ التي ترصد وتوصف بذلك، قال مَعْقِلُ بنِ خُوَيْلِدٍ:

رُؤُوسَ الْأَفَاعِي فِي
مَرَاصِدِهَا الْعُزْمِ

مَعْقِلٍ لَا تُوْطِئَنَّكُمْ
بِعَاصَتِي

يريد: الأفاعي في مراصدها، وكلُّ منقطة فهي عزماء، من شاةٍ أو غير ذلك.

وقال آخر:

طَوْتُ مِنْ حَنْشٍ وَرَاصِدٍ لِلسَّفْرِ فِي أَعْلَى الْبِيَاتِ
قَاصِدٍ

والأفعى تقتل في كلِّ حالٍ وفي كلِّ زمانٍ، والشُّجاع يواثبُ

ويقوم على دَنَبِهِ، ورَبَّمَا بَلَغَ رَأْسُهُ رَأْسَ الْفَارِسِ.

ما يقتل الحية والعقرب من الحيوان

وليس يقتلها - إذا تطوّقت على الطَّرِيق وفي المناهج، أو اعترضتها لتقطعها عابرةً إلى الجانب الآخر - شيءٌ كأفطبع الشَّيَاهِ إِذَا مَرَّتْ بِهَا، وكذلك الإبلُ الكثيرةُ إِذَا مَرَّتْ، فَإِنَّ الْحَيَّةَ إِذَا وَقَعَتْ بَيْنَ أَرْجُلِهَا كَانَ هَمُّهَا نَفْسَهَا، وَلَمْ يَكُنْ لَهَا هَمٌّ إِلَّا التَّخْلَصَ بِنَفْسِهَا؛ لِئَلَّا تَعْجَلَهَا بِالوِطْءِ، فَإِنْ نَجَتْ مِنْ وِطْءِ أَيْدِيهَا، لَمْ تَنْجُ مِنْ وِطْءِ أَرْجُلِهَا، وَإِنْ سَلِمَتْ مِنْ وَاحِدَةٍ لَمْ تَسْلَمْ مِنَ الَّتِي تَلِيهَا، إِلَى آخِرِهَا. وقال عمر بن لَجَأٍ، وهو يصف إبله:

تَعَرَّضُ الْحَيَّاتُ فِي عِشَّاشِهَا

وقال ذو الأهدام:

تُعْجَلُهَا عَنْ نَهَشِهَا وَالتَّكْزِ

ومن ذلك أنَّ العقربَ تَقَعُ فِي يَدِ السَّيِّئِ، فيلعب بها ساعة

من اللَّيْلِ وهي في ذلك مسترخيةٌ مستخذيَةٌ لا تضربه،

والسَّنانير من الخلق الذي لا تسرع السُّموم فيه.

مسالمة الأفعى للقانص والراعي

وربما باتت الأفعى عند رأس الرّجل وعلى فراشه فلا تنهشه، وأكثر ما يوجد ذلك من القانص والراعي، قال الشاعر:

الحية النّضاض منه الحبّ مستمع السّرار

قال: الحبّ: الحبيب، والنضاض من الحيات: الذي يحرك لسانه، وعن عيسى بن عمر قال: قلتُ لذي الرّمّة: ما النضاض؟ فأخرج لسانه يحركه. وإنما يصف القانص وأنه يبيت بالقفر، ومثله قول أبي النجم:

لنا القزّاء في جزي الرّحى تجري على
عزّزالها

العزّزال: المكان وفي ذلك يقول أبو وجزة:

جارته الأفعى وسامرّه به عاذرّ منهنّ كالجرب

وقوله: رُبّ د، يربد البعوض، وعزاز: أثار. قصة في مسالمة الأفعى قال: وبات يحيى بن منقاش مع دارم الدارميّ، فلما أصبح يحيى رأى بينهما أفعى مستوية، فوثب يحيى ليقتلها، فقال له دارم، قد أعتقها وحزرتها ولم تقتلها وهي ضجعتي من أول الليل؟ فقال يحيى:

بربي أن ترى لي يطيّف بنا ليلاً مخرّر
صحتي

دارم الخرس لا ينجو صحيحاً وإن كان معقوداً بحلي
سليمها التمام

مسالمة العقارب للناس والعقارب في ذلك دون الحيات، إلاّ الجّارات، فإنها ربّما باتت في لحاف الرّجل الليلة بأسرها، وتكون في قميصه عامّة يومها، فلا تلتسه، فهي بالأفعى أشبه.

فأمّا سائر العقارب فإنها تقصد إلى الصّوت، فإذا ضربت إنساناً فرّث كما يصنع المسيء الخائف للعقاب. والعقرب لا تضرب الميت ولا المغشي عليه، ولا النائم إلاّ

أن يحرك شيئاً من جسده، فإنها عند ذلك تضربه.
مسالمة الخنافس للعقارب والحيات ويقال إنها تأوي مع
الخنافس وتسالمها، ولا تصادق من الحيات إلا كل أسود
سليخ.

عقارب نصر بن الحجاج وحَدَّثَ أبو إسحاق المكي قال: كان
في دار نصر بن الحجاج السُّلمي عقاربٌ إذا لسعتُ قَتَلْتُ،
فدبُّ ضيفٌ لهم على بعضِ أهلِ الدَّارِ فضرِبته عقربٌ على
مذاكيره، فقال نصرٌ يعرِّضُ به:

وَدَارِي إِذَا نَامَ سَكَانُهَا أَقَامَ الْخُدُودَ بِهَا الْعَقْرَبُ
عَقَلَ النَّاسُ عَنْ دِينِهِمْ فَإِنْ عَقَرَبَهَا تَضْرِبُ
قال: فَأَدْخَلَ النَّاسُ بِهَا حَوَاءً، وَحَكَّوْا لَهُ شَانَ تَلِكِ الْعَقَارِبِ،

فقال: إن هذه العقارب تستقي من أسود سليخ، ونظر إلى
موضع في الدار فقال: احفروا هاهنا، فحفروا عن أسودين:
ذكرٍ وأنثى، وللذكر خُصيتان ورأوا حول الذكر عقارب كثيرةً
فقتلوه.

قال: وقال الفضل بن عباس حين راهنه عقرب بالشعر،
وقيل لكل واحدٍ منهما: لست في شيءٍ حتى تغلب صاحبك،
فقال الفضل:

تجر العقرب في سوقنا مرحباً بالعقرب التاجر
عدو يتقي مقبلاً وعقرب تخشى من الدابره
عدو كيده في استه فغير ذي أيدٍ ولا ضائره

ضاقَت العقرب واستيقنت

بأن لا دنيا ولا آخره

عادت العقرب عدنا لهلوكانت النعل لها حاضره
من سمى بعقرب واسم أم حارثة بن بدر، عقرب، وآل أبي
موسى يكتنون بأبي العقارب، ومن هؤلاء الذين يكتنون
بالعقرب: ابن أبي العقرب الليثي الخطيب الفصيح، الراوية.
وَرَوُوا أَنَّ عَقْرَبًا لَسَعَتَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ:
لَعَنَهَا اللَّهُ، فَإِنَّهَا لَا تُبَالِي مَنْ ضَرَبَتْ! وَقَالَ الصَّبِيُّ: أَنَا عَقْرَبٌ،
أضُرُّ وَلَا أَنْفَعُ.

الجرارات وكان الرَّجُلُ تَلْسَعُهُ الْجَرَّارَةُ بِعَسْكَرٍ مُكْرَمٍ، أَوْ بِجَنْدٍ
يَسَابُورٍ، فَتَقْتَلُهُ؛ وَرَبَّمَا تَنَاطَرَ لَحْمُهُ، وَرَبَّمَا تَعَفَّنَ وَأَنْتَنَ، حَتَّى لَا
يَدْنُو مِنْهُ أَحَدٌ إِلَّا وَهُوَ مُخَمَّرٌ أَنْفَهُ، مَخَافَةَ إِعْدَائِهِ، وَلَا سِيَّمَا إِنْ
كَانَ قَدْ نَالَ مِنَ اللَّحْمِ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ أَنَّ الْوُخْرَةَ الَّتِي وُخِرَها
كَلَّانَتِ مِنْ جَرَّارَةٍ.

وكانوا إِذَا شَعَرُوا بِهَا دَعَا حِجَامًا، يَحْجُمُ ذَلِكَ الْمَوْضِعَ وَيَمصُّهُ،
قَبْلَ أَنْ يَتَفَشَى فِيهِ السَّمُّ وَيَدْخُلَ تِلْكَ الْمَدَاخِلَ، فَكَانَ الْحِجَامُ
لَا يَجِيئُهُمْ حَتَّى يَقْبِضَ دَنَانِيرَ كَثِيرَةً، وَإِنَّمَا كَانُوا يَجُودُونَ لَهُ

بذلك؛ لِمَا كَانَ لِصَاحِبِهِمْ فِي ذَلِكَ مِنَ الْفَرْجِ، وَمَا عَلَى الْحِجَامِ فِي ذَلِكَ مِنْ ضَرَرٍ، وَذَلِكَ أَنْ وَجَّهَهُ رَبُّمَا اسْمَارًا وَارْبَدًا، وَرَبَّمَا عَطَّلَتْ مَقَادِيمَ أَسْنَانِهِ وَتَوَجَّعَتْ عَلَيْهِ، فَيَلْقَى مِنْ ذَلِكَ الْجَهْدَ، وَذَلِكَ لِمَا كَانَ يَتَّصِلُ إِلَى فِيهِ مِنْ بُخَارِ الدَّمِّ، وَمِنْ ذَلِكَ السَّمِّ الْمَخَالِطِ لِذَلِكَ الدَّمِّ، ثُمَّ إِنَّهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ حَشَّوْا أذْنَابَ الْمَحَاجِمِ بِالْقُطْنِ، فَصَارَ الْقُطْنُ لَا يَمْنَعُ قُوَّةَ الْمَصِّ وَالْجَذْبِ، وَلَمْ يَدَعُهُ يَصِلُ إِلَى فَمِ الْحِجَامِ، ثُمَّ إِنَّهُمْ بَعْدَ مَدَّةٍ سُنِّيَاتٍ أَصَابُوا تَبَتَّةً فِي بَعْضِ الشُّعْبِ، فَإِذَا عَالَجُوا الْمَلْسُوعَ بِهَا حَسُنْتَ حَالُهُ. وَالْجَزَارَاتُ تَأْلَفُ الْأَخْوَاءَ الَّتِي تَكُونُ بِحَضْرَةِ الْأَتَاتَيْنِ، وَتَأْلَفُ الْحَشَّوْشَ وَالْمَوَاضِعَ النَّارِيَّةَ، وَسُمُّهَا نَارٌ. قَوْلُ مَاسِرْجُوهِ فِي الْعَقْرَبِ وَقِيلَ لِمَاسِرْجُوهِ: قَدْ نَجِدُ الْعَقْرَبَ تَلَسَّعَ رَجُلَيْنِ فَتَقْتُلُ أَحَدَهُمَا وَيَقْتُلُهَا الْآخَرُ، وَرَبَّمَا نَجَتْ وَلَمْ تَمُتْ، كَمَا أَنَّه رَبَّمَا عُقِرَتْ وَلَمْ تَفُتْ، وَنَجِدُهَا تَضْرِبُ رَجُلَيْنِ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ، فَيَخْتَلِفَانِ فِي سُوءِ الْحَالِ، وَنَجِدُهَا تَخْتَلِفُ مَوَاضِعَ صَرِيرِهَا عَلَى قَدْرِ الْأَغْذِيَّةِ، وَعَلَى قَدْرِ الْأَزْمَانِ،

وعلى قدر مواضع الجسد، ونجدُ واحداً يتعالج بالمسوس فيحمده، ونجد آخر يُدخلُ يده في مدخلِ حارٍّ من غير أن يكونَ فيه ماءٌ فيحمده، ونجدُ آخر يعالجه بالتخاللة الحارة فيحمدها، ونجد آخر يحجم ذلك الموضع فيحمده، ونجد كل واحدٍ من هؤلاء يشكو خلافَ ما يوافقُه، ثم إننا نجدُه يعاود ذلك العلاج عند لسعةٍ أخرى فلا يحمده. قال ماسرجويه: لما اختلفت السُّمومُ في أنفسها بالجنس والقدر، وفي الزَّمان، باختلاف ما لاقاهُ اختلفَ الذي وافقه على حسب اختلافه.

وكان يقول: إنَّ قولَ القائل في العقرب: شرُّ ما تكون حين تخرج من جحرها، ليس يعنون من ليلتها - إذ كان لا بدَّ من أن يكون لها نصيبٌ من الشدة - ولكنَّهم إنما يعنون: في أوَّل ما تخرج من جحرها عند استقبال الصَّيف، بعدَ طولِ مكثها في غير عالمنا وغدائنا وأنفاسنا ومعايشنا. زعم العامة في العقرب والعامة تزعم أنها شرُّ ما تكون إذا

ضربت الإنسانَ وقد خرج من الحمام؛ لتفتح المسامِّ، وسعة
المجاري، وسخونة البدن، ولذلك صار سمها في الصيف أشدَّ،
هذا قولُ أبي إسحاق، كَأَنَّهُ كَانَ يَرَى أَنَّ الْهَوَاءَ كَمَا كَانَ أَحْرَّ،
وَكَانَ الْبَدَنُ أَسْخَنَ كَمَا كَانَ شَرًّا.
ونحن نجدهم يصرُّحون مِنْ لِسَعَتِهَا اللَّيْلَ كُلَّهُ، وَإِذَا طَلَعَتِ
الشَّمْسُ سَكَنَ مَا بِهِمْ، فَإِذَا بَقِيَتْ فَضْلَةٌ مِنْ تِلْكَ الْجَارِحَةِ فِي
الشَّمْسِ فَمَا أَكْثَرَ مَا يَسْكُنُ، وَسُمُومِهَا بِاللَّيْلِ أَشَدُّ، إِلَّا أَنْ
يَزْعَمُ أَنَّ أَجْوَابَ النَّاسِ فِي بَرْدِ اللَّيْلِ أَسْخَنَ وَفِي حَرِّ النَّهَارِ
أَفْـ

الدَّسَّاسِ وَزَعَمَ لِي بَعْضُ الْعُلَمَاءِ مِمَّنْ قَدْ رَوَى الْكُتُبَ، وَهُوَ
فِي إِرْثٍ مِنْهَا، أَنَّ الْحَيَّةَ الَّتِي يُقَالُ لَهَا: الدَّسَّاسُ، تَلِدُ وَلَا
تَبِيضُ؛ وَأَنَّ أَنْثَى النَّمُورِ لَمْ تَضَعْ نَمْرًا قَطُّ إِلَّا وَمَعَهُ أَفْعَى.

زعم استحالة الكمأة إلى أفاع

والأعرابُ تزعم أنَّ الكمأة تبقى في الأرض فتُمطر مَطْرَةً
صَيْفِيَّةً، فيستحيل بعضها أفاعي، فسمِعَ هذا الحديثَ مِنِّي

بعض الرؤساء الطائيين، فزعم لي أنه عاينَ كماةً ضخمة فتأملها، فإذا هي تتحرك، فنهض إليها فقلعها، فإذا هي أفعى، هذا ما حدثته عن الأعراب، حتى برئت إلى الله من عيب الحديث.

معارف في الحيات عن صاحب المنطق

وزعم صاحب المنطق أن الوزغة والحيات تأكل اللحم والعشب، وزعم أن الحيات أظهر كلباً من جميع الحيوان، مع قلة شرب الماء، وأن الأسد مع تهمة قليل شرب الماء، قال: ولا تضبط الحيات أنفسها إذا شممت ريح السذاب، وربما اصطيدت به وإذا أصابوها كذلك وجدوها وقد سكرت. قال: والحيات تبتلع البيض، والفراخ، والعشب. سلخ الحيوان وزعم أن الحيات تسلخ جلودها في أول الربيع، عند خروجها من أعشيتها وفي أول الخريف، وزعم أن السلخ يتدئ من ناحية عيونها أولاً، قال: ولذلك يظن بعض من يُعانيها أنها عمياء، وهي تسلخ من جلودها في يومٍ وليلةٍ من

الرَّأْسِ إِلَى الدَّئِبِ، وَيَصِيرُ دَاخِلَ الجِلْدِ هُوَ الخَارِجُ، كَمَا يُسْلَخُ
الجَنِينُ مِنَ المِشِيمَةِ، وَكَذَلِكَ جَمِيعَ الحَيَوَانِ المَحْرَزِ الجَسَدِ،
وَكُلُّ طَائِرٍ لَجَنَاحِهِ غِلافٌ مِثْلُ الجُعَلِ وَالدَّبْرِ وَكَذَلِكَ السَّرَطَانِ،
يَسْلَخُ أَيْضاً، فَيُضَعَفُ عِنْدَ ذَلِكَ مِنَ المَشْيِ.
وَتَسْلَخُ جُلُودَهُمَا مِرَاراً.
وَالسَّلَخُ يَصِيبُ عَامَّةَ الحَيَوَانِ: أَمَّا الطَّيْرُ فَسَلَخُهَا تَحْسِيرُهَا،
وَأَمَّا ذَوَاتُ الحَوَافِرِ فَسَلَخُهَا عَقَائِقُهَا، وَسَلَخُ الإِبِلِ طَرْحُ
أُوبَارِهَا، وَسَلَخُ الجِرَادِ انسِلَاخُ جُلُودِهَا، وَسَلَخُ الأَيَائِلِ إِلقاءُ
قَرُونِهَا، وَسَلَخُ الأشْجَارِ إِسْقَاطُ وَرْقِهَا.

أصل الأسروع

والأسروع: دويبه تنسلخ فتصير فراشه، وقال الطرمح شعراً:

الأسروعُ واطردَ وجرت بجاليها الجدابُ
القرددُ ووزق الفراش لما يشبُّ
وانساب حياث الكتيب الموقدُ
وأقبلتُ

يصف الرممعان.

والدعموص ينسلخ، فيصير إما بعوضةً وإما فراشةً.

انسلاخ البرغوث

وزعم ثمامة عن يحيى بن برمك أنّ البرغوث ينسلخ فيصير بعوضة، وأتته البعوضة التي من سلخ ديموص ربّما انسلخت برغوثاً.

والنمل تحدث لها أجنحة ويتغيّر خلقها، وذلك هو سلخها، وهلكها يحين عند طيرانها.

انسلاخ الجراد

والجراد ينسلخ على غير هذا النوع، قال الرّاجز:

مَلْعُونَةٌ تَسْلُخُ لَوْنًا لَوْنَيْنِ

أثر البلدان في ضرر الأفاعي ونحوها قال: وعضّ السّباع ذوات الأربع، ولدغّ الهوامّ، يختلف بقدر اختلاف البلدان؛ كالذي يبلغنا عن أفاعي الرّمل، وعن جرّارات قرى الأهواز، وعقارب تصيبين، وثعابين مصر، وهنديّات الخرابات. وفي الشّبان، والزّنابير، والرّثيّلات ما يقتل، فأما الطّبوع فإنّه شديد الأذى، وللصّمغ أدّى لا يبلغ ذلك.

أقوال لصاحب المنطق وقال صاحب المنطق: ويكون
بالبلدة التي تسمى باليونانية: طبقون حيّة صغيرة شديدة
اللّدغ، إلا أن تُعالج بحجرٍ، يُخَرَج من بعض قبور قدماء
الملوك، ولم أفهم هذا، ولم كان ذلك.
وإذا أكل بعض ذوات السموم من جسد بعضها، كانت أردأ
ما تكون سمّاً، مثل العقارب والأفاعي.
قال: والأَيْلُ إذا ألقى قُروته علم أنّه قد ألقى سلاحه فهو لا
يظهر، وكذلك إن سمن علم أنّه يُطَلَبُ، فلا يظهر، وكذلك
أَوَّلَ ما ينبت قَرْنُهُ يعرّضه للشمس؛ ليصلب ويجفّ، وإن
لدغت الأَيْلَ حيّة أكل السّراطين؛ فلذلك تَظُنُّ أَنَّ السّراطينَ
صالحَةٌ لِلّـديغ من الناس.
قال: وإذا وضعت أنثى الأَيْل ولداً أكلت مشيمتها، فَيُظَنُّ أَنَّ
المشيمَةَ شيءٌ يتداوى به من عِلّة النفاس.
قال: وَالذَّبَّةُ إذا هربت دفعت جِراءَها بين يديها، وإن خافت
على أولادها غيبتّها، وإذا لحقت صعدت في الشجر وحملت

مَعَهَا جِرَاءَةً.

قال: والفَهْدُ إذا عراه الدَّاءُ الذي يقالُ له: خَنِقَ الفهودُ أكلَ العَـذِرَةَ فَبَرئَ مِنْهُ.

قال: والسَّبَاعُ تشتهي رائحةَ الفهودِ، والفهدُ يتغيَّبُ عنها، ورَبَّمَا فَرَّ بعضها منه فَيُطْمِعُ في نفسه، فإذا أرادَه السَّبِيعُ وَثَبَ عَلَيْهِ الفهدُ فَأَكَلَهُ.

قال: والتمساحُ يفتحُ فاهُ إذا غَمَّهُ ما قد تعلقُ بأسنانه، حتى يَأْتِيَ طَائِرٌ فَيَأْكُلُ ذلكَ، فيكونُ طعاماً له وراحَةً للتمساحِ.

قال: وأما السُّلْحَفَةُ فَإِنَّهَا إذا أَكَلَتِ الأفعى أَكَلَتِ صَعْتَرًا جَبَلِيًّا، وقد فَعَلَتِ ذلكَ مراراً، فربما عادت فأكَلَتِ منها ثمَّ

أَكَلَتِ مِنَ الصَّعْتَرِ مراراً كثيرةً، فإذا أَكثرتُ من ذلكَ هَلَكْتَ.

قال: وأما ابنُ عَرَسٍ، فَإِنَّهُ إذا قَاتَلَ الحَيَّةَ بدأَ بِأَكْلِ السَّدَابِ،

لأنَّ رائحةَ السَّدَابِ مخالفةٌ للحَيَّةِ، كما أن سامَّ أبرصَ لا يَدْخُلُ بيتاً فِيهِ زعفرانُ.

قال: والكلابُ إذا كانَ في أجوافها دُودٌ أَكَلَتِ سُنْبِلَ القمحِ.

قال: وَتَنْظُنُّ أَنَّ ابْنَ عَرَسٍ يَحْتَالُ لِلطَّيْرِ بِحِيلَةِ الذَّنْبِ لِلغَنَمِ؛
فإنه يذبحها كما يفعل الذئب بالشاة، قال: وتتقاتل الحيات
المشتركة في الطعم.
وزعم أن القنافة لا يخفى عليها شيء من جهة الريح
وتحولها وهبوبها، وأنه كان يقسطنطينية رجل يقدم ويعظم؛
لأنه كان يعرف هبوب الريح ويخبرهم بذلك وإنما كان يعرف
الحال فيها بما يرى من هيئة القنافة.
العيون الحمر العيون الحمر للعرض المفارق، كعين
الغضبان، وعين السكران، وعين الكلب، وعين الرمد.
العيون الذهبية والعيون الذهبية، عيون أصناف البزاة من
بين العقاب إلى السرزرق.
العيون التي تسرج بالليل والعيون التي تسرج بالليل، عيون
الأسد، وعيون النمر، وعيون السنابير، وعيون الأفاعي،
قال أبو حية: خبر وشعر في العين

غضابٌ يُبَيِّرُونَ الدُّحُولَ كَجَمْرِ الغَضَا ذَكَيْتُهُ فتوقدا
عُيُونُهُمْ

وقال آخر:

وَمَدَّجَّحٌ يَسْعَى بِشِكَّتِهِ مَحْمَرَّةٌ عَيْنَاهُ كَالْكَلْبِ

رجع بالكلب إلى صفة المدجج.

وقال معاوية لضرار العدي: يا أحمر قال: والذهب أحمر قال يا أزرق قال: والبازي أزرق وأنشدوا:

عَيْبَ فِيهَا غَيْرُ سُكَّةٍ كَذَاكَ عِتَاقُ الطَّيْرِ سُكْلُ
عُيُونِهَا

وقال آخر:

وَسُكَّةٌ عَيْنٍ لَوْ حُبِيتْ لَكُنْتَ مَكَانَ الْعَيْنِ مَرَّأَى
بِبَعْضِهَا

ومن العيون المغرب، والأزرق، والأشكلى، والأسجر، والأشهل، والأخيف، وذلك إذا اختلفا، وعين

الفأرة كخلاء، وهي أبصر بالليل من القرس والعقاب.

وفي حمرة العينين وضياهما يقول محمد بن ذؤيب الغماني، في صفة الأسد:

مِنْ ذِي لِبْدَةٍ هَمَّاسٍ غَضَنْفَرٍ مَضَبَّرٍ رَهَّاسٍ
أَخْيَاسٍ إِلَى أَخْيَاسٍ كَأَنَّهَا عَيْنَاهُ فِي مِرَاسٍ
مِقْبَاسٍ إِلَى مِقْبَاسٍ

وقال المرار:

وَقَدْ عَيْنِيهِ النَّمِرُ

أصوات خشاش الأرض

نحو الضب، والورل، والحية، والقنفذ، وما أشبه ذلك.

يقال للضب والحية والورل: فَحَّ يَفْحُ فحياً، وقال رؤبة:

فَلَا أَفْرَقُ أَنْ تَفْحِي تُرْحِي كَرَحِي الْمَرْحِي
مِنْ نَحْنَحَةٍ وَأَحَّ يَحْكِي سُعَالَ النَّشْرِ الْأَبْحِ

قال: الفحيح: صوت الحية من فيها، والكشيش والنشيش:

صوت جلدتها إذا حكَّت بعضه ببعض، قال الزجاج في صفة الشخب والحلب:

لِلأَبْرَشِ وَهُوَ مُعْضَمِرَاءَ مِنْهَا شُخْبَةٌ بِالْمَخْضِ
لَيْسَتْ بِذَاتِ وَبَرٍ مَبِيضٌ صَوْتٌ شُخْبِهَا الْمَرْقُضُ
كشيشٌ أفعى أجمعت لعضً
ويقال للضبِّ والورل: كَش يَكِش كَشِيشًا، وأنشد أبو
الجراح:

الضَّبُّ إِنْ لَمْ يَرْهَبْ يَكِشُ لَهُ مُسْتَنْكِرًا
غَيْرَهُ وَيُطَاوِلُهُ

ضرب المثل للرجل الداهية وللحي الممتنع بالحيّة

قال ذو الإصبع العَدَوَانِيُّ:

الْحَيُّ مِنْ عَدَوَا نَ كَانُوا حَيَّةَ الْأَرْضِ
بَعْضُهُمْ ظَلَمًا فَلَمْ يُرْعَ عَلَى بَعْضِ
كَاتِبِ السَّادَا تِ وَالْمَوْفُونَ بِالْقَرُضِ

يقال: فلان حية الوادي، وما هو إلا صلُّ أصلال، والصلُّ: الداهية والحيّة، قال التّابعيُّ:

رُزِنَا بِهِ مِنْ حَيَّةٍ تَكْضِيَاَصَةً بِالرَّزَايَا صِلُّ أَصْلَالٍ

وقال آخر:

صَفَا تَنْطِفُ أَنْيَابُهُ سِيَمَامَ ذِيْفَانٍ مَجِيرَاتِ

وقال آخر:

مُطْرِقٌ يَرِشِحُ سَمًّا كَمَا أَطْرَقَ أَفْعَى يَنْفُتُ السَّمَّ
صِلُّ

ومن أمثالهم: صَمِّي صَمَامٍ، وَصَمِّي ابْنَةُ الْجَبَلِ، وَهِيَ الْحَيَّةُ.

قال الكميت:

لَقِيَ السَّفِيرَ لَهَا وَتَادَى بِهَا: صَمِّي ابْنَةُ الْجَبَلِ
السَّفِيرُ

قولهم جاء بأَم الرَبِيقِ على أَرِيقِ

ومن أمثالهم: جاءَ بأَمِّ الرُّبَيْقِ على أَرِيقِ، أَمُّ الرُّبَيْقِ: إحدى الحياتِ، وأَرِيقُ: أُمُّ الطَّبَقِ، ضربوا به مثلاً في الدواهي، وأصلها من الحيَّاتِ قال:

وَجَدْتُ بَوَادٍ حَيَّةً ذَكَرًا
فَاذْهَبْ وَدَعْنِي أُمَارِسَ حَيَّةِ
الوادي

قولهم أدرك القويمة لا تأكلها الهويمة

وفي المثل: أدرك القويمة لا تأكلها الهويمة يعني الصبي الذي يدُرْج ويتناول كلَّ شيءٍ سَحَّ له، ويَهوي به إلى فيه، كأنه قال لأُمَّه: أدركيه لا تأكله الهامَّة وهي الحيَّةُ، وهو قوله في التعويد: ومن كلِّ شيطانٍ وهامَّةٍ، ونَفْسٍ وعينٍ لامَّةٍ.

شعر للأخطل في ذكر الحية

وقال الأخطل، في جعلهم الرِّجْلَ الشُّجَاعَ وذا الرُّأْيِ الدَّاهِيَةَ حية - وكذلك يجعلون إذا أرادوا تعظيم شأنها، وإذا أرادوا ذلك فما أكثر ما يجعلون الحَيَّةَ ذَكَرًا، قال الأخطل:

كَلْبًا تَمْنَى أَنْ وَطالما سافهونا ثم ما
يسافهنا ظفروا
كلفتُمونا رجالا قاطعي مستحلِّقين كما يستلحق
اليسر
ليست عليهم إذا عدت خصلٌ وليس لهم إيجاب ما
خصالهم قمرُوا

أنتهم به الأنبياء والنذر
هضبتهم
رقوداً على الأمهاد
ليلهم
قالوا أمات الماء
يكاد ينام الحية الذكر

حَيَّةُ الْمَاءِ

وما أَكْثَرَ ما يذكرون حَيَّةَ الْمَاءِ؛ لَأَنَّ حَيَّاتِ الْمَاءِ فيها تفاوت،
إِذَا أن تكونَ لا تُضُرُّ كبيرَ ضررٍ، وإِذَا أن تكونَ أَقْتَلَ من
الحَيَّاتِ والأفـاعـي.
الهنديات ويقال إنَّ الهنديَّاتِ إِذَا تصير في البيوت والدُّور،
والإصطبلات، والخرابات؛ لِأَنَّها تُحْمَلُ في القُصْبِ وفي أشباه
ذلك.

علة وجود الحيات في بعض البيوت

والحيَّاتُ تأكل الجرادَ أَكْلاً شديداً، فربَّما فَتَحَ رأسُ كُرْزِهِ وجرابه وجوالقه، الذي يأتي الجراد، وقد
صَرَته بِرُذِّ السَّحَرِ، وقد تراكم بعضُه على بعض؛ لِأَنَّها موصوفةٌ بالصَّرْدِ.
والحيَّاتُ توصفُ بالصَّرْدِ، كذلك الحمير، والماعزُ من الغنم، ولذلك قال الشاعرُ:

كما يبلى الوِكاؤُ ولا جِتاباً ولا أكنافَ ذروة تخلُقُ

حَيَازِيمِي بَهَنَّ صَبَابَةً تَتَلَوَّى الْحَيَّةَ الْمَتَشَرِّقُ
وَإِنَّمَا تَشَرَّقُ إِذَا أَدْرَكَهَا بَرْدُ السَّحَرِ وَلَمْ تَصِرْ بَعْدُ إِلَى
صَلَاحِهَا، وَإِذَا خَرَجْتَ بِاللَّيْلِ تَكْتَسِبُ الطَّعْمَ كَمَا يَفْعَلُ ذَلِكَ
سَائِرُ السُّبَاعِ، فَرُبَّمَا اجْتَرَفَ صَاحِبُ الْكِرْزِ الْجِرَادَ، فَأَدْخَلَهُ
كُرْزَهُ، وَفِيهِ الْأَفْعَى وَأَسْوَدُ سَالِحٌ، حَتَّى يُنْقَلَ ذَلِكَ إِلَى الدُّورِ،
فَرَّبَّمَا لَقِيَ النَّاسُ مِنْهَا جَهْدًا.

وقال بشر بن المعتمر، في شعره المزاج:

عَجَبًا وَالذَّهْرُ ذُو عَجَائِبِ شَاهِدٍ وَقَلْبُهُ كَالْغَائِبِ
وَحَاطِبٌ يَخْطِبُ فِي بَجَادِهِ فِي ظِلْمَةِ اللَّيْلِ وَفِي
سَوَادِهِ يَخْطِبُ فِي بَجَادِهِ الْأَيْمِ
وَالْأَسْوَدَ السَّالِحَ مَكْرُوهَ
النَّظْرِ

شعر في حية الماء فممن ذكر حية الماء، عبد الله بن همام السلولي فقال:

الْمَاءُ لَا تَنْحَاشُ مِرْصُلِبُ الْمِرَاسِ إِذَا مَا حُلَّتْ
النُّطْقُ

وقال السَّمَاخُ بْنُ صِرَارٍ:

الْعَيُونَ تَبَارِي فِي إِذَا تَفَصَّدَنَ مِنْ حَرِّ
الصِّيَاخِيدِ كَحِيَةِ الْمَاءِ وَلِي غَيْرِ
مَطْرُودِ وَكُلُّهُنَّ تَبَارِي تِنِي مُطَّرِدِ

وقال الأخطل:

ضَفَادِعُ فِي ظَلْمَاءِ لَيْلٍ عَلَيْهَا صَوْتُهَا حَيَّةَ الْبَحْرِ
تَجَاوَبَتْ

ما يشبهه بالأيم، فالأيم الحية الذكر يشبهون به الرمام، وربما شبهوا الجارية المجدولة الخميصة
الخواصر، في مشيها، بالأيم؛ لأنَّ الحية الذكر ليس له عتب، وموضع بطنه مجدولٌ غير متراخ، وقال
ابن ميادة:

على السَّعلاة تنفضوتجذب مثل الأيم في بلدٍ
مسحها
قفر
خَيْرَ النَّاسِ مِنْ آلٍ وتحملُ حاجاتٍ تضمَّنتها
حاضر
صَدْرِي

شعر في حمرة عين الأفعى وقال الآخر في حمرة عين الأفعى:

الهِراوةُ والكِفَّاتُ حَوْضَ المنيَّةِ قَتَّالُ لِمَنْ عَلِقَا
أُورَدَنِي
منهْرُ السُّدُقِينَ يُغَدِّ إِلاَّ المنايا مِنْ لَدُنْ
خُلِقَا
عَيْنِهِ مِسْمَارَانِ مِنْ جِلاهُمَا مِدْوَسُ التَّالِقِ
فائتَلَقَا

شعر في حمرة عيون الناس وقال في حمرة عُيون النَّاسِ في الحَرْبِ وفي الغضب، ابن ميادة:

الفَرَّارِي العِراقِي عِيونَ القَوْمِ فِي نبضة
عارض
الجمرِ

وفي حمرة العين من جهة الخلق، يقول أبو قُرْدُودة، في ابن عمارٍ حينَ قتله العُثمان:

نهيْتُ ابنَ عَمَّارٍ وَقَلْتُ لا تَأْمَنَنَّ أَحْمَرَ العَيْنَيْنِ
وَالشَّعْرَةَ
الملوكُ متى تنزل تَطِرُ بِنارِكِ مِنْ نيرانِهِمْ
بِساحتِهِمْ
جفنةٌ كإزاء الحَوْضِ قَدْ وَمَنْطِقاً مِثْلَ وَشِي اليَمَنَةِ
هُدِمَتْ
الحَبْرَةَ

معرفة في الحية

وأكثر ما يذكرون مِنَ الحيات بأسمائها دون صفاتها: الأفعى، والأسود، والشجاع، والأرقم، قال عمر بن لجأ:

بالصَّخْرِ لُزُوقَ الأَرَقِمِ

وقال آخر:

أولى القوم وقعُ
خرادلٍ نبال مثل وقع الأساودِ

ذكر الأفاعي في بعض كتب الأنبياء

وفي بعض كتب الأنبياء، أنّ الله تبارك وتعالى قال لبني إسرائيل: يا أولاد الأفاعي. مثل وشعر في الحية ويقال: رماه الله بأفعى حارية وهي التي تحري، وكلما كبرت في السن صغرت في الجسم، وأنشد الأصمعيُّ في شدة اسوداد أسود سالخ:

مُهَرَّتْ الأَشْدَاقُ عَوْدٍ قَدْ كَأْتَمًا قَيْظًا مِنْ لِيَطَ جَعَلِ

وقال جريز في صفة عُزُوقِ بَطْنِ السَّبْعَانِ:

من نَبْهَانَ أَمَّا نَهَارُ فَاغَمَى وَأَمَّا لَيْلُهُ فَبَصِيرٌ
له مَشْبُوبَةٌ يَلْتَوِي يَكَادُ سَنَاها فِي السَّمَاءِ
يَطِيرُ اسْتَوَى جَنبَاهُ لَاعَبَ عَرِيضُ أَفَاعِي الحَالِبِينَ
ضَرِيرٌ

قال: ويقال: أَبْصَرُ مِنْ حَيَّةٍ، كما يقال: أَسْمَعُ مِنْ فَرَسٍ، و أَسْمَعُ مِنْ عُقَابٍ، وقال الراجز:

مِنْ فَرَخِ العُقَابِ الأَشْجَعِ

وقال آخر:

شَرَى لاقَتْ أُسُودَ تَساقَوْا عَلَي حَزْدِ دِمَاءِ
الأَساودِ

صَرَبَ المَثَلُ بجنسِين من الأَسُودِ، إِذْ كانا عِنْدَهُمُ الغايَةَ فِي الشَّدَّةِ والهولِ، فلم يقنع بذلك حتى رَدَّ ذلك كُلَّهُ إلى سموم

الحيات.

ما يشبه بالأسود وفي هؤل منظر الأسود يقول الشاعر:

دُونِ سَيْبِكَ لَوْنٌ لَيْلٍ وَخَفِيفٌ نَافِجَةٌ وَكَلْبٌ مُوسَدٌ
مُظْلَمٌ

وَالصَّيْفُ عِنْدَكَ مِثْلُ أَسْوَدٍ بَلْ أَحَبُّهُمَا إِلَيْكَ الْأَسْوَدُ

ويصفون ذوائب الناس، فإذا بلغوا الغاية شبهوها بالأساود،

قال جرّان العود:

تُعَرَّنَ امْرَأً تَوْفَلِيَّةً الرَّأْسُ مِنْهَا وَالتَّرَائِبُ
وُصْحٌ

فَاجِمٌ يُسْقَى الدَّهَانَ أَسَاوِدُ يَزْهَاهَا لِعَيْنِكَ أَبْطَحُ

استطرد لغوي قال: والخرشاء: القشرة الغليظة بعد أن تنقب فيخرج ما فيها، وجماعه الخراشي، غير مهموز، قال: وخرشاء الحية: سلخها حين تسلخ، وقال: هذا أسود سالخ، وهذان أسودان سـ الخان.

وأساود سالخة، وقال مرقش:

يَعْضَبُوا يَغْضَبُ لِدَاكُمُ يَكْمَلُ عَنْ خَرْشَائِهِ الْأَرْقَمُ

تعليق الحلبي والخلاخيل على السليم وكانوا يرون أن تعليق الحلبي، وحشخشة الخلاخيل على

السليم، ممّا لا يفوق ولا يبرأ إلا به، وقال زبّد الخيل:

يَكُونُ النِّعْلُ مِنْهُ كَمَا عُلِّقَتْ فَوْقَ السَّلِيمِ
صَحِيحَةً

وخبرني خالد بن عقبة، من بني سلمة بن الأكوع، وهو من بني المسيع، أنّ رجلاً من حزن، من بني

عذرة، يسمّى أسباط، قال في تعليقهم الحلبي على السليم:

فَلَمْ تَطْعَمْ لِي الْعَيْنُ وَبْتُ كَمَا بَاتَ السَّلِيمُ

مُقَرَّرَا

سَلِيمٌ نَالَهُ كَلْمٌ حَيَّةٌ تَرَى حَوْلَهُ حَلِيَّ النِّسَاءِ

مُرَصَّعًا

وقال الدُّبَيَانِيُّ:

كَأَنِّي سَاوَرْتَنِي صَنْيَلَةٌ الرُّقْشِ فِي أَنْبَاهَا السَّمُّ
نَاقِعُ

من ليل التمام
سليمها
لحلي النساء في يديه
قعايق

استطرد فيه لغة وشعر قال: ويقال لسان طلق دَلِقُ، يقال للسليم إذا دُيغ: قد طلق، وذلك حين

تُرجع إليه نفسه، وهو قول النابغة:

تَنَادَرَهَا الرَّاقُونَ مِنْ سُوءِ تَطَلُّقِهِ طَوْرًا وَطَوْرًا تُرَاجِعُ

وقال العبدى - إن كان قاله -:

الهُمُومُ الطَّارِقَاتُ يَعْذَنِيكَمَا تَعْتَرِي الْأَهْوَالُ
المطلق

وأنشد:

مِنْ تَذَكُّرِ آلِ لَيْلَى يَلْقَى السَّلِيمُ مِنَ الْعِدَادِ
والعِدَاد: الوقت، يقال: إنَّ تِلْكَ اللَّسْعَةُ لَتَعَادُهُ: إذا عَادَهُ
الوَجَعُ فِي الْوَقْتِ الَّذِي لُسِعَ فِيهِ.

حديث الحمل المصلي وذكر النبي صلى الله عليه وسلم
السَّمَّ الَّذِي كَانَ فِي الْحَمَلِ الْمَصْلِيِّ، الَّذِي كَانَتْ الْيَهُودِيَّةُ
قَدَّمَتْهُ إِلَيْهِ فَتَالَ مِنْهُ، فَقَالَ: إِنَّ تِلْكَ الْأَكْلَةَ لَتُعَادُنِي.

جلد الحية

وفي الحية قشرها، وهو أحسن من كل ورقة وثوب، وجناح،
وطائر؛ وأعجب من سائر العنكبوت، وغزقي البيض.

ما يشبه بلسان الحية

ويقال في مثل، إذا مدحوا الحفَّ اللطيف، والقدم اللطيفة
قالوا: كأنه لسان حية.

نفع الحية

وبالحية يُنْداوى من سم الحية، وللدغ الأفاعي يُؤخذ التُّرْباقُ الذي لا يُوجدُ إلا بمتون الأفاعي، قال
كثير:

زالت رُقاك تسألُ ضعُفِيْ خُرجُ مِنْ مَكامِنِها ضِبابِي
وتَرَقِيبِي لكَ الحَاوُونُ حَتَّى جَابَكَ حِيَّةٌ تَحْتَ الحِجابِ
قصة امرأة لدغتها حية جوير بن إسماعيل، عن عمه، قال:
حجبتُ فإنا لفي وَقَعَةٍ مَعَ قوم نزلوا منزلنا، ومعنا امرأة،
فنامت فانتبهتُ وحيَّةٌ مُنطوية عليها، قد جمعتُ رأسها مع
ذنبها بين ثدييها، فهاها ذلك وأزعجنا، فلم تزلُ مُنطويةً عليها
لا تُضُرُّها بشيء، حتى دخلنا أنصاب الحرم، فانسابت فدخلتُ
مكة، فقضينا نسكنا وانصرفنا، حتى إذ كنا بالمكان الذي

انطوت عليها فيه الحيّة، وهو المنزل الذي نزلناه، نزلت فنامت واستيقظت، فإذا الحيّة منطويّة عليها، ثمّ صَفَرَت الحيّة فإذا الموادي يسيلُ حَيَاتٍ عليها، فنهشتها حتّى تَقَتَّ عظامها، فقلت لجاريةٍ كانت لها: وَيَحَكِّ: أخبرينا عن هذه المرأة، قالت: بَعَثَ ثلاثَ مَرَّاتٍ، كلَّ مَرَّةٍ تأتي بوليدٍ، فإذا وضَعَهُ سَجَرَتِ التُّورِ، ثمّ ألقته فيه. قول امرأة في عليٍّ والزبير وطلحة قال ونظرت امرأةً إلى عليٍّ، والزبير، وطلحة، رضي الله تعالى عنهم، وقد اختلفت أعناقُ دوابِّهم حين التقوا، فقالت: من هذا الذي كأنه أرقم يتلمّظ؟ قيل لها: الزبير، قالت: فمن هذا الذي كأنه كسير ثمّ جبر؟ قيل لها: عليٌّ، قالت: فمن هذا الذي كأن وجهه دينارٌ هَرَقَلِيّ؟ قيل لها: طلحة.

استطراد لغوي

وقال أبو زيد: نهشت أنهشُ نهشاً، والنهش: هو تناولك الشيء بفيك، فتمصّعه فتؤثّر فيه ولا تجرحه، وكذلك نهش الحيّة، وأمّا نهش السبع فتناوله من الدابة بفيه، ثمّ يقطع ما أخذ منه فوه، ويقال نهشت اللحم أنهشته نهشاً، وهو انتزاع اللحم بالثنايا؛ للأكل، ويقال تَسَطَّت العَقْد تَسْطاً: إذا

عقدته بأنشوطة، وتَشَطَّت الإِبِلُ تَنْشِيطَ تَنْشُطًا: إذا ذَهَبَتْ عَلَى هَدَى أو غيرِ هَدَى، نَزَعًا أو غيرِ نَزَعٍ، ونَشَطَتْهُ الحَيَّةُ فَهِيَ تَنْشُطُهُ تَنْشُطًا، وَهُوَ أَنْ تَعَصَّه عَصًّا، وَنَكَرَتْهُ الحَيَّةُ تَنْكَرُهُ نَكَزًا، وَهُوَ طَعْنُهَا الإِنْسَانَ بِأَنْفِهَا، فَالتَّكَزُّ مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ سِوَى الحَيَّةِ العَضِّ، وَيُقَالُ: تَشَطَّنَتْهُ شَعُوبٌ نَشُطًا وَهِيَ المَنِيَّةُ. قَالَ: وَتَقُولُ العَرَبُ، نَشَطَتْهُ الشَّعُوبُ، فَتَدْخُلُ عَلَيْهَا التَّعْرِيفُ. عِلَّةٌ تَسْمِيَةُ النِّهَيْشِ بِالسَّلِيمِ وَيَسْمُونَ النِّهَيْشَ سَلِيمًا عَلَى الطَّيْرَةِ، قَالَ ابْنُ مِيَّادَةَ:

بِهَا لَمَّا عَرَفْتُ رُسُومَهَا قَتِيلٌ لَدَى أَيْدِي الرُّقَاةِ
سَلِيمٌ

شعر في الحية ومما يضربون به المثل بالحيات في دواهي الأمر، كقول الأقبيل القيني:

عَلِمْتُ وَخَيْرُ القَوْلِ أَنْ انْطَلَقِي إِلَى الحَجَّاجِ
أَنْفَعُهُ
دَهَبْتُ إِلَى الحَجَّاجِ إِيَّيْ لَأَحْمَقُ مَنْ تُحَدِّي بِهِ
يَقْتُلُنِي
مَسْتَحِقًّا صُحْفًا تَدْمَى وَفِي الصَّحَائِفِ حَيَاتٌ
طَوَائِبِهَا
مَنَاكِيْرُ العَيْرِ

استطرد لغوي وقال الأصمعي: يقال للحية الذكر أيم وأيم، مثقل ومخفف، نحو ليين وليم، وهين وهين، قال الشاعر:

لَيُّنُونَ أَيَسَارُ ذُووِ يَسُوِّاسٍ مَكْرَمَةٍ أَبْنَاءُ أَيَسَارِ
وَأَنشَدَ فِي تَخْفِيفِ الأَيِّمِ وَتَشْدِيدِهِ:

وَرَدَّتْ المَاءَ لَمْ تَشْرَبْ رَمَنْ الرَّبِيعِ إِلَى شُهُورِ
الصَّيْفِ

عَوَاسِرُ كالمِرَاطِ بِاللَّيْلِ مَوْرِدَ أَيِّمٍ مَتَغَصِّفٍ
مُعِيدُهُ

الصَّيْفُ، يَعْنِي مَطَرَ الصَّيْفِ، وَالعَوَاسِرُ: يَعْنِي ذُنَابًا رَافِعَةً أَذْنَابَهَا. وَالمِرَاطُ: السَّهَامُ الَّتِي قَدْ تَمَرَّطَ رِيشُهَا، وَمُعِيدَةُ: يَعْنِي مَعَاوِدَةَ اللُّوْرِدِ، يَقُولُ هُوَ مَكَانٌ لِحَلَالَتِهِ يَكُونُ فِيهِ الحَيَّاتُ، وَتَرُدُّه الدُّنَابُ، وَمَتَغَصِّفٌ يَرِيدُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ، يَرِيدُ تَشْيِ الحَيَّةِ. وَأَنشَدَ لابنِ هِنْدٍ:

بِأَمِّ سُلَيْمَى لَاطِيٌّ لِكَبْهَيْتَةٍ مُنْطَوٍ مِنْ بَيْنِ أَحْجَارِ

وقال محمد بن سعيد:

قريحة لم تُدبِّها السَّيِّاطُ عِرَاكاً ولم تعصر على
كَمُنْطَوَى الحَيَّةِ النَّضْنَضِ في الصِّدْرِ ما لم يهَيِّجْهَا
مكمنها
لَلَيْثِ مَنْسُوبٌ والحَيَّةُ الصَّلُّ نَجَلُ الحَيَّةِ
أظافِرُهُ
كَدَّرِ
على زَوْرِ
الذِّكْرِ

وقال ذو الرِّمَّة:

وأحوى كَأَيْمِ الصَّالِ أَطْرَقَ تحتَ فينانٍ من الظِّلِّ
قال: ويقال انبست الحيات: إذا تفرقت وكثرت، وذلك عند
إقبال الصيف، قال أبو النجم:

وانبسَ حَيَّاتُ الكَثيبِ الأهِيلِ
وقال الطَّرْمَاح:

الأسروغُ وأطردَ
وَجَرَتْ بِجَالِيهَا الجِدَابُ
القَرْدُدُ

وانسابَ حَيَّاتِ الكَثيبِ وأقبلتْ وُزُقُ القَرَّاشِ لما يَشُبُّ الموقدُ.
قال: ويقال جباً عليه الأسودُ من حجره: إذا فاجأه، وهو جباً جباً وجبواً.
وقال رجلٌ من بني شيبان:

مِنْ رَبِّبِ المَنْوَنِ بِجِيَّاتِ مَنْ سَيَّبَ الإلهِ بيائِسَ

ما يشرع في اللبن قال: ويقال: اللبنُ مُحْتَضَرٌ فَعَطُّ إِنْءَاكَ، كَأَنَّهُمْ يَرَوْنَ أَنَّ الجِنَّ تَشْرَعُ فِيهِ، على
تصديقِ الحديثِ في قولِ المفقودِ لعمر، حينَ سألَهُ وقد استَهَوَّتُهُ الجانُّ: ما كان طعامهم؟ قال
الرِّمَّة، يريدُ العظمَ البالي، قال: فما شرباهم؟ قال: الجَدَفُ، قال: وهو كلُّ شرابٍ لا يُخَمَّرُ.
وتقولُ الأعرابُ: ليس ذلك إلا في اللبنِ، وأمَّا النَّاسُ فيذهبون إلى أَنَّ الحَيَّاتِ تشرعُ في اللبنِ،
وكذلك ساءُ أبرص، كذلك الحَيَّاتِ تشرعُ في كثيرٍ من المرقِ.
حديث في المعصفر وجاء في الحديث: لا تبيئوا في المعصفر؛ فإنها مُحْتَضَرَةٌ أي يحضرها الجنُّ

وقال الشاعر فيما يمَجُّونَ به، من ذكر الأفعى:

اللَّهُ مِنْ أَيْرٍ يَأْفَعِّي عَاقَاكَ مِنْ جَهْدِ الْبَلَاءِ
فِي الْكَرْيَةِ حِينَ تَلْقَوْنَ عَظَاً مَا تَفْتَرُّ فِي الْخَلَاءِ
اللَّهُ مَا أَمْسَى رَفِيقِي الْبَوْلُ عُوْجِلَ بِالْخِصَاءِ

وقال أبو النجم:

نَظَرْتُ فَأَعْجَبَهَا الَّذِي فِي مِنْ حُسْنِهَا وَنَظَرْتُ فِي
سِرْبَالِيَا

لَهَا كَفَلًا يَنْوِي وَرَأَيْتُ مَنْتَشَرَ الْعِجَانِ
وَعَثَا رَوَادِفُهُ وَأَخْتَمَ نَاتِيَا
مُقَبَّصَا

لَهُ الرَّكَبَ الْحَلِيقَ أَدْنِي إِلَيْهِ عَقَارِبًا وَأَفَاعِيَا
كَأَنَّمَا

وقال آخر:

مَرِيضَةٌ أَثْنَاءِ التَّهَادِي كَأَنَّمَا تَخَافُ عَلَى أَحْسَائِهَا أَنْ
تَقَطَّعَا

انْسِيَابَ الْأَيْمِ أَحْصَرَهُ مِنْ أَطْرَافِهِ مَا تَرَفَّعَا

شعر في العقربان وقال إياس بن الأرت:

مَزَعَى أَمَّكُمْ سَوْءَةً عَقْرَبَةٌ يَكُومُهَا عُقْرُبَانُ
إِكْلِيلُهَا زَوْلٌ وَفِي شَوْلِهَا حَدِيدٌ مِثْلُ وَخَزِ السِّنَانُ
أَمْرِي قَدْ يُتَّقَى مُقْبِلًا وَأَمَّكُمْ قَدْ تُتَّقَى بِالْعِجَانُ

وقال آخر لمُضِيْفِهِ:

تُدْهِدُهُ الْقِدَّانَ حَوْلِي كَأَنَّكَ عِنْدَ رَأْسِي عُقْرُبَانُ
أَطْعَمْتَنِي حَمَلًا سَمِينًا شَكَرْتُكَ وَالطَّعَامُ لَهُ مَكَانُ

شعر في الحيات الأفاعي

وقال الثابغة:

يستطيعون دبَّت لنا مَدَاكِي الأفاعي وأطفالها

وقال رجلٌ من قريش:

زَالَ أَمْرُ وُلاَةِ السُّوءِ أَظَلَّ عَلَيْهِم حَيَّةٌ ذَكَرُ
مُنْتَشِرًا
مِرَّةٌ تَفَرِّقُ الحَيَّاتُ الشَّمَائِلُ قَدْ شُدَّتْ لَه
صَوْلَتُهُ
يَأْتِيهِمْ خَبْرٌ عَنَّهُ يَلِينُ لَه حَتَّى أَتَاهُمْ بِهِ عَن تَفْسِيهِ
الخبِرُ

وقال بشار:

القَوَافِي عَن لِسَانِي حَمَاتِ الأفاعي ريقهنَّ قِصَاءُ

وقال:

من أخٍ قد كان يأملُ شجاعٍ له نابٌ حديدُ
نفعكمُ
شَكَرْتُمْ فِعْلَهُ لَوْ رُؤوسَ الأفاعي عَضِي لا
عَصَصْتُمْ
يتهبُّ

وقال الحارث دعيُّ الوليد، في ذكر الأسودِ بالسَّمِّ من بين الحيَّات:

أنتَ أَقَرَرْتَ العَدَاةَ عُرِفْتُ وإلَّا كُنْتُ فِقْعَاءَ
بِنِسْبَتِي
وَيَسْمَتُ أَعْدَاءُ وَيَجْدَلُ عَمَرْتُ لَهُم سُمَّاً عَلَى رَأْسِ
كاشِحُ
أَسْوَدِ

وقال آخر:

وَمَعَشِرٍ مُنْقِعٍ لِي فِي سُمَّ الأَسَاوِدِ يَغْلِي فِي
صُدُورِهِمْ
وَسَمْتُهُم بِالقَوَافِي فَوْقَ وَسَمِّ المَعِيدِيِّ أَعْنَاقِ
أَعْيُنِهِمْ
المقَاحيدِ

وقال أبو الأسود:

أذنتني بواحدة جَعَلْتَهَا مِنْكَ آخِرَ الْأَبْدِ
أَلَّا تَبَرَّنِي أَبَدًا فَإِنَّ فِيهَا بَرْدًا عَلَى كَيْدِي
كَانَ رِزْقِي إِلَيْكَ فَارْمِ بِهِ نَاطِرِي حَيَّةً عَلَى رَصْدِ

وقال أَبُو السَّعَّاحِ يرثي أخاه يحيى بن عميرة ويسميه بالشجاع:

فلا تكذِبْ شِدَائِهِ عدا اللَّيْثُ بوادي السَّبَاعِ
عَزْمًا وَأَنَاةً مَعًا تُمَّتَ يَنْبَاعُ انْبِيَاءِ الشَّجَاعِ

وقال المتلمس:

فَأَطْرَقَ إِطْرَاقَ الشَّجَاعِ وَلَوْ مَسَاغًا لِنَابِيهِ الشُّجَاعِ
لَصَمَّمَا

وقال معمر بن لقيط أو ابن ذي القروح:

شَمُوسٌ يَظَلُّ الْقَوْمَ كَانَ ذَا حَزْمٍ مِنَ الْقَوْمِ
مَعْتَصِمًا بِهِ عَادِيَا

كَمَا بَاتَ الشَّجَاعُ إِلمُوَأَعْدُو عَلَى هَمِّي وَإِنْ بَتُّ
طَاوِيَا

أَهْضُ الصَّيْمِ مَنِّي رَهيفٍ وَشَيْخٍ مَاجِدٍ قَدْ بَتَّى
لِيَا

بصارم

وهكذا صفة الأفعى؛ لأنها أبدأ نابتة مستوية، فإن أنكرت شيئاً فنسبها كالبرق الخاطف، ووصف

آخر أفعى، فقال:

أُرَانِي بِطَوِيِّ الْحَسِّ وَذَاتِ قَرْيَيْنِ طَخُونِ
الضُّرْسِ

نَضَانِيَّةٌ مِثْلُ انْتِئَاءِ الْمَرْسِ عَيْنًا كَشَهَابِ الْقَبْسِ
التَّقِينَا بِمَضِيْقِ شَكْحَتِي قَنَصْتُ قَرْنَهَا بِحَمْسِ

وهم يتهاجون بأكل الأفاعي والحيات، قال الشاعر:

فإياكم والرِّيفَ لا تَقْرُبْنَهُ فَإِنَّ لَدِيهِ الْمَوْتَ وَالْحَتَمَ
قَاضِيَا

طَرِدُوكُمْ عَنِ بِلَادِ أَبِيكُمْ وَأَنْتُمْ حُلُولُ تَشْتَوُونَ
الْأَفَاعِيَا

وقال عمر بن أبي ربيعة:

فَقَدْتُ الصَّوْتِ مِنْهُمْ مَصَابِيحُ شُبَّتْ بِالْعِشَاءِ
وَأُطْفِئَتْ وَأَنْوُرُ
قُمَيْرٌ كُنْتُ أَرْجُو وَرُوحُ رُعيَانُ وَهَوَمٌ سُمَّرُ
مَغِيْبِهِ
وَنَقَضْتُ عَنِّي اللَّيْلَ أَقْبَلْتُ حُبَابٍ وَرُكْنِي خَيْفَةَ الْقَوْمِ
الْأَزْوَرُ

ضرب المثل بسم الأسود

وَصَرَبَ كَلثُومٌ بِنَ عَمْرٍو، المثل بسم الأسود، فقال:

عَلَى تَرْكِ الْغِنَى الدَّهْرُ عَنْهَا كُلَّ طَرْفٍ
بَاهِلِيَّةٍ وَتَالِدٍ
حَوْلَهَا النَّسْوَانِ يَرْفُلْنَ مَقْلَدَةً أَجْيَادُهَا بِالْقَلَائِدِ
الْكِسَا
يَسْرُكُ أَتَيْ نَلْتُ مَا نَالَ الْمَلِكُ أَوْ مَا نَالَ يَحْيَى
جَعْفَرُ
أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَعْصَمًا بِالْمَرْهَفَاتِ
أَعْصَنِي
تَجْنِي مِيْتِي وَلَمْ أَتَقَحَّمْ هَوْلَ تَلَكَّ
مُطْمِئِنَّةٍ الْمَوَارِدِ
كِرِيْمَاتِ الْمَعَالِي بِمَسْتَوْدَعَاتٍ فِي بَطُونِ
مَشْؤَبَةٍ الْأَسَاوِدِ

حيات الجبل

وفي التشنيع لحيات الجبل، يقول اللَّعِينُ الْمُقَرِّيُّ، لرؤبة بن العجاج:

أَنَا ابْنُ جَلَا إِنْ كُنْتُ رُؤْبَ وَالْحِيَّةُ الصَّمَاءِ فِي
تُعْرِفْنِي الْجَبَلِ

الأراجيزِ يا ابنَ اللؤمِ وفي الأراجيزِ جَلْبُ اللؤمِ
تُوعدني والكسَلِ

خبران في الحيات

الأصمعيُّ، قال: حدَّثني ابن أبي طرفة، قال: مرَّ قومٌ حُجَّاجٌ
من أهل اليمن مع المساء، برجلٍ من هُذيل، يقال له أبو
خِراش، فسألوه القَرَى، فقال لهم: هذه قدرٌ، وهذه مِسْقَاءٌ،
وبذلك الشَّعب ماء فقالوا: ما وقَّيتنا حقَّ قرانا فأخذ القِرْبَةَ
فتقلَّدها يسـقيهم، فنهشـته حَيَّة.

قال أبو إسحاق: بلغني وأنا حدث، أن النبي صلى الله عليه
وسلم نهى عن احتِثَاتِ فَمِ القِرْبَةِ، والشربِ منه، قال: فكنت
أقولُ إنَّ لهذا الحديثِ لشأناً، وما في الشربِ من فَمِ قِرْبَةٍ
حتَّى يجيء فيها هذا النهي؟ حتَّى قيل: إنَّ رجلاً شربَ من
فَمِ قِرْبَةٍ، فوكعته حَيَّةٌ فمات، وإنَّ الحَيَّاتِ تدخُلُ في أفواه
القِرَبِ، فَعَلِمْتُ أنَّ كُلَّ شيءٍ لا أعرفُ تأويلَه من الحديثِ، أنَّ
له مذهباً وإن جهلته.

قال الأصمعيّ: أخبرني أبو رفاعة، شيخٌ من أهل البادية، قال: رأيتُ في المنام كأنّي أتخطّى حَيَّاتٍ، فمطّرت السُّمَّاءَ، فجعلتُ أتخطّى سُمَّاءَ يولاً. وحكى الأصمعيّ أنّ رجلاً رأى في المنام في بيوته حَيَّاتٍ، فسأل عن ذلك ابن سيرينَ أو غيره، فقال: هذا رجلٌ يدخل منزله أعداءُ المسلمين، وكانت الخوارجُ تجتمعُ في بيته. شعر للعرجي والشماخ في الحيات قال العرجيُّ، في ديبب السمِّ في المنهوش:

وَأَشْرَبَ جِلْدِي حُبَّهَا وَمَكْتَمَشِي حُمَيَّا الكَاسِ فِي جِلْدِ

شَارِبِ

هَوَاهَا فِي عِظَامِي دَبَّ فِي المِلْسُوعِ سَمٌّ

العَقَارِبِ

وَحِبِّهَا

وقال العرجيُّ في العرماءِ من الأفاعي، وكونها في صُدُوعِ الصَّخْرِ، فقال:

يَلِيلٌ ذُو سَعَاءٍ بِهَا حَافِظٌ هَادٍ وَلَمْ أَرْقِ
فَسَلَّهَا

سَلْمًا شِهَابِ النَّارِ فِي كَفِّ إِذَا الرِّيحُ هَبَتْ مِنْ مَكَانٍ

تَصَرَّمًا

عَلَى الحَوَّاءِ حَتَّى حِمَاهُ مَحَامَاةٌ مِنَ النَّاسِ

فَاحْتَمَى

تَنَادَرُوا

مُشِيحًا سَامِعًا ثَمَّ بُعِثَتْ لَمْ تَأَلُ إِلَّا تَقَدُّمًا

قال: ويقال: تطوّت الحَيَّةُ، وأنشد العرجيُّ:

ذَكَرْتَنِي إِذْ حَيَّةٌ قَدْ تَطَوَّتْ عِنْدَ عَرْسِهِ فِي الثِّيَابِ

وقال الشَّماخُ، أو البَعِيثُ:

وَأَطْرَقَ إِطْرَاقَ الشَّجَاعِ وَقَدْ عَلَى حَدِّ تَابِيهِ الدُّعَافُ

المِسْمُ

ما ينيح من الحيوان والأجناس التي تُدَكَّرُ بالثُّبَاحِ: الكلب، والحَيَّةُ، والطَّبَّيُّ إذا أَسَنَّ، والهُدْهُدُ، وقد

كتبنا ذلك مرة ثَمَّ، قال أبو النُّجَم:

وباتت الأفعى على

مَحْفُورِهَا

والأسد قد تَسَمَعُ مِنْ

زئيرها

تَأْسِيرُهَا يَحْتَكُّ فِي مَرَّ الرَّحَى تَجْرِي عَلَى
تَأْسِيرُهَا شَعِيرُهَا
كَرْعَدَةَ الْجَرَاءِ أَوْ هَدِيرِ هَطْرُومِ الْقَضْبَاءِ فِي تَنْوَرِهَا
النَّفْسِ عَلَى تَوْقِيرِهَا الْأَشْيَاءِ فِي تَنْقِيرِهَا
عَاجِلِ النَّفْسِ وَفِي
تَأْخِيرِهَا

قول في آية وسنذكر مسألة وجوابها، وذلك أَنَّ ناساً زعموا
أَنَّ جميع الحيوان على أربعة أقسام، شيء يطير، وشيء
يمشي، وشيء يعوم، وشيء ينساح.
وقد قال الله عزَّ وجلَّ: "وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ، فَمِنْهُمْ
مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ،
وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ، يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ".
وقد وَضَعَ الكلامَ على قسمة أجناس الحيوان، وعلى
تصنيف ضروب الخلق، ثمَّ قَصَّرَ عن الشيء الذي وضع عليه
كلامه، فلم يذكر ما يطير وما يعوم، ثمَّ جعل ما ينساح، مثل
الحياتِ والديدان، ممَّا يمشي؛ والمشي لا يكون إلاَّ برجل،
كما أَنَّ العَضَّ لا يكون إلاَّ بفمٍ، والرَّمْح لا يكون إلاَّ بحافر؛
وذكر ما يمشي على أربع، وها هنا دوابُّ كثيرةٌ تمشي على

ثمانِ قوائِمَ، وعلى ستٍّ، وعلى أكثرَ من ثمانٍ، ومَن تَفَقَّدَ قوائِمَ السَّرطانِ وبناتِ وَرَدانَ، وأصنافَ العناكبِ عَرَفَ ذلكَ. قلنا: قد أخطأتم في جميع هذا التَّأويلِ وَحَدِّهِ، فما المَدَّلِيلُ على أَنَّهُ وضعَ كلامَهُ في استقصاءِ أصنافِ القوائِمِ؟ وبأَيِّ حُجَّةٍ جَزَمْتُم على ذلكَ؟ وقد قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: "وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ" وَتَرَكَ ذِكْرَ الشَّيَاطِينِ وَالنَّارِ لَهُمْ آكُلُ، وعذابُهُم بها أَشَدُّ، فَتَرَكَ ذِكْرَهُم من غيرِ نسيانٍ، وعلى أَنَّ ذلكَ معلومٌ عندَ المخاطبِ، وقد قال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: "خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْقَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا" أخرجَ من هذا العمومِ عيسى ابنَ مريمَ، وقد قَصَدَ في مخرَجِ هذا الكلامِ إلى جَميعِ وِلدِ آدمَ، وقالَ: "هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنْ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكَوراً" أَدخَلَ فيها آدمَ وحوَّاءَ، ثُمَّ قالَ على صلةِ الكلامِ: "إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْقَةٍ أَمْشَاجٍ تَبْتَلِيهِ" أخرجَ منها آدمَ وحوَّاءَ وعيسى ابنَ مريمَ. وَحَسُنُ ذلكَ إِذْ كانَ الكلامُ لم يُوضَعِ على جميعِ ما تعرفه

النُّفُوسُ مِنْ جِهَةِ اسْتِقْصَاءِ اللَّفْظِ، فَقَوْلُهُ: "فَمِنْهُمْ مَنْ
يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ
يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ" كَانَ عَلَى هَذَا الْمِثَالِ الَّذِي ذَكَرْنَا، وَعَلَى
أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ فَهُوَ مِمَّا يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ،
وَالَّذِي يَمْشِي عَلَى ثَمَانٍ هُوَ مِمَّا يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ، وَعَلَى
رِجْلَيْنِ وَإِذَا قُلْتَ: لِي عَلَى فُلَانٍ عَشْرَةُ آلَافٍ دِرْهَمٍ، فَقَدْ
خَبَّرْتَ أَنَّ لَكَ عَلَيْهِ مَا بَيْنَ دِرْهَمٍ إِلَى عَشْرَةِ آلَافٍ.
وَأَمَّا قَوْلُكُمْ: إِنَّ الْمَشِيَّ لَا يَكُونُ إِلَّا بِالرَّجْلِ، فَيَنْبَغِي أَيْضًا أَنْ
تَقُولُوا "فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى" إِنَّ ذَلِكَ خَطَأٌ؛ لِأَنَّ السَّعْيَ لَا
يَكُونُ إِلَّا بِالرَّجْلِ.

وَفِي هَذَا الَّذِي جَهِلْتُمُوهُ ضَرْبٌ مِنَ الْجَوَابِ: أَمَّا وَجْهُ مِنْهُ:
فَهُوَ قَوْلُ الْقَائِلِ وَقَوْلُ الشَّاعِرِ: مَا هُوَ إِلَّا كَأَنَّهُ حَيَّةٌ وَكَأَنَّ
مِشِيَّتَهُ مِشِيَّةُ حَيَّةٍ يَصِفُونَ ذَلِكَ، وَيَذْكُرُونَ عِنْدَهُ مِشِيَّةَ الْأَيْمِ
وَالْحُبَابِ، وَذِكُورِ الْحَيَّاتِ، وَمَنْ جَعَلَ لِلْحَيَّاتِ مَشِيًّا مِنَ
الشُّعْرَاءِ، أَكْثَرُ مِنْ أَنْ نَقِفَ عَلَيْهِمْ، وَلَوْ كَانُوا لَا يَسْمُونَ

انسيابها وانسيابها مشياً وَسَعِيًّا، لكان ذلك مما يجوزُ على التشبيه والبدل، وَأَنْ قَامَ الشَّيْءُ مَقَامَ الشَّيْءِ أَوْ مَقَامَ صاحبه؛ فمن عادة العرب أن تشبّه به في حالاتٍ كثيرة، وقال الله تعالى: "هَذَا نُزِّلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ" والعذاب لا يكون نُزْلاً، وَلَكِنَّهُ أَجْرَاهُ مُجْرَى كَلَامِهِمْ، كقول حاتمٍ حينَ أمْرُوهُ بِقَصْدِ بَعِيرٍ، وَطَعَنَهُ فِي سَنَامِهِ، وقال: هَذَا فَصْدُهُ.
وقال الآخر:

يا عمرو اطعمني فكان تمرى كَهَرَةً وَزَبْرًا

وذمّ بعضهم الفأر، وذكر سوءَ أثرها في بيته، فقال:

عَجَلَ الرَّحْمَنُ بِالْعِقَابِ لِعَامِرَاتِ الْبَيْتِ بِالْخِرَابِ

يقول: هذا هو عمارتها، كما يقول الرَّجُلُ، مَا تَرَى مِنْ خَيْرِكَ وَرَفْدِكَ إِلَّا مَا يَبْلُغُنَا مِنْ حَطْبِكَ عَلَيْنَا،

وَقَدْ فُكَّ فِى أَعْضَادِنَا.

وقال الثّابغة في شبيهٍ بهذا، وليس به:

عيبَ فيهم غيرَ أنَّ فلولُ من قِراعِ الكتائبِ

سيوفهم

ووجهُ آخر: أنَّ الأعرابَ تزعمُ - وكذلك قال ناسٌ من

الحوّائين والرّقائين - إنَّ للحيةَ حزوزاً في بطنه، فإذا مَشَى

قامت حُرُوزُهُ، وإذا تَرَكَ المَشْيَ تراجعتُ إلى مكانها،

وعادت تلك المواضع مُلْسًا، ولم تُوجَدِ بَعَيْنٍ ولا لَمْسٍ، ولا
يَبْلُغُهَا إِلَّا كُلُّ حَوَاءٍ دَقِيقِ الْجِسِّ. وليس ذلك بأعجبَ من
شِقْشِقَةِ الْجَمَلِ الْعَرَبِيِّ؛ فَإِنَّهُ يَظْهَرُهَا كَالدَّلْوِ، فَإِذَا هُوَ أَعَادَهَا
إِلَى لَهَاتِهِ تَرَاجَعَ ذَلِكَ الْجِلْدُ إِلَى مَوْضِعِهِ، فَلَا يَقْدِرُ أَحَدٌ عَلَيْهِ
بِلَمْسٍ وَلَا عَيْنٍ، وَكَذَلِكَ عُرُوقُ الْكُلْيِ إِلَى الْمِثَانَةِ الَّتِي يَجْرِي
فِيهَا الْحَصَى الْمَتَوَلِّدُ فِي الْكُلْيَةِ إِذَا قَدَفْتُهُ تِلْكَ الْعُرُوقُ إِلَى
الْمِثَانَةِ، فَإِذَا بَالَ الْإِنْسَانُ انضَمَّت الْعُرُوقُ وَاتَّصَلَتْ بِأَمَاكِنِهَا،
والتحمت حتى كان موضعها كسائر ما جاوز تلك الأماكن.
ووجهُ آخر: وهو أنَّ هذا الكلامَ عربيٌّ فصيحٌ؛ إذ كانَ الَّذِي
جاءَ به عربيًّا فصيحًا، ولو لم يكنْ قرآنًا من عند الله تبارك
وتعالى، ثمَّ كانَ كلامَ الَّذِي جاءَ به، وكانَ ممَّنْ يجهلُ اللَّحْنَ
ولا يعرفُ مواضعَ الأسماءِ في لُغَتِهِ، لكانَ هذا - خاصَّةً - ممَّا
لا يجهلُ

فلو أنَّنا لم نجعلْ لمحمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، فضيلةً في
نُبُوَّةٍ، ولا مزيَّةً في البيانِ والفصاحةِ، لكنَّا لا نجدُ بُدًّا من أن

نعلم أنَّه كواحدٍ من الفصحاءِ، فهل يجوزُ عندكم أن يخطئَ
أحدُ منهم في مثلِ هذا في حديثٍ، أو وصفٍ أو خُطبةٍ، أو
رسالةٍ، فيزعمُ أن كذا وكذا يمشي أو يسعى أو يطير، وذلك
الذي قال ليس من لغته ولا من لغة أهله؟ فمعلومٌ عندَ هذا
الجوابِ، وعند ما قبله، أنَّ تأويلكمُ هذا خطأً.
وقال الله عزَّ وجلَّ: "إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ
فَاكِهِونَ" وأصحابُ الجنة لا يوصفون بالشُّغْلِ، وإمَّا ذلك
جوابٌ لقول القائل: خبِّرنِي عن أهل الجنة، بأيِّ شيءٍ
يتشغلون؟ أم لهم فراغٌ أبداً؟ فيقول المجيب: لا، ما
شُغِّلهم إلَّا في افتضاضِ الأبقار، وأكلِ فواكه الجنة، وزيارةِ
الإخوانِ على نجاتِ اليـاقوتِ .
وهذا على مثالِ جوابِ عامر بن عبد قيس، حين قيل له وقد
أقبل من جهة الحلبه، وهو بالشام: مَنْ سَبَقَ؟ قال: رسول
الله صلى الله عليه وسلم قيل: فَمَنْ صَلَّى؟ قال: أبو بكر
قال: إِنَّمَا أَسْأَلُكَ عَنِ الْخَيْلِ قَالَ: وَأَنَا أَجِيبُكَ عَنِ الْخَيْرِ.

وهو كقول المفسر حين سُئل عن قوله: "لَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا" فقال: ليس فيها بُكْرَةٌ وَعَشِيٌّ، وقد صدق القرآن، وصدق المفسر، ولم يتناكرا، ولم يتنافيا؛ لأنَّ القرآن ذهب إلى المقادير، والمفسر ذهب إلى الموجود، من دوران ذلك مع غروب الشمس وطلوعها. وعلى ذلك المعنى روي عن عمر أنه قال: مُتَعَتَانِ كَانَتَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَا أَنْتَهُي عَنْهُمَا وَأَضْرَبُ عَلَيْهِمَا.

قد كان المسلمون يتكلمون في الصلوة ويطبِّقون إذا ركعوا، فنَهَى عن ذلك إمامٌ من الأئمة، وَصَرَبَ عَلَيْهِ، بعد أن أظهر النَّسخ، وعَرَّفَهُمْ أَنَّ ذَلِكَ مِنَ الْمَنْسُوحِ، فَكَأَنَّ قَائِلًا قَالَ: أَتْنَاهَا عَنْ شَيْءٍ، وَقَدْ كَانَ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَقُولُ: نَعَمْ، وَقَدْ قَدَّمَ الْاِحْتِجَاجَ فِي النَّاسِخِ وَالْمَنْسُوحِ.

ومن العَجَبِ أَنَّ نَاسًا جَعَلُوا هَذَا الْقَوْلَ عَلَى الْمِنْبَرِ مِنْ

عيوبه، فإن لم يكن المعنى فيه على ما وصفنا، فما في الأرضِ أَجْهَلُ من عُمَرَ حين يُظْهِرُ الكُفْرَ في الإسلامِ على منبر الجماعة، وهو إِنَّمَا علاه بالإسلام، ثمَّ في شيءٍ ليس له حُجَّةٌ فيه ولا عِلَّةٌ، وأَعْجَبُ منه تلك الأُمَّة، وتلك الجماعة التي لم تُنَكِرْ تلك الكلمة في حياته، ولا بَعْدَ موته؛ ثمَّ تَرَكَ ذلك جميعُ التَّابعين وأتباعِ التَّابعين، حتَّى أَفْضَى الأمرُ إلى أَهْلِ دَهْرِنَا هَذَا.

وتلك الجماعة هم المذنبون قتلوا عُثْمَانَ على أن سيَّر رجلاً، وهذا لا يقوله إلاَّ جاهلٌ أو معاند، وعلى تأويل قوله: "هَذَا نُزِّلَهُمْ يَوْمَ الدِّينِ" قال: "جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ المَهَادُ" وقال تعالى: "حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فَتَحْتِ أَبْوَابَهَا وَقَالَ لَهُمْ خَرَئْتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا، قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ العَذَابِ عَلَى الكَافِرِينَ" فجعل للنَّارِ خزائن، وجعل لها خزنة، كما جعل في الجَنَّةِ خزائن وجعل لها خزانة.

ولو أن جهنم فُتحت أبوابها، ونُحي عنها الخزنة، ثم قيل لكلِّ لصٍّ في الأرض، ولكلِّ خائن في الأرض: دونك؛ فقد أُبيحت لكلِّ ما دنا منها، وقد جعل لها خزائن وخزنة، وإنما هذا على مثال ما ذكرنا، وهذا كثير في كلام العرب. والآي التي ذكرنا في صدق هذا الجواب، كلها حُجج على الخوارج في إنكارهم المنزلة بين المنزلتين. شعر لخلف الأحمر في الحيات وقال خلف الأحمر في ذكر الحيات:

الموت دوني أن
رأوني
المتحرمات بكهف
وصلُّ صفاً لنابيه ذباب
حرامٍ ما يرام له جناب
الحاوون أن يطئوا
حماه
تسرى بعقوته الذئاب
دماً أمير على قراوقطراناً أمير به كباب
استجرس الأصوات
دونه الموت الضباب
الليل ألبسته دحاه
سرى أصمى تصيح له
الشعاب

فقلت لحيان بن عتي: لِمَ قال موسى بن جابر الحنفي:

الأروى فما تقرُّبه وتَقَى الحياتِ عن بيض

الحجله

قال: لَأَنَّ الدُّنَابَ تَأْكُلُ الحَيَّاتِ، قلت: فلم قال خلف الأحرار:

تسري بعقوته الذئاب

قال: لَأَنَّ الدُّنَابَ تَأْكُلُ الحَيَّاتِ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُ حَدَسَ وَلَمْ يَقُلْ بعلم.

وقال الزبدي في يحيى بن أبي حفصة:

ويحيى وما يبغى صَيْدًا وما نال منه الرِّيَّ
كملتِ مس والشبعا
إلى باب جحرٍ في العَسِيبِ تَرَى في رأسه
مقدمه قَزَعَا
أزبدُ والأنيابُ تَرَى السُّمَّ يجري بينها
شايكة قِطْعَا
إلى الصَّوْتِ والظلماءُ عَرَدَ السَّيْلِ لاقى الحَيْدَ
فاطلعا
كفك آبت منه بِيضَاءَ قد جللت أنيابها
مخضبة قَزَعَا
بوكسٍ قليلٍ فاستقل من الهزالِ أبوها بعد ما
ركعا

فردَّ عليه يحيى فقال:

حيّة ترهبُ الحياتُ يَحْمَى لِرَيْدِيهِ قد غادرته
صولته قِطْعَا
يلقن حية قفَّ ذا يُسْقَى به القِرْنُ من كأس
مساورة الرّدى جُرْعَا
تسقط منهنّ الجلودُ يعلمنّ منه إذا عايته
قَزَعَا
ما شمّ من خضراءَ أو مسّ من حجر أوهاه
أبيسها

شعر في الحيات وقال آخر:

طوت من حنشٍ راصلٍ لسفر في أعلى الثنيات

أعمى لا يجيب الرقيفترا عن عصيلٍ حديدات
منهت الشدق رقود سارٍ طموورٍ في الدجنات
الضحى

هامة رقطاع مفطوحة من الدواهي الجبليات
صفاً تنطف أنيابه سممام ذيفانٍ مجيرات
في اللحين مطلاً رأس وأشداقٍ رحيبات

عن ضرسين
واستأخرا إلى سماخين ولهوات

الصبح وطوراً له نفخٌ ونفثٌ في المغارات
تحسبه ميتاً طول إطراق وإخبات

قال آخر، وهو جاهليٌّ:

إن كان أبو عمروٍ وخانني في علمه وقد

علم فابعث له في بعض أعراضلميمةً من حنشٍ أعمى
أصم

زحافاً من الرقط عاش حتى هو لا يمشي

العرم بدم

أقصد منه الجوع حتى إذا أمسى أبو عمروٍ

ولم

منه مضضٌ ولا قام وود بعدها أن لم

سقم يقم

يقم لإبل ولا غنم لخوفٍ راعه ولا لهم

دنا من رأس نضناضٍ فخاضه بين الشراك

والقدم

بمذربٍ أخرجته من كأن وخز نابه إذا

انتظم

غم

ومخالب الأسد وأشباهِ الأسد من السَّبَاع، تكون في عُلفٍ،
إذا وطئت على بَطُونِ أَكْفِهَا تَرْفَعَتِ الْمَخَالِبُ وَدَخَلَتْ فِي
أَكْمَامِ لَهَا، وَهُوَ قَوْلُ أَبِي زُبَيْدٍ:

كالمحاجن في فتوح قِصَّةِ الأَرْضِ الدَّخِيسِ
وكذلك أنياب الأفاعي، هي ما لم تعضَّ قَمْصُوتُهُ في أكمام، ألا تراه يقول:

فَخَاصَهُ بَيْنَ الشَّرَاكِ وَالْقَدْرَمِ أَخْرَجَهُ مِنْ جَوْفِ كِمِّ
رجز وشعر في لعاب الحية وقال آخر:

نضناضاً كَثِيرَ الصَّقْرِ مَوْلده كَمَوْلِدِ ابْنِ الدَّهْرِ
جَمِيعاً وُلْدًا فِي شَهْرِ يَظَلُّ فِي مَرَأَى بَعِيدِ القَعْرِ
حَوَافِي سَدِيرٍ وَصَحْرِ

وقال:

وقد أسهزت عَيْنَكَ عِنَاداً لِتَابِي حَيَّةٍ قَدْ تَرَبَّدَا
الصُّمُّ يَكْفِي مَرَّةً مِنْ عَادَ إِلاَّ كَانَ فِي الْعَوْدِ
أَحْمَدًا

شعر لخلف في الأفعى وقال خلفُ الأحمر وهي مخلوطةٌ فيها شيء، وله شيء، من العبرة وما
علمتُ أنَّ وصف عَيْنِ الأفعى على معرفةٍ واختبار غيره وهو قوله:

رُخُوفِ العَيْنِ مِطْرَاقٍ دَاهِيَةٍ قَدْ صَغُرَتْ مِنْ
البُكْرِ الكِبْرِ
صَفَاً مَا يَنْطَوِي مِنَ الإِطْرَاقِ مِنْ غَيْرِ حَسْرٍ
القِصْرُ طَوِيلَةٌ
قَدْ ذَهَبَتْ بِهِ شُقَّتْ لَهُ العَيْنَانِ طَوِلاً فِي
الفِكْرِ
مَهْرُوتَةَ الشَّدَقَيْنِ حَوْلَاءَ جَاءَ بِهَا الطُّوفَانُ أَيَّامَ
النَّظْرِ
رَحْرُ

صوت جلدِها إذا نَشِيشُ جمر عند طاهٍ

مقتدرٌ

استدرٌ

أحاديث في الوزغ هشام بن عروة قال: أخبرني أبي أن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها كانت تَقْتُلُ الأَوْزَاعَ، يحيى بن أبي أنيسة، عن الزُّهري، عن عروة، عن عائشة قالت: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول للوزغ: "فويبي" _____ "ق".

قالت: "ولم أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرَ بقتلِ" _____ "ه".

قال: قالت عائشة رضي الله عنها: "سمعت سعداً يقول: أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتله. عبد الرحمن بن زياد قال: أخبرني هشام عن عروة عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للوزغ: "الفويسق" أبو بكر الهذلي، عن معاذ عن عائشة قالت: دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم عليّ وفي يدي عُكَّازٌ فيه رُجٌّ، فقال: يا عائشة ما تصنعين بهذا؟ قلت: أقتلُ به الوزغَ

في بيتي، قال: إن تفعلني فإنَّ الدَّوَابَّ كلها، حين ألقى إبراهيمُ صلى الله عليه وسلم في النَّارِ، كانت تُطفئُ عنه، وإنَّ هذا كانَ ينفخُ عليه، فَصَمَّ وبَرِصَ. وهذه الأحاديثُ كلها يحتجُّ بها أصحابُ الجهالاتِ، وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ الأشياءَ كلها كانتُ ناطقةً، وأنها أممٌ مجراها مجرى الناسِ. تأوَّل آيات من الكتابِ وتأوَّلوا قوله تعالى: "وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَّمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا قَرَّرْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ"، وقالوا: قال الله عزَّ وجلَّ: "إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا" وقال تعالى: "يَا جِبَالُ أَوْبِي مَعَهُ وَالطَّيْرُ" وقال: "وَإِنَّ مِنَ الْجِبَارَةِ لِمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لِمَا يَشَقُّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لِمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ". فذهبت الجهمية وَمَنْ أَنْكَرَ إيجاد الطُّبائعِ مذهباً، وذهب ابنُ حائطٍ ومن لَفَّ لَفَّهُ من أصحابِ الجهالاتِ مذهباً، وذهب ناسٌ

من غير المتكلمين، واتبَعوا ظاهرَ الحديثِ وظاهرَ الأشعارِ،
وزعموا أنَّ الحجارةَ كانت تَعْقِلُ وتَنْطِقُ، وإِذَا سُلِبَتِ المَنْطِقُ
فقط، فَأَمَّا الطيرُ والسُّباعُ فعلى ما كانت عليه.
قالوا: وَالْوَطواطُ، وَالصُّرَدُ، وَالضَّفدَعُ، مَطِيعَاتٌ وَمُثَابَاتٌ
وَالعقربُ، وَالحيَّةُ وَالجِدَاةُ، وَالغرابُ، وَالوَزَعُ، وَالكلبُ، و
أشبههُ ذلِكَ، عاصياتٌ معاقباتٌ.
ولم أقف على واحدٍ منهم فأقول له: إِنَّ الوَزْعَةَ التي تقتلها
على أَنَّها كانت تُضْرِمُ النَّارَ على إبراهيمَ أَهي هذه أم هي من
أولادِها فمأخوذة هي بَدَنبِ غيرها؟ أم تزعم أَنَّهُ في المعلوم
أَنْ تكون تلكَ الوَزْعُ لا تلد ولا تَبِيضُ ولا تُفْرِحُ إِلَّا من ثيدين
بدينها، ويذهبُ مذهبها؟ وليس هؤلاء مِمَّنْ يَفْهَمُ تَأويلَ
الأحاديثِ، وَأَيُّ ضَرْبٍ منها، يكون مردوداً، وَأَيُّ ضَرْبٍ منها
يكون متأولاً، وَأَيُّ ضَرْبٍ منها يقال إِنَّ ذلِكَ إِنَّمَا هو حكايةٌ عن
بَعْضِ القبائلِ.

ولذلك أقولُ: لولا مكانُ المتكلمين لهلكت العوامُّ، واخْتُطِفَتْ

واسْتُرِقَتْ، ولولا المعتزلة لهلك المتكلمون.
أحاديث في قتل الوزع شريكٌ عن النَّحْمِيِّ، عن ليث، عن
نافع، أن ابن عمر كان يقتلُ الوزع في بيته ويقول هو
شيطان.

هشام بن حسان، عن خالد الرَّبِيعِيِّ، قال: لم يكن شيءٌ من
خَشاشِ الأرض إلاَّ كان يُطفئُ النَّارَ عن إبراهيم، إلاَّ الوزع،
فإنَّه كان ينفخ عليه.

حنظلة بن أبي سفيان، قال: سمعت القاسم بن محمد يقول
إنَّ الأوزع كانت يوم حُرِقَ بيت المقدس تنفخه والوطاوط
بأجنحتها.

شريكٌ عن النَّحْعِيِّ، عن جابر، عن ابن عباس، قال: الوزع
شريكُ الشيطان.

أبو داود الواسطيُّ قال: أخبرنا أبو هاشم، قال: مَنْ قَتَلَ
وزعاً حطَّ الله عنه سبعين خَطِيئَةً، ومن قتل سبعاً كان كَعْتَقِ
رَقَبَةٍ.

هشامُ بن حسان، عن واصل مولى أبي عيينة، عن عقيل، عن يحيى بن يعمر، قال: لَأَنْ أَقْتَلَ مَائَةً مِنَ الْوَزَعِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُعْتِقَ مَائَةَ رَقَبَةٍ.

وهذا الحديث ليس من شكل الأول، لأنَّ يحيى بن يعمر لم يزعم أنَّه يقتله لكفره أو لكفر أبيه، ولكنها دابة تُطاع الحيات وتراقها وتقاربها، وربما قتلت بعصتها، وتكرع في المرق واللبن ثم تمجّه في الإناء فينال الناس بذلك مكروه كبير، من حيث لا يعلمون، وقتله في سبيل قتل الحيات والعقارب.

صنع السم من الأوزاغ وأهل السّجن يعملون منها سموماً أنفذ من سمّ البيش، ومن ريق الأفاعي، وذلك أنّهم يدخلون الوزع قارورة، ثمّ يصبون فيها من الزيت ما يغمزها، ويضعونها في الشمس أربعين يوماً، حتّى تختلط بالزيت وتصير شيئاً واحداً، فإنّ مسح السّجين منه على رغيّف مسحة يسيرة فأكل منه عشرة أنفس ماثوا، ولا أدري لم

تَوَخَّوْا مِنْ مَوَاضِعِ الْمَدْفِنِ عَتَبَ الْأَبْوَابِ.
حديث فيه نصائح يحيى بن أبي أُنَيْسَةَ، عن أبي الزُّبَيْرِ، عن
جابر بن عبد الله، قال: أَمَرْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وسلم بأَرْبَعٍ وَنَهَانَا عَنْ أَرْبَعٍ، أَمَرْنَا أَنْ نُجِيفَ أَبْوَابَنَا، وَأَنْ نَحْمَرَ
أَنْبِتْنَا، وَأَنْ نُوَكِّيَ أَسْقِيَّتَنَا، وَأَنْ نُطْفِئَ سُرُجَنَا، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ
إِذَا وَجَدَ بَابًا مُجَافًا لَمْ يَفْتَحْهُ، وَإِنَاءً مَحْمَرًا لَمْ يَكْشِفْهُ، وَسَقَاءً
مُوكَّيًّا لَمْ يَحْلِهِ، وَإِنَّ الْفُؤَيْسِقَةَ تَأْتِي الْمَصْبَاحَ فَتُضْرِمُهُ عَلَى
أَهْلِ الْبَيْتِ، وَنَهَانَا عَنْ أَرْبَعٍ: نَهَانَا عَنْ اشْتِمَالِ الصَّمَاءِ، وَأَنْ
يَمْشِيَ أَحَدُنَا فِي النَّعْلِ الْوَاحِدِ أَوْ الْخُفِّ الْوَاحِدِ، وَأَنْ يَحْتَبِيَ
الرَّجُلُ مَنَّا فِي الثَّوْبِ الْوَاحِدِ لَيْسَ عَلَيْهِ غَيْرُهُ، وَأَنْ يَسْتَلْقِيَ
أَحَدُنَا عَلَى ظَهْرِهِ وَيَرْفَعَ إِحْدَى رِجْلَيْهِ عَلَى الْآخَرَى.
وهذا الحديث ليس هذا موضعه، وهو يقع في باب جملة
القول في النار، وهو يقع بعد هذا الذي يلي القول في النعام.

ما جاء في الحيات من الحديث

شعبة أبو بسطام، قال أخبرني أبو قيس، قال: جلست إلى
علقمة بن قيس، وربيع بن خثيم فقال ربيع: قولوا وافعلوا
خيراً تُجْزَوْا خيراً، وقال علقمة: مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَلَّا يَرَى
الْحَيَّةَ، إِلَّا قَتَلَهَا إِلَّا الَّتِي مِثْلَ الْمِيلِ؛ فَإِنَّهَا جَانٌّ، وَإِنَّهُ لَا يَضُرُّهُ
قَتْلُ حَيَّةٍ أَوْ كُفْرًا.

إسماعيل المكي، عن أبي إسحاق، عن علقمة قال: قال عبد
الله بن مسعود: مَنْ قَتَلَ حَيَّةً فَقَتَلَ كَافِرًا.
ثم سمعت عبد الرحمن بن زيد يقول: مَنْ قَتَلَ حَيَّةً أَوْ عَقْرَبًا
قَتَلَ كَافِرًا. وهذا ممَّا يتعلَّق به أصحابُ ابن حنبلٍ، وتأويله
ففي الحديث الآخر.

عبد الرحمن بن عبد الله المسعودي قال: سمعت القاسم
بن عبد الرحمن، يقول: قال عبد الله: مَنْ قَتَلَ حَيَّةً أَوْ عَقْرَبًا
فكَأَنَّمَا قَتَلَ كَافِرًا، فعلى هذا المعنى يكونُ تأليفُ الحديث.
سعيد بن أبي عَرُوبَةَ، عن قتادة أن رسول الله صلى الله عليه
وسلم قال: "مَا سَأَلْتَاهُنَّ مُدَّ حَارِبَتَاهُنَّ".

سعيد بن أبي عروبة عن قتادة، قالت عائشة: "مَنْ تَرَكَ قَتْلَ حَيَّةٍ مَخَافَةَ أَثَرِهَا فَعَلِيهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ".
الزبيعي بن صبيح عن عطاء الخراساني قال: كان فيما أُخِذَ على الحياتِ أَلَّا يَظْهَرْنَ، فَمَنْ ظَهَرَ مِنْهُنَّ حَلَّ قَتْلَهُ، وَقِتَالَهُنَّ كَقِتَالِ الْكُفَّارِ، وَلَا يَتْرُكُ قَتْلَهُنَّ إِلَّا تَشَاكُؤًا.
وهذا ممَّا يتعلَّق به أصحابُ ابنِ حاطبٍ.
محمد بن عجلان قال: سمعت أبي يحدث عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَا سَأَلْتَاهُنَّ مُنْذُ حَارَبْتِنَاهُنَّ".

ابن جريج قال: أخبرني عبد الله بن عبيد بن عمير قال: أخبرني أبو الطفيل أنه سمع علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: اقتلوا من الحياتِ ذا الطفيتين، والكلب الأسود البهييم ذا العُرَّيَيْنِ.
قال: والغُرَّة: حُوءة تكوون بعينيه.
طعام بعض الحيوان قال صاحب المنطق: الطير على

ضربين: أوابدٌ وقواطعٌ، ومنه ما يأكل اللحم لا يأكل غيره وإن لم يكن ذا سلاح، فأما ذو السلاح فَوَاجِبٌ أن يكون طعامه اللحم، ومن الطير ما يأكل الحبوبَ لا يعُدُّوها، ومنه المشترك الطباع، كالعضفور والمدجاج والغراب، فإنها تأكل النوعين جميعاً، وكطير الماء، يأكل السمك ويلقط الحب، ومنه ما يأكل شيئاً خاصاً، مثل جنس النحل المعسل الذي غذاؤه شيء واحد، وجنس العنكبوت، فإن طعم النحل المعسل العسل، والعنكبوت يعيش من صيد الذباب. ما له مسكن من الحيوان ومن الحيوان ما له مسكن ومأوى، كالخلد، والفأر، والنمل، والنحل، والضب، ومنه ما لا يتخذ شيئاً يرجع إليه كالحيات لأن ذكورة الحيات سيارة، وإنائها إنما تُقيم في المكان إلى تمام خروج الفراح من البيض، واستغناء الفراح بأنفسها، ومنها ما يكون يأوي إلى شقوق الصُّخور والحيطان، والمداخل الصيقة، مثل سام أبرص.

قال: والحيّات تآلفها كما تآلف العقاربُ الخنافس، والعظايا
تآلف المزابلَ والخراباتِ، والوزعُ قريبةٌ من النَّاسِ.

زعم زرادشت في العظايا وسوامّ أبرص

وزعم زَرَادَشْتُ أَنَّ العظايا ليستُ من ذواتِ السُّمومِ، وأنَّ
سامَّ أبرصَ من ذواتِ السُّمومِ، وأنَّ أهرمن لما قعد ليقسيمَ
السُّمومَ، كان الحظ الأوفُرُ لكلِّ شيءٍ سبقَ إلى طلبه،
كالأفاعي، والتَّعابين والجرّاراتِ، وأنَّ نصيبَ الوزعِ نصيبُ
وسَطُ قُصْدٍ، لا يكمل أن يقتل، ولكنّه يزاقُ الحيّة، فتميرُهُ
مما عندها، ومتى دَبَرَ الوزعُ جاءَ منه السُّمُّ القاتل، أسرعَ
من سمِّ البيش، ومن لعاب الأفاعي، فأما العظاية فإنّها
احتبستُ عن الطَّلَبِ حتى نَقَدَ السُّمُّ، وأخذ كلُّ شيءٍ
قِسْطَهُ، على قَدْرِ السَّبْقِ والبكور، فلما جاءت العظاية وقد
فني السُّمُّ، دخلها من الحسرة، ومما علاها من الكِزْبِ، حتى
جعلت وجهها إلى الخرابات والمزابيل، فإذا رأيت العظاية
تمشي مشياً سريعاً ثمّ تقفُ، فإنَّ تلك الوقفة إنّما هي لما

يعرضُ لها من التذكُّر والحسرة على ما فاتها مِنْ نصيبها من
السُّمِّ.

رد عليه ولا أعلم العظايةَ في هذا القياس إلا أكثر سُروراً
من الوزغ؛ لأنها لولا إفراط طباعها في الشرارة، لم يدخلها
من قوَّة الهمِّ مثلُ الذي دخلها ولم يستبِن للنَّاس من اغتباط
الوزغ بنصيبه من السُّمِّ، بقدر ما استبان من تُكل العظاية،
وتسلُّها وإحضرارها وبكائها وحُزنها، وأسفها على ما فاتها من
السُّمِّ.

زعم زرادشت في خلق الفأرة والسُّنَّور ويزعم زرادشت،
وهو مذهبُ المجوس، أنَّ الفأرة مِنْ خلق الله، وأنَّ السُّنَّور
من خَلق الشَّيطان، وهو إبليس، وهو أَهْرَمَن، فإذا قيل له:
كيف تقول ذلك والفأرة مُفسِدةٌ، تجذب فتيلة المِصباحِ
فتحرق بذلك البيتَ والقبائلَ الكثيرةَ، والمدنَ العظامَ،
والأرباضَ الواسعةَ، بما فيها من النَّاسِ والحيوانِ والأموالِ،
وتقرضُ دفاتر العُلَم، وكتبَ اللّهُ، ودقائق الحسابِ،

وَالصَّكَاكَ، وَالشُّرُوطَا؛ وَتَقْرِضُ النَّيَّابَ، وَرَبَّمَا طَلَبْتَ الْقُطْنَ
لِتَأْكُلَ بِزُرَّةٍ فَتَدَعُ اللَّحَافَ غَرْبَالًا، وَتَقْرِضُ الْجُرْبَ، وَأَوْكِيَةَ
الْأَسِيقِيَّةِ وَالْأَزْقَاقِ وَالْقَرَبِ فَتَخْرُجُ جَمِيعَ مَا فِيهَا؛ وَتَقَعُ فِي
الْأَنِيَّةِ وَفِي الْبُئْرِ، فَتَمُوتُ فِيهِ وَتُخَوِّجُ النَّاسَ إِلَى مُؤْنِ عِظَامٍ؛
وَرَبَّمَا عَصَّتْ رِجْلَ النَّائِمِ، وَرَبَّمَا قَتَلَتْ الْإِنْسَانَ بَعْضَتِهَا،
وَالْفَارَ بِخُرَاسَانَ رَبَّمَا قَطَعَتْ أُذُنَ الرَّجُلِ، وَجِرْدَانُ أَنْطَاكِيَّةٍ
تَعْجِزُ عَنْهَا السَّنَانِيرُ، وَقَدْ جَلَا عَنْهَا قَوْمٌ وَكَرَهَهَا آخَرُونَ
لِمَكَانِ جِرْدَانِهَا، وَهِيَ الَّتِي فَجَرَتْ الْمَسْنَاءَ، حَتَّى كَانَ ذَلِكَ
سَبَبَ الْحَسْرِ بِأَرْضِ سَبَأٍ؛ وَهِيَ الْمَضْرُوبُ بِهَا الْمَثَلُ، وَسَيْلُ
الْعَرِمِ مِمَّا تَوَرَّخُ بِزَمَانِهِ الْعَرَبُ، وَالْعَرِمُ: الْمَسْنَاءُ، وَإِنَّمَا كَانَ
جُرْدَانًا.

وَتَقْتُلُ النَّحْلَ وَالْقَسِيلَ، وَتَخْرِبُ الصَّيْعَةَ، وَتَأْتِي عَلَى أَرِمَّةِ
الرِّكَابِ وَالْحُطْمِ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْأَمْوَالِ.
وَالنَّاسُ رُبَّمَا اجْتَلَبُوا السَّنَانِيرَ لِيُدْفَعُوا بِهَا بِوَأْتِ الْفَارَ فَكَيْفَ
صَارَ خَلْقُ الصَّارِّ الْمَفْسِدِ مِنَ اللَّهِ، وَخَلْقُ النَّافِعِ مِنَ الصَّرِّ

مَنْ خَلَقَ الشَّيْطَانَ؟ وَالسَّنَّورُ يُعَدُّ بِهِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ
الشَّيْطَانُ مِنَ الْحَيَّاتِ، وَالْعِقَارِبِ، وَالْجِعْلَانِ، وَبَنَاتِ وَرْدَانَ،
وَالْفَأْرَةَ لَا تَفْعَلُ لَهَا، وَمُؤَنِّهَا عَظِيمَةٌ.
قَالَ: لِأَنَّ السَّنَّورَ لَوْ بَالَ فِي الْبَحْرِ لَقَتَلَ عَشْرَةَ آلَافٍ سَمَكَةٍ.
فَهَلْ سَمِعْتَ بِحُجَّةٍ قَطُّ، أَوْ بِحِيلَةٍ، أَوْ بِأُضْحُوكَةٍ، أَوْ بِكَلَامٍ
ظَهَرَ عَلَى تَلْقِيحِ هَرَّةٍ، يَبْلُغُ مُؤَنَ هَذَا الْإِعْتِلَالِ؟ فَالْحَمْدُ لِلَّهِ
الَّذِي كَانَ هَذَا مَقْدَارَ عَقُولِهِمْ وَاخْتِيَارِهِمْ.
وَأُنشِدُ أَبُو زَيْدٍ:

لَوْ كُنْتُ لِهَذَا خَالِصًا لَكُنْتُ عَبْدًا آكُلُ الْآبَارِصَا

يعني جماع سام أبصر من الجوع الشديد، وربما
أثر أكل سام أبرص ونحوه وسام أبرص ربما قتل أكله، وليس يؤكل إلا من الجوع الشديد، وربما
قتل السننابير وبنات عرس، والشاهمرك، وجميع اللقاصات.
وقال آخر:

الْقَوْمَ عُنُسُوا لَحْمَ صَانَ تَعْجُونَ قَدْ مَالَتْ طُلَاهِمُ

وهو شيءٌ يعرض عن أكل دسم الصان، وهو أيضاً يلقى على دسمه النعاس، وقد يفعل ذلك
الحب، والخش، والخش، خاش.
والخشخاش يسمى بالفارسية أنار كيو وتأوبله رمان الخس، وإنما اشتق له ذلك إذ كان يورث
النعاس، كما يورثه الخس.
أكل السمانى وأكل الطعام الذي فيه سمان يورث الدوار، وزعموا أن صبيّاً من الأعراب فيما مضى
من الدهر، صاد هامة على قبر، فظنها سمان، فأكلها فغثت نفسه، فقال:

نَفْسِي تَمَقَّسُ مِنْ سُمَانَ الْأَقْبَرِ
استطراد لغوي ويقال: عَثَّتْ نَفْسَهُ عَثَانًا وَعَثِيًّا ، وَلَقِيسَتْ
تَلْقَسُ لَقْسًا، وَتَمَقَّسَتْ تَتَمَقَّسُ تَمَقَّسًا: إِذَا عَثِيَتْ.

أكل الأعراب للحيات

وأخبرني صباح بن خاقان، قال: كنتُ بالبادية، فرأيت ناساً حولَ تارٍ فسألتُ عنهم، فقالوا: قد صادوا حياتٍ فهم يشؤونها ويأكلونها؛ إذ تَطَرَّتْ إلى رجلٍ منهم ينهش حيةً قد أخرجها من الجمر، فرأيته إذا امتنعت عليه يمدُّها كما يمدُّ عَصَبٌ لم ينصَحْ، فما صرفتُ بصري عنه حتى لُبطَ به، فما لبتُ أن مات، فسألتُ عن شأنه، ف قيلَ لي: عَجَّلَ عليها قبلَ أن تنصَحَ وتعملَ التارَ في مَنُها. وقد كان قد بَعَدَادَ وفي البصرة جماعةٌ من الحوَّائين، يأكلُ أحدهم أيَّ حيةٍ أشرتَ إليها في جَوْتِهِ، غير مشويةٍ، وربَّما أخذَ المرارةَ وسَطَ راجته، فلطعها بلسانه، ويأكلُ عشرين عقربانة نيةً بدرهم، وأمَّا المشويُّ فإِنَّ ذَلِكَ عِنْدَهُ عُرْسٌ.
شعر في الحيات وقال كُثِيرٌ:

رَأَيْتُ رُقَاكَ تَسَلُّ ضِعْفِي خَرَجٌ مِنْ مَكَامِنِهَا ضِبابي
وتَرْقِينِي لَكَ الْحَاوُونَ حَتَّى جَابَتْ حِيَّةٌ خَلْفَ الْحِجَابِ
وقال أبو عَدْنَانَ، وذكر ابنَ تَرْوَانَ الخَارِجِيَّ، حينَ كان صارَ

إلى ظَهْرِ البَصْرَةِ، وخرجَ إليه مَنْ خَرَجَ مِنْ بَنِي تُمَيْرٍ:

حَسِبْتِ تُمَيْرًا يَا ابْنَ تَرْوَانَ لَقِيْتَهُمْ بِالْأَمْسِ: دُهْلًا
كَالْأَلَى وَيَشْكُرًا
ظَنَّ صَيَّادُ الْعَصَافِيرِ أَنَّ جَمِيعَ الْكُؤَى جَهْلًا فَرَاخًا
وَأَطِيرًا
فَادْخَلَ يَوْمًا كَفَّهُ جُحْرَ فَشَرَّشَرَهُ بِاللَّهْشِ حَتَّى
تَشَرَّشَرَا

أراد قول رؤية:

كَمَنَ أَدْخَلَ فِي حُجْرٍ فَأَخْطَأَ الْأَفْعَى وَوَلَّاقَى
الْأَسْوَدَا

مَسَّ حَرْفِي حَجْرٍ تَقْصَبُ لِلْسَمِّ لَا بِالسَّمِّ مِنْهُ قَصْدًا
فَقَدَّمَ الْأَسْوَدَ عَلَى الْأَفْعَى، وَهَذَا لَا يَقُولُهُ مَنْ يَعْرِفُ مَقْدَارَ سَمِّ الْحَيَاتِ.

وقال عنتره:

لَهُمْ وَالْخَيْلُ تَزْدِي بِنَايِلِكُمْ حَتَّى تَهْرُوا الْعَوَالِيَا

عَوَالِيَا سُمِّرَ مِنْ رِمَاحِ رُذَيْنِ قِرَّ الْكَلَابِ يَتَّقِينَ الْأَفَاعِيَا
حَدِيثٌ فِي الْحَيَّةِ وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "اتَّقُوا دَا الطُّفَيْتَيْنِ وَالْأَبْتَرَ".

شَبَّهَ الْخَيْطَيْنِ عَلَى ظَهْرِهِ بِخُوصِ الْمَقْلِ، وَأَشْدَدُّ لِأَبِي دُؤَيْبٍ:

عَيْرَ نُؤْيِ الدَّارِ لِأَيُّوَأُقْطَاعِ طُفْيٍ قَدْ عَفَتْ فِي
المعاقل

وَالطُّفُيُّ: حُيٌّ: وَصِ الْمَقْلُ: ل.

وَهُمْ يَصْفُونَ بَطْنَ الْمَرَاةِ الْهَيْفَاءِ الْخَمِيصَةِ الْبَطْنِ، بِيَطْنِ الْحَيَّةِ، وَهِيَ الْأَيْمُ، وَقَالَ الْعَجَّاجُ:

أَيْمٌ وَقَوَامًا عُسْلَجَا

مِنَاقِضَةِ شَعْرِيَّةٍ وَقَالَ أَكْهَمُ بْنُ أَبِي الرَّغْرَاءِ، وَشَبَّهَ نَفْسَهُ بِحَيَّةٍ:

أَسْوَدُ بِالْبَاسِ تَرْتَاحُ إِذَا حَلْبَةٌ جَاءَتْ وَيَطْرُقُ
نَفْسَهُ

نَقَطُ حَمْرٌ وَسْوَدٌ كَأَنَّمَا
وَبِالْوَرَسِ

قَطَارِيٌّ يَكُونُ
خُرُوجُهُ

مَنْزَلُ أَنْفِ ابْنِ قَتْرَةَ
يَغْتَذِي

إِذَا مَا قَالَ بَيْنَ
شَوَاهِقِي

تَزَلُّ الْعِقَابُ عَنْ نَفَانِهَا
الْمَلْسِ

مني يا ابنة القوم الحرب دبت أو لبست لها
مقدماً
لبسى

فأجابه عنترة الطائي، فقال:

عَسَاكَ تَمْنَى مِنْ أَرَاقِمٍ بِأَرْقَمٍ يُسْقَى السَّمَّ مِنْ كُلِّ
أَرْضِنَا
مَنْطِفٍ

وقال عنترة:

حياءً يا ابن بشر بن علقته رجلاك في ناب
أسودا

جبالي إذا غض عتقيل عنه جلده فنبددا
صفاً لم يبد للشمس إذا ما رآه صاحب اليم
أرعدا

ربقة في عنقه من وسائره عن متنه قد
قميصه
تقددا

ضحيات كأن لسانه سمع الإجراس مكحال
أرمدا

النفوس قبل أن يقع وابن أبرق الحاوي عليه
وأرعدا
الرقى

شعر في الحية وقال آخر:

ينبت العشب في وادٍ ولا يجاورها وحشٌ ولا
به
شجر

شابكة الأنياب ذابلة من اليبس عن يافوخها
الحجر

سرحت بالندی ما مسها ولو تكنفها الحاؤون ما
قدروا

حاوروها فما قام الرقاة وخاتلوها فما نالوا ولا
ظفروا

الورل العادي نكزاً ويهرب عنها الحية
بضربتها
الذكر

جملة القول في الظلم

فمما فيه من الأعاجيب أنه يغتذي الصخر، وبتلع الحجارة، ويعمد إلى المرؤ، والمرؤ من الحجارة التي توصف بالملاسة، وبتلع الحصى، والحصى أصلب من الصخر، ثم يُمِعه ويذيه في قانصته، حتى يجعله كالماء الجاري، ويقصدُ إليه وهو واثقٌ باستمرائه وهضمه، وأنه له غذاءٌ وقوامٌ. وفي ذلك أعجوبتان: إحداهما التَّغذِّي بما لا يُتَغذَّى به، والأخرى استمراؤه وهضمه للشيء الذي لو أُلقيَ في شيء ثم طبخ أبداً ما انحلَّ ولا لان، والحجارة هو المثل المضروبُ في الشدَّة، قال الشاعر:

يَلِينُ لِضِرْسِ الْمَاضِعِ الْحَجْرُ
وقال آخر:

أَطْيَبَ الْعَيْشَ لَوْ أَنَّ
حَجْرٌ
تنبو الحوادثُ عنه وهو
ملمومٌ
ووصف الله قلوب قومٍ بالشدَّة والقسوة، فقال: "فهي كالحجارة أو أشدُّ قسوةً"، وقال في التشديد: "ناراً وفودها النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ"، لأنه حين حذر النَّاسَ أعلمهم أنه يُلقى العُصاة في نارٍ تأكلُ الحجارة. ومن الحجارة ما يتخذها الصُّقَّارونَ عِلاَةً دُونَ الْحَدِيدِ؛ لِأَنَّهُ أَصْبَرُ عَلَى دَقِّ عِظَامِ الْمَطَارِقِ وَالْفِطْيَسَاتِ. فجوفُ النعامِ يُذِيبُ هَذَا الْجَوْهَرَ الَّذِي هَذِهِ صِفَتُهُ.

شواهد لأكل النعام الحصى والحجارة

وقال ذو الرُّمَّة:

أَمْ خَاضِبٌ بِالسِّيِّ أَبُو تَلَاثِينَ أَمْسَى وَهُوَ
مَرْتَعُهُ مَنَقَلِبُ
شَخْتِ الْجَزَارَةِ مِثْلُ الْبَيْتِ الْمُسْوَحِ خَدَبٌ شَوْقَبُ
سَائِرُهُ خَشْبُ
رَجْلِيهِ مِسْمَاكَانٍ مِنْ صَقْبَانٍ لَمْ يَتَّقَشِّرْ عَنْهُمَا
عُشْرٍ النَّجْبُ
آءٌ وَتَنُومٌ وَعُقْبَتُهُ لَائِحِ الْمَرْوِ وَالْمَرْعَى لَهُ
عُقَبُ

وقال أبو النَّجْم:

وَالْمَرْوُ يُلْقِيهِ إِلَى أَمْعَائِهِ سَرَطُمٌ مَادَ عَلَى التَّوَائِهِ
فِي الْحَلْقِ عَلَى عِلْبَائِهِ تَمَعَّجَ الْحَيَّةِ فِي غِشَائِهِ
وَلَوْ حَارَ بِخَوْصَلَائِهِ

إذابة جوف الظليم للحجارة

وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ جَوْفَ الظَّلِيمِ إِنَّمَا يُذِيبُ الْحَجَارَةَ بِقَيْظِ
الْحَرَارَةِ فَقَدْ أَخْطَأَ، وَلَكِنْ لَا يَدَّ مِنْ مِقْدَارِ الْحَرَارَةِ وَنَحْوِ
غَرَائِزِ أُخْرَى، وَخَاصِّياتِ أُخْرَى، أَلَا تَرَى أَنَّ القُدُورَ الَّتِي يُوقَدُ تَحْتَهَا
الْأَيَّامَ وَاللَّيَالِي، لَا تَذُوبُ.

القول في الخاصِّيات والمقابلات والغرائز

وسأدلك على أن القولَ في الخاصِّيَّاتِ والمقابلات والغرائزِ
حقٌّ، ألا ترى أن جوفَ الكلبِ والذَّيْبِ يذيان العظام ولا
يذيان تَوَى التمر، وتَوَى التمر أرخى وألين وأضعفُ من
العظام المضمَّمة، وما أكثر ما يهضم العظم، وقد يهضم
العظم جوفُ الأسد وجوفُ الحيَّة، إذا ازدردت بضع اللحمِ
بالشَّـرِّه والنَّهَم، وفيها بعضُ العظام.
والبراذين التي يُحِيلُ أجوافُها القَتَّ والتَّبَن رَوْثاً، لا تستمري
الشـ

والإبلُ تقبضُ بأسنانها على أغصانِ أمِّ عَنَلان، وله شوْكُ
كصياصي البقر، والقُضبانُ علكة يابسةُ جرد، وصلاب متينة،
فتستمرُّها وتجعلُها تَلْطاً، ولا تقوى على هضم الشَّعير المنقَع،
وليس ذلك إلا بالخصائص والمقَابلات.
وقد قُدِّر كلُّ شيءٍ لشيءٍ، ولولا ذلك لما نفذ خرطومُ
البعوضةِ والجرجسة في جلد الفيلِ والجاموسِ، ولَمَّا رأيت
الجاموسَ يهربُ إلى الانغماس في الماء مرَّةً، ومرَّةً يتلَطَّحُ

بِالطَّيْنِ، وَمِرَّةً يَجْعَلُهُ أَهْلُهُ عَلَى رَيْثِ الدَّكَانِ، وَلَوْ دَفَعُوا إِلَيْكَ
مِسَلَّةً شَدِيدَةً الْمَثْنِ، لَمَّا أَدْخَلْتَهَا فِي جِلْدِ الْجَامُوسِ إِلَّا بَعْدَ
التَّكْلُفِ، وَإِلَّا يَبْغُضُ الْإِعْتِمَادَ.
وَالَّذِي سَخَّرَ جِلْدَ الْجَامُوسِ حَتَّى انْفَرَى وَانْصَدَعَ لَطَعْنَةَ
الْبَعُوضَةِ، وَسَخَّرَ جِلْدَ الْحِمَارِ لَطَعْنَةَ الدُّبَابِ، وَسَخَّرَ الْحِجَارَةَ
لِجُوفِ الظُّلَمِ، وَالْعَظْمَ لِجُوفِ الْكَلْبِ هُوَ الَّذِي سَخَّرَ الصَّخْرَ
الصُّلْبَ لِأَذْنَابِ الْجِرَادِ، إِذَا أَرَادَتْ أَنْ تُثَلْقِي بِيضَهَا؛ فَإِنَّهَا فِي
تِلْكَ الْحَالِ مَتَّى عَقَدَتْ ذَنْبَهَا فِي ضَاحِي صَخْرَةٍ انْصَدَعَتْ لَهَا،
وَلَوْ كَانَ انْصَدَاعُهَا مِنْ جِهَةِ الْأَسْرِ، وَمِنْ قُوَّةِ الآلَةِ، وَمِنْ
الصَّدَمِ وَقُوَّةِ الْغَمْرِ، لَانْصَدَعَتْ لَمَّا هُوَ فِي الْحَسِّ أَشَدُّ وَأَقْوَى،
وَلَكِنَّهُ عَلَى جِهَةِ التَّسْخِيرِ، وَالْمُقَابَلَاتِ، وَالْخِصَائِصِ.
وَكَذَلِكَ عُودُ الْحَلْفَاءِ، مَعَ دِقَّتِهِ وَرَخَاوَتِهِ وَلِينِ انْعِطَافِهِ، إِذَا تَبَتَّ
فِي عُمُقِ الْأَرْضِ، وَتَلَقَّاهُ الْأَجْرُ وَالْخَرْفُ الْغَلِيظُ، تَقَبَّ ذَلِكَ،
عِنْدَ نَبَاتِهِ وَشِبَابِهِ، وَهُوَ فِي ذَلِكَ عَبَقْرٌ نَضِيرٌ.
وَزَعَمَ لِي نَاسٌ مِنْ أَهْلِ الْأَرْدُنِّ، أَنَّهُمْ وَجَدُوا الْحَلْفَاءَ قَدْ خَرَقَ

جوف القنار.

وزعم لي أبو عتاب الجرّار، أنه سمع الأكرة يُخبرون أنّهم

وجدوه قد خرقَ فُلْساً بَصْرِيّاً.

وليس ذلك لشدة الغمزِ وجدة الرأس، ولكنه يكون على قدر

ملاقة الطباع.

ويزعمون أنّ الصّاعقة تسقطُ في حانوت الصّيقل فتذيب

السُّيوفَ بطبعها، وتدع الأغمادَ على شبيهِ بحالها، وتسقطُ

على الرّجلِ ومعه الدراهمُ فتسبكُ الدّراهم، ولا يصيبُ الرّجلَ

أكثرُ من الموت.

والبحريّون عندنا بالبصرة والأبلة التي تكون فيها الصّواعق،

لا يدعون في صحون دُورهم وأعالى سُطوحهم، شيئاً من

الصُّفر إلاّ رفعوه؛ لأنّها عندهم تنقضُّ من أصلِ مخرجها، على

مقدارٍ من محاذاة الأرض، ومقابلة المكان، فإذا كان الصُّفر

لها ضاحياً، عدلتُ إليه عن ستنها.

وما أنكر ما قالوا، وقد رأيتهم يستعملون ذلك.

وقد يَسْقُطُ النَّوَى فِي تُرَابِ الْمُتَوَصَّأِ، فَإِذَا صَهْرَجَ تَبَّتْ، فَإِذَا
انتهى إلى الصَّارِوجِ أَمْسَكَ، وَإِنْ كَانَ الصَّارِوجُ رَقِيقًا فَإِنْ قُبِّرَ،
وَجُعِلَ غِلْظُهُ بِقَدْرِ طَوْلِ الْإِبْهَامِ، نَبَتَ ذَلِكَ النَّوَى حَتَّى يَخْرِقَ
ذَلِكَ الْقَارِ.

وَلَوْ رَامَ رَجُلٌ خَرْقَهُ بِمَسْمَارٍ أَوْ سِكِّةٍ، لَمَا بَلَغَ إِرَادَتَهُ حَتَّى
يَشُقَّ عَلَى نَفْسِهِ.

وَالَّذِي سَخَّرَ هَذِهِ الْأُمُورَ الْقَوِيَّةَ فِي مَذْهَبِ الرَّأْيِ وَإِحْسَاسِ
النَّاسِ، هُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْقُمَّمَ، وَالطَّيْجَنَ، وَالْمِرْجَلَ،
وَالطَّسْتَ، لِابْرَةِ الْعَقْرَبِ، فَمَا أَحْصَى عَدَدَ مَنْ أَخْبَرَنِي مِنْ
الْحَوَائِنِ، مِنْ أَهْلِ النَّجَارِ، أَنَّهَا رَبَّمَا خَرَجْتُ مِنْ جُحْرِهَا فِي
اللَّيْلِ لَطَلَبِ الطَّعْمِ، وَلَهَا نَشَاطٌ وَعُغْرَامٌ، فَتَضْرِبُ كُلَّ مَا لَقِيَتْ
وَلَقِيَهَا: مِنْ حَيَوَانٍ، أَوْ نَبَاتٍ، أَوْ جَمَادٍ.

وَزَعِمَ لِي خَاقَانُ بْنُ صَبِيحٍ وَاسْتَشْهَدَ الْمُثَنَّى بْنُ بَشْرٍ، وَمَا كَانَ
يَحْتَاجُ خَبْرَهُ إِلَى شَاهِدٍ؛ لَصَدَقَهُ أَنَّهُ سَمِعَ فِي دَارِهِ تَقْرَةَ وَقَعَتْ
عَلَى قُمَّمٍ وَقَدْ كَانَ سَمِعَ بِهَذَا الْحَدِيثِ فَنَهَضَ نَحْوَ الصَّوْتِ،

فإذا هو بعقرب فتعاورها هو والمثني بنعالهما حتى قتلاها، ثم
دَعَا بِمَاءِ فَصْبَاهُ فِي الْقُمَّمِ فِي عَشِيَّتَيْهِمَا، وَهُوَ صَحِيحٌ لَا
يَسْتَلِ مِنْهُ شَيْءٌ.

فمن تعجب من ذلك فليصرفُ بدياً تعجبه إلى الشيء الذي
تقذفه بذنبيها العقربُ في بدن الإنسان والحمير والبغال،
فليفكر في مقدار ذلك من القلة والكثرة، فقد زعم لي ناسٌ
من أهل العسكر أنهم وزنوا جرارةً بعد أن ألسعوها فوجدوا
وزنها على تحقيق الوزن على مقدار واحد، فإن كان الشيء
المقذوف من شكل الشيء الحار، فلم قصرت النار عن مبلغ
عمله؟ وإن كان من شكل الشيء البارد فلم قصر الثلج عن
مبلغ عمله؟ فقد وجب الآن أن السم ليس يقتل بالحرارة، ولا
بالبرودة إذا كان بارداً، ولو وجدنا فيما أردنا شيئاً بلغ مبلغ
الثلج والنار لذكرناه.

فقد دل ما ذكرنا على أن جوف النعامة ليس يذيب الصخر
الأملس بالحرارة، ولكنه لا يذ على كل حال من مقدار من

الحرارة، مع خاصيات أُخْرَ، ليست بذاتِ أسماء، ولا تعرفُ إلاَّ
بـالوهم فـي الجملة. .
علة قتل السم والسمِّ يقتل بالكمِّ والكيف والجنس، والكمُّ
المقدار، والكيف: الحدُّ، والجنس: عَيْنُ الجوهْرِ وذائته، وتزعمُ
الهندُ أنَّ السمَّ إنما يقتل بالعَرابة، وأنَّ كلَّ شيءٍ غريبٍ خالطاً
جَوْفَ حَيَوَانٍ قَتَلَهُ، وقد أبى ذلك ناسٌ فقالوا: وما باله يكون
غريباً إذا لاقى العصبَ واللحم، وربَّما كان عاملاً فيهما جميعاً،
بل ليس يقتل إلاَّ بالجنس، وليس تُحسُّ النَّفْسُ إلاَّ بالجنس،
ولو كان الذي يميت حِسَّهُما إنَّما يميته لأَنَّهُ غريبٌ، جازَ أيضاً
أنَّ يكون الحَسَّاسُ إنما حَسَّ لأنه غريب، ولو كان هذا جائزاً
لقيل فـي كـلِّ شـيءٍ. .
وقال ابن الجهم: لولا أنَّ المذهب المائع، والفِضَّة المائعة،
يجمدان إذا صارا في جوف الإنسان، وإذا جَمَدَا لم يجاوزا
مكانَهُما لكأنَّما من القواتل بالغرابة. .
وهذا القول دَعْوَى في النَّفْسِ، والنَّفْسُ تضيقُ جدًّا، وما قرأت

للقدماء في النفس الأجلاد الكثيرة، وإنما يستدلُّ ببقاء تلك الكتب على وَجْهِ الدَّهْرِ إلى يومنا هذا، وَنَسِخِ الرِّجَالِ لها أُمَّةٌ بعدَ أُمَّةٍ، وعمراً بعد عمر، على جهل أكثر النَّاسِ بالكلام، والمتكلمون يريدون أن يَعْلَمُوا كلَّ شيءٍ، ويأبى الله ذلك، فهذا بابٌ من أعاجيب الظليم.

باب آخر وهو أعجب من الأول

وهو ابتلاؤه الجمر حتى ينفذ إلى جوفه، فيكون جوفه هو العامل في إطفائه، ولا يكون الجمر هو العامل في إحراقه. وأخبرني أبو إسحاق إبراهيم بن سيَّار النُّظَّام وكنا لا نرتاب بحديثه إذا حكى عن سماعٍ أو عيان أنه شَهِدَ محمد بن عبد الله يلقي الحجر في النار، فإذا عاد كالجمر قَدَفَ به قُدَّامَهُ، فإذا هو يبتلعه كما يبتلع الجَمْرَ، كنتُ قلت له: إِنَّ الجَمْرَ سخيْفٌ سريعُ الانطفاءِ إذا لقي الرُّطوبات، ومتى أطبقَ عيه شيءٌ يُحَوِّلُ بَيْنَهُ وبين النَّسِيمِ خَمَدًا، والحَجَرُ أَشَدُّ إِمْسَاكًا لما يتداخله من الحرارة، وأثَقَلُ ثِقَلًا، وألْزَقُ لُزُوقًا وأبطأ انطفاءً،

فلو أحميت الحجاره فأحماها ثم قذف بها إليه، فابتلع الأولى
فارتبت به ، فلما ثنى وثلث اشتد تعجبي له ، فقلت له: لو
أحميت أواقى الحديد، ما كان منها رُبْع رطلٍ ونصف رطل
ف فعل، فابتلعه، فقلت: هذا أعجب من الأول والثاني، وقد
بقيت علينا واحدة، وهو أن ننظر: أيستمرى الحديد كما
يستمرى الحجاره؟ ولم يتركنا بعض السفهاء وأصحاب الخرق
أن تتعرف ذلك على الأيام، وكنت عزمْتُ على ذبحه وتفتيش
جوفه وقانصته، فلعل الحديد يكون قد بقي هناك لا ذائباً ولا
خارجاً فعمد بعض ندمائه إلى سيكينٍ فأحمي، ثم ألقاه إليه
فابتلعه، فلم يجاوز أعلى حلقه حتى طلع طرفُ السكين من
موضع مذبحه، ثم خرَّ ميتاً، فَمَنَعَنَا بِخُرْقِهِ من استقصاء ما
أردنا.

شبه النعامه بالبعير وبالطائر

وفي النعامه أنها لا طائر ولا بعير، وفيها من جهة المنسم والوظيف والحرمه، والشق الذي في
أنفه، ما للبعير، وفيها من الرّيش والجناحين والدّنّب والمنقار، ما للطائر، وما كان فيها من شكل
الطائر أخرجها ونقلها إلى البيض، وما كان فيها من شكل البعير لم يخرجها ولم ينقلها إلى الولد،

وسماها أهل فارس: أشْتُزْمُزْغ، كما تُهم قالوا: هو طائر وبعير.
وقال يحيى بن نوفل:

كساقطٍ بين تصير إلى الخبيث من
الحشايا المصير
نعامةٍ تُدعى بعيتاً ظمها إذا ما قيل طيري
قيل أحلي قالت الطير المربّة بالوكور
فأني
ثم هجا خالداً فقال:

لدى المغيرة عير تؤول من المخافة للزير
ثمانيةٍ وعلج كبير السنّ ذي بصير صير
بكلّ صوتك: شراباً ثمّ بُلّت على السير
أطعموني
وإنما قيل ذلك في النعامة؛ لأنّ الناس يضربون بها المثل
للرجل إذا كان ممّن يعتلُّ في كلّ شيء يكلفونه بعلة، وإن
اختلف ذلك التكليف، وهو قولهم: إنما أنت نعامة، إذا قيل لها
أحلي قالت: أنا طائر، وإذا قيل لها طيري قالت: أنا بعير.

قصة أذني النعامة

وتزعّم الأعراب أنّ النعامة ذهبّت تطلّب قرنين، فرجعت مقطوعة الأذنين؛ فلذلك يسمونه الطليم،
وبص _____ فونه _____ ذلك.

وقد ذكر أبو العيال الهذلي ذلك، فقال:

أنّ أخاكم وعتابه جاءكم بتعطّفٍ وسكونٍ

يُمْسِي إِذَا يُمْسِي ببطن ووجهٍ ساهمٍ مَدَّهونِ

يُمْتُ وَلَا يُرَى فِي مِنْقَالُ حَبَّةٍ خَرْدَلٍ مَوْزُونِ

كَالنُّعَامَةِ إِذْ غَدَتِ مِنْ لِيُصَاغَ قَرْنَاهَا بِغَيْرِ أَذِينِ

فَاجْتَنَّتِ الْأَذْنَانَ مِنْهَا صَلْمَاءَ لَيْسَتْ مِنْ ذَوَاتِ
فَانْتَنَّتْ قُرُونِ

تقليد الغراب للعصفور ويقولون: ذهب الغراب يتعلم مشية العصفور، فلم يتعلمها، ونسي مشيته، فلذلك صار يحجل ولا يقف. رُ قَفَزَانِ الْعُصْفُورِ. مشي طوائف من الحيوان والبرغوث والجرادة ذات قفز، ولا تمشي مشية الديك والصقر والبازي، ولكن تمشي مشية المقيّد أو المُحَجَّجِ لخلقها. قال أبو عمران الأعمى، في تحوّل فُضَاعَةٍ إِلَى قحطانٍ عَنْ نزار:

اسْتَوْحَشَ الْحَيُّ الْمَقِيمُ الْخَلِيطَ فَلَا عَزَّ الَّذِينَ
فَفَارَقُوا تَحَمَّلُوا
يَوْمًا مِشِيَّةً مِنْ لِأُخْرَى ففَاتَتْهُ فَأَصْبَحَ
سَجِيَّةً يَحْجِلُ

عظام النعام

ومن أعاجيبها أنها مع عظم عظامها، وشدة عدوها، لا ملح فيها. وفي ذلك يقول الأعمى الهذلي:

حَتِّ الْبُرَايَةِ زَمْخَرِيٍّ ظَلَّ فِي شَرِيٍّ طِوَالِ

يعني ظليماً شبه به عدوّ فريبه، والحَتُّ: السريع، والشَّرِيّ: الحنظل، وُبرايته: قوّته على ما يئريه من السّير، والشّواعد: مجاري مَحّه في العظم وكذلك مجاري عُروق الصّرع، يقال لها الشّواعد. قال: ونظنّ إنّما قيل لها ذلك لأنّ بعضها يُسعدُ بعضاً، كأنه من التّعاون أو من المواساة. قال: والرّمخريّ: الأجوف، ويقال: إنّ قصبَ عظمِ الظّليم لا ملح له، وقال أبو النّجم:

يَظَلُّ الْمُحُّ فِي هَوَائِهِ

وواحد السُّد السُّدُ واعد: ســـــاعد.

وقال صاحب المنطق: ليس المَحُّ إِلَّا فِي المَجْوُوفَةِ، مثل

عَظْمِ الأَسَدِ.

وفي بعض عظامه مَحٌّ يسير، وكذلك المَحُّ قَلِيلٌ فِي عِظَامِ

الخنازير، وليس في بعضها منه شيءٌ البتَّة.

بيض النعام وما قيل فيه من الشعر

وَمِنْ أَعَاجِيبِهَا أَنَّهَا مَعَ عِظَمِ بَيْضِهَا تَكْتَثُرُ عَدَدَ البَيْضِ، ثُمَّ تَصَعُّ بَيْضَهَا طَوِيلًا، حَتَّى لَوْ مَدَدْتَ عَلَيْهَا خَيْطًا لَمَا وَجَدْتَ لَهَا مِنْهُ خُرُوجًا عَنِ الأُخْرَى، تُعْطِي كُلَّ بَيْضَةٍ مِنْ ذَلِكَ قَسِطَهُ، ثُمَّ هِيَ مَعَ ذَلِكَ رَبَّمَا تَرَكْتَ بَيْضَهَا وَذَهَبَتْ تَلْتَمِسُ الطَّعَامَ، فَتَجِدُ بَيْضَ أُخْرَى فَتَحْضِنُهُ، وَرَبَّمَا حَضَنْتَ هَذِهِ بَيْضَ تِلْكَ، وَرَبَّمَا ضَاعَ

البيضُ بينهم

وَأَمَّا عَدَدُ بَيْضِهَا وَرِثَالِهَا فَقَدْ قَالَ دُو الرُّمَّة:

أَم خَاضِبٌ بِالسِّيِّ ثَلَاثِينَ أَمْسَى وَهُوَ مُنْقَلِبٌ

وفي وضعها له طولاً وعرضاً على خطٍّ وسَطْرٍ، يقول:

بَيْضَاتِي ذِي لَبَدٍ هَجَفٌ سُقَيْنَ بَرَا جَلٍ حَتَّى رَوَيْنَا
وَضِعْنَ فَكَلَّهِنَّ عَلَى غِرَارِهِ جَانُ اللُّونِ لَمْ تَقْرِعَ جَنِينَا
يَحْفَهُنَّ بِمَرْفَقِيهِ وَيَلْحَفُهُنَّ هَفَهَا فَا ثَخِينَا

وقال الآخر:

بها مكرباتٌ في صلابٌ مياسيرٌ معاجيل
مرافقها

مهاةٍ ورجلا خاضبٍ كأنه من جناه الشرى
مخلول
هجبٍ وزفانيةٍ مرطى ريش جناحيها هراميل
منشى أقماع ما من العفاء بليتيها ثآليل
هصرت
من سنام العرق إلى القنان التي فيها
فالتبطا المداخيل
استهلا بشؤبوب فقد بما أصابا من الأرض
فعلت الأفاعيل
فصادفا البيض قد أبدت الرثال لها منها سراويل
مناكبها
يبقفان البيض عن كأنها ورق البسباس
مغسول

تشبيه القدر الضخمة بالنعامة

والشُعراء يشبّهون القِدْرَ الصَّخْمَةَ التي تكون بمنزِلِ العَظِيمِ وأشباهِهِ مِنَ الأَجوادِ، بالنَّعامةِ، قال
الرَّمَّاحُ، ابنُ مَيَّادَةَ:

لها لا تعجلي كذلك تقري الشوك ما لم
تردد
جامعٍ مثل النّعامِ عوازبه فوق
يلتقي

جـ _____ يعنـي القـدر، وجعلـهـا مـثـل النّعامـة.

وقال ابن ميادة يمدح الوليد بن يزيد:

العِشَارِ المُنْقِيَاتِ إِذَا روابدُها مثلُ النّعامِ
العواطِفِ

وقال الفرزدق:

كحيزُومِ النّعامِ بأجْدالِ حُشْبِ زالَ عَنّها

الذئب والنعام

وضحك أبو كلدة حين أنشد شعر ابن النطاح، وهو قوله:

والذئب يلعب بالنعام الشارد

قال: وكيف يلعب بالنعام، والذئب لا يعرض لبيض النعام وفراخه حين لا يكونان حاضرين، أو يكون أحدهما، لأنهما متى ناهضاه ركضه الذكر فرماه إلى الأنثى، وأعجلته الأنثى فركضته ركضه ثلقه إلى الذكر فلا يزالان كذلك حتى يفتلاه أو يعجزهما هرباً، وإذا حاول ذلك منه أحدهما لم يفو عليه، قال: فكيف يقول:

والذئب يلعب بالنعام الشارد

وهذه حاله مع النعام.

وزعم أن نعامتين اعتورتا ذئباً فهزمتاه، وصعد شجرة، فجالدهما، فنقره أحدهما، فتناول الذئب رأسه فقطعه، ثم إلى الآخر فساوره فهزمه.

جبن الظليم ونفاره

والظليم يوصف بالجبن، ويوصف بالنفار والتوحش. وقال سهم بن حنظلة، في هجائه بني

رأيت بني عامرٍ رأيت جفاءً ونوكاً كثيرا
تجرُّ بأعناقها ويمنعها نوكها أن تطيرا

ضرر النعامة

والنعامة تتخذها النَّاسُ في الدُّورِ، وضرُّها شديدٌ، لأنَّها
رأت في أذن الجارية أو الصبيَّة فُرطاً فيه حجرٌ، أو
لؤلؤٌ، فَتَخَطَّفُهُ لتأكله، فكم أذنٍ قد خرقتها وربَّما رأَتْ
في لَبَّةِ الصبيِّ أو الصبيَّة، فتضربه بمنقارها، فرَبَّما
خرقت ذلك المكانَ.

شعر في تشبيه الفرس بالظلم

وممَّا يشبَّه به الفرسُ ممَّا في الظلم، قولُ امرئ القيس بن حُجر:

أَسِيلٌ كَالْمِسِّ وَبِكَرْوَجُوِّ هَيْقٍ دَفَّهْ قَدْ تَمَوَّرَا

وقال عُقْبَةُ بن سَابِق:

بِرْكَه كَجَوْجُوِّ هَيْقٍ وَلَبَانُ مَضْرَجٍ بِالْخِصَابِ

وقال أبو دَاوُدَ الإيَادِي:

يَمْشِي كَمَشِي نَعَامَتٍ يُتَابِعَانِ أَشَقَّ شَاخِصٍ
آخِر:

حَمَاتِهِ كُرْدُوسٌ فَحَلَقِلَصَةٌ عَلَى سَاقِي ظَلِيمٍ

وقال أبو دَاوُدَ الإيَادِي:

كَالسَّيِّدِ مَا اسْتَقْبَلْتَهُ وَإِنِّي تَقُولُ مُلْمَلَمٌ ضَرْبُ
اسْتَقْبَلْتَهُ وَمَشِيٍّ مَتَابِعاً مَا خَانَهُ عَقْبُ
يَمْشِي كَمَشِي نَعَامَةٍ آخَرَى إِذَا مَا رَاعَهَا حَطْبُ

القول فيما اشْتُقَّ له من البَيِّض اسم قال العَدَبَس الكِنَانِي: باضت البُهَمَى: أي سقطت نصالها
وباض الصَّيْف، وباض القَيْطُ: اشتدَّ الحرُّ وخرج كلُّ ما فيه من ذلك.
الأَسَدِيّ:

وقد باض الكَرَى في مِنْ عُيُوبِ الْمُقْرِفِينَ
مُسَلَّمًا

وقال أميَّة بنُ أبي الصَّلْتِ:

بيضة البَيَاتِ عليهم لم يُحَسُّوا منها سِوَاهَا
نذيرا

وقال الرَّاعِي، يهجو ابنَ الرَّقَاعِ:

كُنْتُ مِنْ أَحَدٍ يُهَجِّي ابْنَ الرَّقَاعِ وَلَكِنْ لَسْتُ
هَجْوُتُكُمْ مِنْ أَحَدٍ
قُضَاعَةٌ لَمْ تَقْبَلْ لَكُمْ وَابْنَا نِزَارٍ فَأَنْتُمْ بَيْضَةٌ
نَسْبًا الْبَلَدِ

وفي المديح قولُ عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه: أنا بَيْضَةُ الْبَلَدِ، ومنه بيضة الإسلام، وبيضة
القَبْلة: أعلاها، وكذلك الصَّوْمَعَةُ، والبَيْضُ: قلانس الحديد.
وقال أبو حَيَّة التُّمَيْرِيّ:

الغانياتُ البِيضُ عَنِّي إِنْ كَانَ ذَلِكَ عَنْ تَقَالِي
الشَّيْبِ بَاضَ عَلَيَّ وَأُفْسِدَ مَا عَلَيَّ مِنَ
الْجَمَالِ

وبَيضُ الْجُرْحِ وَالْخُرَاجِ وَالْجَبِينِ: الوعاء الذي يُجْمَعُ فيه الصَّديد، إذا خَرَجَ برئاً وَصَلَحَ، وقد
يُسَمُّونَ ما في بطونِ إناثِ السَّمَكِ بَيْضاً، وما في بطونِ الجَرَادِ بَيْضاً، وإن كَانُوا لا يَرَوْنَ قَشِراً
يشتملُ عليه، ولا قَيْضاً يَكُونُ لِمَا فِيهِه حِصْناً.
والخِرشَاءُ: قِشْرَةُ البَيْضِ إذا خَرَجَ ما فِيهِ، وَسَلَخَ الحَيَّةُ يقال له الخِرشَاءُ.
شعر في التشبيه بالبيض وقال الأعشى في تشبيه اللِّفَاءِ الحَسَنَاءِ بالبيضة:

بيضة في الدَّعْصِ
مَكْنُونَةٌ
دُرَّةٌ سِيَقَتْ إِلَى تَاجِرِ

وقال في بيض الحديد:

تَعَامَ الدَّوُّ بَاضَ عَلَيْهِمْ إِذَا شَامَ يَوْمًا لِلصَّرِيحِ
المُنْدَرِ

الأعشى:

مِنَ البَطْحَاءِ يَبْرُقُ وقد رُفِعَتْ نِيرَانُهَا
فاستقلت

الخيّل:

تَعَامَ الدَّوُّ بَاضَ عَلَيْهِمْ فَأَخْدَأْفُهُمْ تَحْتَ الحَدِيدِ
خَوَازِرُ

استطراد لغوي

قال: ويقال تَقَيَّصَت البيضةُ، والإِنَاءُ، والقارورةُ، تَقِيُّصًا: إذا
انكسرت فِلَقًا، فإذا هي لم تَتَفَلَّقْ فِلَقًا وهي متلازقةٌ، فهي
مُنْقَاصَةٌ انْقِيَاضًا، وقِيض البيضة: قشرتها اليابسة، وغِرْقِيئها:
القشرة الرَّقِيقة التي بين اللَّحْم وبين الصَّمِيم، قال:
والصَّمِيم: الجِلْدُ.

قال: ويقال غِرْقَات البيضة: إذا خَرَجَتْ وليس لها قشرٌ
ظَاهِرٌ غَيْرُ الغِرْقِيئِ.

قال الرَّدَاد: غِرْقَات الدَّجَاجَةِ بيضها، فالبيضة مُعْرَقَاة،
والخِرْشَاء: القشرة الغليظة من البيضة، بعد أن تَثَقَّب

فيخرج ما فيها من البلل؛ وجماعها الخراشي، غير مهموز.
قال: وقال ردّاد: خِرْشَاءُ الحَيَّة: سَلْخَهَا حين تنسَلخ.
قال: وتغدي أعرابيٌّ عندَ بعضِ الملوك، فدبَّت على حلِقِه
قملةً، فتناولها فقصَّعها بإبهامه وسبَّابته، ثمَّ قتلها، فقالوا له:
ويلك ما صنعت؟ فقال: بأبي أنتم وأمي، ما بقي إلا
خِرْشَاءُ أوها.

وقال المرقش:

تَغْضَبُوا تَغْضَبٌ لَذَاكُم يَكْمَلُ مِنْ خِرْشَاءِ الأَرَقَمِ
وقال دُرَيْد بن الصَّمَّة في بَيْض الحديد: قال: ويقال في الحافر نَرًا يَنْزُو، وَأَمَّا الظَّلِيمُ فيقال: قَعَا
يَقْعُو، مثل البعير، يقال: قاع يقوعُ قَوْعًا وقِيَاعًا، وَقَعًا يَقْعُو قَعْوًا، فهذا ما يسوون فيه بينه وبين
البعير، ويقال: خَفَّ البعير، والجمع أخفاف، ومنسِمُ البعير، والجمع مناسم؛ وكذلك يقال للنعامه.
وقال الراعي:

كَرْجَلُ الأَخْدَرِيِّ وَظِيفٌ عَلَى حُفِّ النَّعَامَةِ
يُشْبِلُهَا أَرُوحُ
وقال جرّان العود:

مِثْلُ أَظْفَارِ العُقَابِ كَظُنْبُوبِ النَّعَامَةِ أَرُوحُ
وَمَنْسِمٌ
قال: وَالرَّاجِلُ: ماء الظَّلِيم؛ وهو كالكَرَّاضِ من ماءِ الفحل، وأنشد لابن أحمَر:

بِيضَاتُ ذِي لِبْدٍ هَجَفٌ سُقَيْنَ بَرَاغِلٍ حَتَّى رَوَيْتَا
وقال الطَّرِمَّاح:

تُذْنِيكَ مِنْ لَمِيسَ أَمَارَتْ بِالْبَوْلِ مَاءَ الكِرَّاضِ

سَبْنَدًا

وربّما استعاروا المناسم، قال الشاعر:

توعدني بالسّجن والآدات
بالحبل أكبر عاتٍ

قال: ويقال لولد النعام: الرّئال، وأجمع رئال ورئان؛ وَحَفَّانٌ، وَحَفَّانَةٌ للواحدة، والجمع حَفَّانٌ؛ وَحِسْكَلٌ، ويقال: هذا حَيْطٌ نعامٍ وَحِيطَانٌ، وقال الأسودُ بنُ يُعْفَرٍ:

مرجعهم متاقفٌ
حنظل

ويقال: قَطِيْعٌ مَن نَعَامٍ، وَرَعْلَةٌ مَن نَعَامٍ.
وقال الأصمعيّ: الرّعلة: القطعة من النّعام، والسّرْب من الطّبَاءِ والقَطَا، والإجْل من الطّلف، وقال طُفَيْلُ العَنَوِيّ في بيضة الحَيّ وما أشبه ذلك:

تنوي بيضة الحَيّ
أذاعت برّيعان السّوام
المعزب

قال: ويقال: للظلم إذا رعى في هذا النّبات ساعةً وفي هذا ساعةً قد عَقَبَ يُعَقِّبُ تعقيباً، وأنشدني لذي الرّثمة:

آءٌ وتئومٌ وعقبته
لائح المزو والمزعى له
عقب

قال: ويقال للرجل، إذا كان صغير الأذنين لاصقتين بالرّأس: أصمّ؛ وامرأة صَمْعَاءُ، ويقال: حَرَخَ السهمُ مَتَصَمَّعاً: إذا ابتلّت فُدَّذُه من الدّم وانضمت، وقال أبو دُوَيْبٍ:

فخرّ وريشه متصمّع

ويقال: أتانا بشريدةٍ مُصَمَّعةٍ: إذا دَقَّقَهَا وَحَدَّدَ رَأْسَهَا، وصومعة الرّاهب منه؛ لأنها دقيقة الرّأس، وفلانٌ أصمّ القلب: إذا كان ذكياً حديداً ماضياً، وقال طرفة:

لعمري لقد مرّت عواطسُ
ومرّ قبيل الصّبح ظبيّ
مصمّع

أراد: ماضياً

شعر في البيض وقال الشاعر في بيضة البلد:

تُوضِعُ بِكَرًّا لَا خِطْمَ بِنْتِ رَهْطِكَ عِنْدِي بَيْضَةَ
الْبَلَدِ

وُثِبَتْهُ عِظَامُ جَمَاجِمِ الرُّؤُوسِ بَبَيْضِ النَّعَامِ، وَقَالَ الْأَعْرَجُ الْقَيْنِيُّ:

بِالرَّمَّاحِ غَدَاةَ طَرْقٍ عَلَيَّ قَتَلَى بِنَاصِفَةٍ كِرَامِ
جَمَاجِمَ غُودِرَتْ بِحَمَامٍ عَزْكَانَ فَرَأَشَهَا بَبَيْضِ النَّعَامِ
وَقَالَ مِقَاتِلُ بْنُ طَلَبَةَ:

سَحِيمًا فَاقَدَ اللَّهُ بَيْتَهُنِيكَ بِأَيْدِيهَا وَتَأَبَى أُيُورَهَا
وَقَالَ السُّحَيْمِيُّ يَرُدُّ عَلَيْهِ:

بَشَّرَهَا بِبَيْضِ نَعَامَةٍ لَمْ تَبَشِّرْهَا فَأَنْتَ أَمِيرُهَا
وَقَالَ أَبُو السُّبَيْسِيِّ الْخَزَاعِيُّ فِي بَيْضَةِ الْخَدْرِ:

الْخَدْرُ مِنْ ثَنِيهِ وَأَعْجَلَ الرَّوْعُ نَصَلَ السَّيْفِ
بَيْضَتَهُ
تَفْدِيكَ مِنَّا كُلُّ غَانِيَةٍ وَالشَّيْخُ يَفْدِيكَ وَالْوَلْدَانُ
وَالشُّمُطُ

وَقَالَ جَحْشُ بْنُ نَصِيبٍ:

فُلَاقُ الْهَامِ تَحْتَ حَدَارِيْفُ بَبَيْضِ عَجَلِ النَّقْفِ
سُيُوفِنَا
وَقَالَ مَهْلَهُ فِي بَيْضَةِ الْخَدْرِ:

وَتَجُولُ بَبَيْضَاتِ الْخُدُورِ يَمَسَّخَنَ فَضْلَ ذَوَائِبِ
حَوَاسِرَا
الْأَيْتَامِ

وَهُوَ وَمَا قَبْلَهُ يَدْلَانِ عَلَى أَنَّهُمْ لَا يُشْتَبَّهُونَ بِبَبَيْضِ النَّعَامِ إِلَّا الْأَبْكَارُ.

قَالَ الشَّاعِرُ:

أَفْقَنَا بِالصُّحَى مِنْ سَمَاوَةٍ بَبَيْضِ كَالْخَبَاءِ
مُتُونَهَا
عَلَيْهَا نَفْسُهُ غَيْرَ مَتَى يُرْمَ فِي عَيْنِيهِ
بِالشَّخْصِ يَنْهَضُ

يعني بالبيض بيض النعام، وسماوة الشيء: شخصه، لأنّ الظلم لما رأهم قزع ونهص، وهذا البيت أيضاً يدلّ على أنّهُ قزوقُهُ.
وقال ذو الرّمة في بيض النعام:

إِذَا هَبَّ الصَّبَا دَرَجَتْ غَرَابِيبُ مِنْ بَيْضِ هَجَائِنَ
دَرَدَقُ

قال: والصبّ والجنوب تهبان في أيام يُبس البقل، وهو الوقت الذي يثقب النعام فيه المبيض، يقول: درجت به رتلان سود غرابيب، وهي من بيض هجائن: أي بيض، والدردق: الصغار، وهو من صغر الرتلان.

الحصول على بيض النعام

قال طفيل بن عوف الغنوي، وذكر كيف يأخذون بيض النعام:

عَوَازِبُ لَمْ تَسْمَعْ نُبُوحَ
مَقَامَةٍ

تَر تَاراً تَمَّ حَوْلٍ مَجْرَمِ
نَارِ بَيْضٍ أَوْ غَزَالٍ
أَعَنَّ مِنَ الْخُنْسِ الْمُنَاخِرِ
تَوْءَمِ

هذه إبل راعٍ معزبٍ صاحب بوادٍ وبدوةٍ لا يأتي المحاضر والمياه حيث تكون النيران، وهو صاحب لبنٍ وليس صاحب بقل، فإنه لا ترى تاراً سوى تار بيض أو غزال. نار الصيد وهذه النار هي النار التي يُصطاد بها الضبّاء والرتلان

وَبَيَّضُ النَّعَامَ لِأَنَّ هَذِهِ كُلُّهَا تَعْشَى إِذَا رَأَتْ نَارًا، وَيَحْدُثُ لَهَا
فِكْرَةٌ فِيهَا وَنَظْرٌ، وَالصَّبِيُّ الصَّغِيرُ كَذَلِكَ، وَأَوَّلُ مَا يَعَابِثُ
الرَّضِيْعُ، أَوَّلَ مَا يَنْبَاغِي، الْمَصْبَاحُ.
وَقَدْ يَعْتَرِي مِثْلُ ذَلِكَ الْأَسَدَ، وَيَعْتَرِي الصَّفَدَعُ؛ لِأَنَّ الصَّفَدَعَ
يَنْقُ، فَإِذَا رَأَى نَارًا سَكَتَ، وَهَذِهِ الْأَجْنَاسُ قَدْ تُغْتَرُّ بِالنَّارِ،
وَيُحْتَالُ لَهَا بِهَا.

تشبيه الغيوم بالنعام

وتوصف الغيوم المتراكمة بأنَّ عليها نعاماً، قال الشاعر:

الرِّبَابُ دُورِينَ السَّحَا بِ تَعَامٌ تَعَلَّقَ بِالْأَرْجُلِ

وقال آخر:

لَا تَسْتَسْلِمَا وَادَّعُوا كُلُّ أَمْرٍ أَنْ يَصُوبَ رَبِيعُ

وَفِي الْعَظْمِ شَيْءٌ فِي
شَطَاةٍ صُدُوعِ
جِبَالٍ عَلَيْهِنَّ النَّسُورُ
وُقُوعُ

لِبِلَادٍ أَبْعَدَ الْمَحَلِّ
أَهْلِهَا
بِمَنْتَضِكِ غَرِّ النَّشَاصِ
كَأَنَّهَا

استطراد لغوي وقال آخر:

مِنْ بَيْنِ مَحْفُوضٍ وَبَيْنِ
مَظَلَّلٍ

النَّعَامَاتِ الرَّجَالُ
بَرِيدِهَا

والنعائم في السماء، والنعائم والنعامتان من آلات البئر، والنعامة: بيت الصائد.

وقال في مثل ذلك عروة بن مِرَّة الهذلي:

رَيْدٍ كَزُنُقِ الْقَاسِ طريقها سَرِبٌ بِالنَّاسِ
مُشْرِقَةٍ مَجْبُوبٌ
يَبْقُ مِنْ عَزْرَتِهَا إِلَّا حالانِ مِنْهَزْمٌ مِنْهَا وَمَنْصُوبٌ
نِعَامُهَا

مسكن النعام

وفي المثل: ما يُجمَعُ بين الأروى والنعام لأنَّ الأروى تسكن الجبال ولا تُسهل، والنعام تسكن السهل ولا تترقى في الجبال، ولذلك قال الشاعر:

تُكَرِّدِسُ بِالذَّارِعِينَ كَمَشِيِ الوُعُولِ عَلَى
الظَاهِرَةِ

وقال كثير:

مَطَايَا كَالْحَنِيِّ صَوَائِرِاطٍ أَغْبَرَ شَاخِصَ الْأُمِّيَالِ
إِذْ يَغْتَدِي مُتَسَتِّمًا وَهَدًا فَوْهَدًا تَاعِقُ بَرِّئَالِ
شعر في تشبيه النعام وقال الأعشى، في تشبيه النعام بما
يتدلَّى من السحاب من قطع الرباب:

تَرَى بَرِّقًا عَلَى ال جَبَلَيْنِ يُعْجِبُنِي أَنْجِيَابُهُ
سَاقِطِ الْأَكْنِافِ ذِي رَجَلِ أَرَبٍّ بِهِ سَحَابُهُ
النَّعَامِ مُعَلَّقًا لَمَّا رَقَا وَدَنَا رَبَابُهُ

وقال وشبهه ناقته بالظليم:

أَطَافَ لِبَابِهِ بِسَدِيسِيهِ وَمَسَافِرًا وَلَجَا بِهِ وَتَرَبَّدَا
هَقْلًا يُبَارِي هَقْلَةَ رَبْدَاءَ فِي خَيْطِ نَقَانِقِ أَرْبَدَا

وذكر زهير الظليم وأولاده، حتى شبهه ناقته بالظليم:

وردفي والقرباب خاضب الساقين أرعن
ونمرقي نقنق
ترامى به حب الصحارى سماوة قشراء الوظيفين

رأى
إلى ميل الجناحين
عوهق
لدى سكنٍ من بيضها
المتفلق
وعن حدق كالسبج لم
يتفلق

السَّبج: الخَرزُ.

النعامه فرس خالد بن نضلة

وكان اسمُ فرسِ خالدِ بنِ نَضَلَةَ: النَّعامَة، قال:

إِرْحَاءُ النَّعَامَةِ حَنْثَرًا وَدُودَانَ أَدَّتُهُ إِلَيَّ مُكَبَّلًا

تشبيهه مشي الشيخ بمشي الرئال وقال عُروة بن الورد:

ورائي أن أدبَّ على فيأمن أعدائي ويسأمني
أهلي
قَعْرِ الْبَيْتِ كُلِّ عَشِيَّةٍ يُطِيفُ بِي الْوَلْدَانُ أَهْدِجُ
كَالرَّأْلِ

شَبَّهَهُ هَدَجَانُ الشَّيْخِ الصَّعِيفِ فِي مَشِيَّتِهِ بِهِدَجَانَ الرَّأْلِ.

وقال أبو الرَّحْف:

إِلَيْكَ وَجَعًا بِرِكْبَتِي
وَهَدَجَانًا لَمْ يَكُنْ فِي
مِشِيَّتِي

كَهَدَجَانَ الرَّأْلِ حَوْلَ الْهَيْقَتِ

وقال آخر، ولست أدري أيُّهُمَا حَمَلَ عَلَى صَاحِبِهِ:

إِلَيْكَ وَجَعًا بِمِرْفَقِي وَهَدَجَانًا لَمْ يَكُنْ فِي خُلُقِي

كَهَدَجَانَ الرَّأْلِ حَوْلَ التَّنْقِي

ولم يفضحه إلا قوله:

إِلَيْكَ وَجَعًا بِمِرْفَقِي

لأنَّ الأوَّلَ حكى أنَّ وجعه في المكان الذي يُصِيبُ الشُّيُوخَ، ووجعُ المرفقِ مثلُ وجعِ الأذنِ، وضربانِ الصُّرْسِ لِيَسَّسِ مَنْ أوجَعَ الكِبَرُ فـي شـيـيءٍ. شعر فيه ذكر النعامه وقال ابن ميادة، وذكر بني نعامه من بني أسد - وقد كان قَطْرِيُّ بن الفجاءة يكنى أبا نعامه :-

يَمْتَعِّي أَنْ أُسِيرَ بَبَلْدَةٍ مِفْتَاحُ الْمَخَازِي وَبَابُهَا
وهجا دُرَيْدُ بن الصَّمَّةِ رَجُلًا فجعل البيضةَ الفاسدةَ مثلاً له، ثمَّ ألحق النَّسْرَ بأحرار الطيرِ وكرامها -
وما رأيتُهُم يَعْرِفُونَ ذلكَ لنسْرِ - فقال:

على رَعْمِ العَدُولِ التَّقَى عَيْطُ وَبَيْضُ بني
لَنَازِلُ بَدْرُ
حَكَمَ السَّوَاءَاتِ لَا تَهْجُ أَنْتَ إِنْ هَاجَيْتَ إِلَّا مِنْ
وَاصْطَجِعُ الخُصْرِ
أَنْتَ إِلَّا بَيْضَةٌ مَاتَ تَوْتُ فِي سُلُوحِ الطيرِ فِي
فَرَحُهَا بِلَدِ قَفْرِ
بِغَاثٍ: شَرُّ طيرٍ وَسُلَاءٌ لَيْسَتْ مِنْ عُقَابٍ وَلَا
عَلِمَتَهَا نَسْرِ

استطرد لغوي ويقال للأنثى من ولد النعام: قلوص؛ على التشبيه بالنعام من الإبل، وهذا الجمع إلى ما جعلوه له من اسم البعير، وإلى ما جعلوا له من الخفِّ والمنسم، والخرمة، وغير ذلك. قال عنتره:

له قُلُوصُ النَّعَامِ كَمَا يَمَانِيَّةٌ لِأَعْجَمِ طِمْطِمِ

وقال شماخ بن ضرار:

قلوص نعام زفها قد تمورا
وصف الرئال ووصف لبيد الرئال فقال:

فأصحت قد خلت إلا عرارا وعزفاً بعد أحياء جلال
وخيطة من خواضب
مزلقات
كأن رئالها وزق الإفال

وقال حسان بن ثابت، رضي الله عنه:

لِعَمْرُكَ إِنَّ إِلَّكَ فِي قُرَيْشٍ السَّقْفِ مِنْ رَأْلِ النَّعَامِ
وَقَدْ عَابَ عَلَيْهِ هَذَا الْبَيْتَ نَاسٌ، وَظَنُّوا أَنَّهُ أَرَادَ التَّبْعِيدَ، فَذَكَرَ
شَيْئَيْنِ قَدْ يَتَشَابَهُانِ مِنْ وَجْهِهِ، وَحَسَانٌ لَمْ يَرُدُّ هَذَا، وَإِنَّمَا أَرَادَ
ضَعْفَ نَسَبِهِ فِي قُرَيْشٍ، وَأَنَّهُ حِينَ وَجَدَ أَدْنَى نَسَبٍ انْتَحَلَ
ذَلِكَ النَّسَبَ.

النعام فرس الحارث بن عباد

وقال الفرزدق - وذكرَ الفرسَ الذي يقال له: النعام وهو فرسُ الحارثِ بنِ عُبَاد، التي يقول فيها:

مَرْبِطَ النَّعَامِ مَنَلَقَحَتْ حَرْبٌ وَائِلٍ عَنِ حِيَالٍ
وقولُ الفرزدق:

نُجُومَ اللَّيْلِ وَالشَّمْسِ بَنَاتِ الْحَارِثِ بْنِ عُبَادٍ

أَبُوهُنَّ الْأَغْرَى، وَلَمْ يَكُنَّ فِي أَجْبَالِهَا وَهَدَادٍ

الَّذِي آوَى النَّعَامَةَ أَبَتْ وَائِلٌ فِي الْحَرْبِ غَيْرِ
تَمَادٍ

وقد مدحوا بناتِ الحارثِ بنِ عبادِ هذا، فمن ذلك قوله:

بِحَارِشَةِ الصَّبَابِ بِنْتِ الْحَارِثِ بْنِ عُبَادِ

ويلحق هذا البيت بموضعه، من قولهم، باضَ الصَّيْفُ، وباضَ القَيْطُ.

وقال مضرّس:

بِلَمَاعَةٍ قَدْ بَاكَرَ الصَّيْفُ وَبَاضَتْ عَلَيْهَا شَمْسُهُ
وَحَرَائِرُهُ

ابن النعمان، فرس خزر بن لوزان وابن النعمان: فرس خزر بن لؤدّان، وهو الذي يقول لامرأته حين أنكرت عليه إيثاره فرسه باللبن:

العَيْقُ وَمَاءُ شَرِّ بَارِدٍ إِنْ كُنْتُ سَائِلْتِي غَبُوقاً
فَادْهَبِي
لأَحْشَى أَنْ تَقُولَ هَذَا غِبَارٌ سَاطِعٌ فَتَلَبَّبِ
خَلِيلْتِي
الْعَدُوَّ لَهُمْ إِلَيْكَ وَسَيْلِيًّا خُذُوكِ تَكَحَّلِي وَتَخْضَبِي
وَيَكُونُ مَرْكَبُكَ الْقَعُودَ وَابْنُ النَّعْمَانِ يَوْمَ ذَلِكَ
وَجِدْجَهَ مَرْكَبِي

شعر في النعمان

وقال أبو بكر الهذلي:

النَّعْمَانِ الرَّجَالُ يُرْفَعَنَّ بَيْنَ مُشْعَشِعٍ وَمُهَلَّلٍ
بِرِيدِهَا
وقال ذو الإصبع العدواني:

ابنُ عَمِّ عَلَى مَا كَانَ مُخَالَفٌ لِي أَقْلِيهِ وَيَقْلِينِي
خُلُقُ
بِنَا أَنَّنَا شَالَتْ فَخَالَنِي دُونَهُ بَلْ خِلْتُهُ
نَعَامْتُنَا
وقال أبو داؤد الإيادي في ذكر الصَّيد، وذكّر فرسه:

وأخذنا به الصّرارَ وقلنا
يبتغي تفرُّسَ أمِّ البَيِّ
بحقير بنانه أضمارُ
ونعامٍ خالها أثوارُ
جُفِّ أوابدٍ ونعامٍ
حوال العقارب العمرُ
ينهضن بالصباح عذارُ

ثم قال:

يتكشفن عن صرائع ست قُسمت بينهن كأس عِقَارُ

رَبْدَاءَ كَالْمِظَلَّةِ أَفْقٍ وظليمٍ مَعَ الظَّليمِ حمائرُ
ومهاتين حربين ورنالٍ وسيوبٌ كأنه أوتارُ
ووصف علقمة بن عبدة ناقته، وشبهها بأشياء منها، ثم أطنب في تشبيهه إياها بالظلم:

السوط شزرًا وهي توجس طاوى الكشح
ضامزة موشوم
خاضب زعرٌ قوائمه أجنى له باللوى شريئُ
وتنوم في الحنظل الخطبان وما استطف من التنوم
مخدوم كتحق العصا لايا تبينه أسك ما يسمع الأصوات
مصلوم منه اختل مقلته كأنه حاذرٌ للنخس
مشهوم تذكر بيضاتٍ وهيجه يوم رذاذٍ عليه الريح
مغيوم تزيدده في مشيه نفقٌ ولا الزفيف دوين الشد
مسئوم إلى حسكلٍ زعرٍ كأنهن إذا بركن جرثوم
حواصلها وضاعةٌ كعصى الشرع كأنه بتناهي الروض
جؤجؤه علاجوم تلافي وقرن الشمس رُدحى عرسين فيه البيض
مركوم إليها بإنقاضٍ كما تراطن في أقدانها
ونقنقةٍ الروم أطافت به خرقاءُ
مهمجوم كان جناحيه وجؤجؤه
هقله سطاء بزمارٍ فيه ترنيم
خاضبةٌ

رؤيا النعام

الأصمعيّ قال: أخبرني رجلٌ من أهل البصرة قال: أرسلَ شيخٌ من تَقِيْفِ ابْنِه فلاناً - ولم يحفظ اسمه - إلى ابن سيرين، فكلّمه بكلامٍ، وأمُّ ابنه هذا قاعدهٌ، ولا يظنُّ أنّها تَفْطِنُ، فقال له: يا بنيّ اذهبْ إلى ابن سيرين، فقل له: رجلٌ رأى أنّ له نعاماً تطحن، قال: فقلت له؛ فقال: هذا رجلٌ اشترى جاريةً فحبَّأها في بني حنيفة، قال: فجئت أبي فأخبرته، فناقرته أمّي، وما زالت به حتى اعترفت أنّ لــــه جاريةً فــــي بني حنيفة. وما أعرفُ هذا التأويل، ولولا أنّه من حديث الأصمعي مشهورٌ ما ذكرته في كتابي. مسيلمة الكذاب وأمّا قول الشاعر الهذليّ في مسيلمة الكذاب، في احتياله وتمويهه وتشبيهه ما يحتال به من أعلام الأنبياء، بقوله:

بَبَيْصَةِ قَارُورٍ وَرَايَةٍ وتوصيل مقصوص من
شَّادِنِ الطير جَارِفِ

قال: هذا شعرٌ أنشدناه أبو الزرقاء سَهْمُ الخثعمي، هذا منذُ أكثر من أربعين سنة، والبيتُ من قصيدةٍ قد كان أنشدنيها فلم أحفظُ منها إلا هذا البيت. فذكر أنّ مسيلمة طاف قبل التنبّي، في الأسواق التي كانت بين دُور العجم والعرب، يلتقون فيها للتسوّق والبياعات، كنحو سُوق الأبلّة، وسوق لقه، وسوق الأنبار، وسوق الجيرة.

قال: وكان يلتمس تعلّم الجيل والتّيرجات، واختيارات

النُّجُومِ وَالْمُتَنَبِّئِينَ، وَقَدْ كَانَ أَحْكَمَ حَيْلِ السَّدَنَةِ وَالْحُؤَاءِ
وَأَصْحَابِ الرَّجْرِ وَالْخَطِّ وَمَذْهَبِ الْكَاهِنِ وَالْعَيَّافِ وَالسَّاحِرِ،
وَصَاحِبِ الْجِنِّ الَّذِي يَزْعَمُ أَنَّ مَعَهُ تَابِعَهُ.
قَالَ: فَخَرَجَ وَقَدْ أَحْكَمَ مِنْ ذَلِكَ أُمُورًا، فَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ صَبَّ
عَلَى بَيْضَةٍ مِنْ خَلٍّ قَاطِعٍ - وَالْبَيْضُ إِذَا أُطِيلَ إِنْقَاعُهُ فِي
الْخَلِّ لَانَ قَشْرُهُ الْأَعْلَى، حَتَّى إِذَا مَدَدْتَهُ اسْتَطَالَ وَاسْتَدَقَّ
وَامْتَدَّ كَمَا يَمْتَدُّ الْعِلْكُ، أَوْ عَلَى قَرِيبٍ مِنْ ذَلِكَ - قَالَ: فَلَمَّا
تَمَّ لَهُ فِيهَا مَا طَاوَلَ وَأَمَّلَ، طَوَّلَهَا ثُمَّ أَدْخَلَهَا قَارُورَةً ضَيْقَةً
الرَّأْسِ، وَتَرَكَهَا حَتَّى جَفَّتْ وَبَيَّسَتْ، فَلَمَّا جَفَّتْ انضَمَّتْ،
وَكَلَّمَا انضَمَّتْ اسْتَدَارَتْ، حَتَّى عَادَتْ كَهَيْئَتِهَا الْأُولَى،
فَأَخْرَجَهَا إِلَى مُجَاعَةٍ، وَأَهْلَ بَيْتِهِ، وَهَمَّ أَعْرَابُ، وَادَّعَى بِهَا
أَعْجُوبَةً، وَأَنَّهَا جُعِلَتْ لَهُ آيَةٌ، فَأَمَّنَ بِهِ فِي ذَلِكَ الْمَجْلِسِ
مُجَاعَةً، وَكَانَ قَدْ حَمَلَ مَعَهُ رِيشًا فِي لَوْنِ رِيشِ أَزْوَاجِ
حَمَامٍ، وَقَدْ كَانَ يَرَاهُنَّ فِي مَنْزِلِ مُجَاعَةٍ مَقَاصِيصَ، فَالْتَفَتَ،
بَعْدَ أَنْ أَرَاهُمُ الْآيَةَ فِي الْبَيْضِ، إِلَى الْحَمَامِ فَقَالَ لِمُجَاعَةٍ:

إلى كم تعذب خلق الله بالقصص؟ ولو أراد الله للطير خلاف
الطيران لما خلق لها أجنحة، وقد حرمت عليكم قصص أجنحة
الحمام فقال له جماعة كالمتعنت: فسئل الذي أعطاك في
البيض هذه الآية أن يُنبئ لك جناح هذا الطائر الذكر
السَّاعَة.

فقلت لسهم: أما كان أجود من هذا وأشبهه أن يقول: فسئل
الذي أدخل لك هذه البيضة فم هذه القارورة أن يخرجها كما
أدخلها، قال، فقال: كأن القوم كانوا أعراباً، ومثل هذا
الامتحان من جماعة كثير، ولعمري إن المتنبي ليخدع ألفاً
مثل قيس ابن زهير، قبل أن يخدع واحداً من آخر
المتكلمين، وإن كان ذلك المتكلم لا يشقُّ غبار قيس فيما
قيسُ بسبيله.

قال مسيلمة: فإن أنا سألتُ الله ذلك، فانتبه له حتى يطير
وأنتم تروته، أتعلمون أني رسول الله إليكم؟ قالوا: نعم،
قال: فإني أريد أن أناجي ربِّي، وللمناجاة خلوة، فانهضوا

عَنِّي، وَإِنْ شِئْتُمْ فَادْخُلُوهُ هَذَا الْمَبِيتِ وَأَدْخُلُونِي مَعَهُ، حَتَّى
أُخْرِجَهُ إِلَيْكُمْ السَّاعَةَ فِي الْجَنَاحَيْنِ يَطِيرُ، وَأَنْتُمْ تَرَوْنَهُ، وَلَمْ
يَكُن الْقَوْمُ سَمِعُوا بِتَغْرِيزِ الْحَمَامِ، وَلَا كَانَ عِنْدَهُمْ بَابُ
الِاحْتِيَاطِ فِي أَمْرِ الْمُحْتَالِينَ، وَذَلِكَ أَنْ عُبِيداً الْكَيْسَ، فَإِنَّهُ
الْمُقَدَّمُ فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ، لَوْ مَنَعُوهُ السُّتْرَ وَالِاخْتِفَاءَ، لَمَّا
وَصَلَ إِلَى شَيْءٍ مِنْ عَمَلِهِ جَلٌّ وَلَا دَقٌّ؛ وَلَكِنْ وَاحِداً مِنْ
النَّاسِ. فَلَمَّا خَلَا بِالطَّائِرِ أَخْرَجَ الرِّيشَ الَّذِي قَدْ هَيَّأَهُ، فَادْخَلَ
طَرَفَ كُلِّ رِيشَةٍ مِمَّا كَانَ مَعَهُ، فِي جَوْفِ رِيشِ الْحَمَامِ
الْمَقْصُوصِ، مِنْ عِنْدِ الْمَقْطَعِ وَالْقَصِّ، وَقَصَبُ الرِّيشِ
أَجَوْفٌ، وَأَكْثَرُ الْأَصُولِ جِدَادٌ وَصَلَابٌ، فَلَمَّا وَفَى الطَّائِرَ رِيشَهُ
صَارَ فِي الْعَيْنِ كَأَنَّهُ بِرَدَّوْنٍ مُوَصُولِ الذَّنْبِ، لَا يَعْرِفُ ذَلِكَ إِلَّا
مَنْ ارْتَابَ بِهِ، وَالْحَمَامُ بِنَفْسِهِ قَدْ كَانَ لَهُ أَصُولُ رِيشٍ، فَلَمَّا
عُرِّزَتْ تَمَّتْ فَلَمَّا أُرْسِلَهُ مِنْ يَدِهِ طَارَ، وَيَنْبَغِي أَلَّا يَكُونَ فَعَلَ
ذَلِكَ بِطَائِرٍ قَدْ كَانُوا قَطُوهُ بَعْدَ أَنْ ثَبَتَ عِنْدَهُمْ، فَلَمَّا فَعَلَ
ذَلِكَ أَزْدَادَ مَنْ كَانَ آمَنَ بِهِ بِصِيرَةً، وَآمَنَ بِهِ آخَرُونَ لَمْ

يكونوا آمنوا به، ونزع منهم في أمره كلُّ من كان مستبصراً
ف_____ في تكيهه.

قال: ثمَّ إِنَّه قال لهم - وذلك في مِثْل لَيْلَةٍ مُنْكَرَةِ الرِّيحِ
مُظْلَمَةٍ، في بعض زمان البوارح - إِنَّ المَلَكَ عَلَى أن ينزل
إِلَيَّ، والملائكة تطير، وهي ذوات أجنحة، ولمجيء المَلِكِ
رَجُلٌ وخشخشة وقعقة، فمن كان مِنْكُمْ ظاهراً فَلْيَدْخُلْ
منزَلَه؛ فَإِنَّ من تأمَّل اختطِّف بصُرُه.
ثمَّ صنَع رايَةً من رايات الصُّبيان التي تعمل من الورق
الصُّينِيِّ، ومن الكاغِدِ، وتُجَعَلُ لها الأذنانُ والأجنحة، وتعلَّق
في صدورها الجلاجل، وترسَل يوم الرِّيح بالخيوط الطُّوال
الصُّلاب، قال: فبات القومُ يتوقَّعون نزولَ المَلِكِ، ويلاحظون
السَّمَاءَ، وأبطأ عنهم حتَّى قام جُلُّ أهلِ اليمامة؛ وأطنبت
الرِّيح وقويت، فأرسلها، وهم لا يَرَوْنَ الخيوطَ، واللَّيْلُ لا يُبِينُ
عن صورة الرِّقِّ، وعن دَقَّةِ الكاغِدِ، وقد توهَّموا قبل ذلك
الملائكة، فلمَّا سمِعُوا ذلك ورأوه تصارَّخُوا وصاح: من

صَرَفَ بَصْرَهُ وَدَخَلَ بَيْتَهُ فَهُوَ آمِنٌ فَاصْبِحَ الْقَوْمُ وَقَدْ أَطْبَقُوا
عَلَى نَصْرَتِهِ وَالذَّفْعِ عَنْهُ، فَهُوَ قَوْلُهُ:

بَبِيصَةَ قَارُورٍ وَرَايَةَ شَادِنٍ

وتوصيل مقصوص من الطير جادفٍ

فقلت لسهمٍ: يكونُ مثلُ هذا الأمرِ العجيبِ، فَلَا يَقُولُ فِيهِ شَاعِرٌ، وَلَا يَشِيْعُ بِهِ خَبْرٌ؟ قَالَ: أَوْكَلَمَا
كَانَ فِي الْأَرْضِ عَجَبٌ، أَوْ شَيْءٌ غَرِيبٌ، فَقَدْ وَجَبَ أَنْ يَشِيْعَ ذِكْرُهُ، وَيُقَالُ فِيهِ الشُّعْرُ، وَيَجْعَلُ زَمَانُهُ
تَارِيخًا أَلْسِنًا مَعْتَبَرًا الْعَرَبِ نَزْعُ مَنْ كَسَرَى أَبْرُويزَ، وَهُوَ مِنْ أَحْرَارِ فَارَسَ، مِنْ الْمُلُوكِ الْأَعَاطِمِ،
وَسَلِيلُ مُلُوكٍ، وَأَبُو مُلُوكٍ، مَعَ حَزْمِهِ وَرَأْيِهِ وَكَمَالِهِ، خَطَبَ إِلَى الثُّعْمَانَ بْنِ الْمَنْذَرِ، وَإِلَى رَجُلٍ يَرْضَى
أَنْ تَكُونَ أَمْرُهُ ظَنْرًا لِبَعْضِ وَلَدِ كَسَرَى، وَهُوَ عَامِلُهُ، وَيَسْمِيهِ كَسَرَى عَبْدًا، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ أَحْيَمُرُ
أَقْبِيئِرُ، إِذَا مِنْ أَشْلَاءِ قَصِيٍّ بْنِ مَعَدٍ، وَإِمَامٍ مِنْ عُرْضِ لَحْمٍ، وَهُوَ الَّذِي قَالُوا: تَرَوِّجُ مَوْمَسَةَ - وَهِيَ
الْفَاجِرَةُ؛ وَلَا يُقَالُ لَهَا مَوْمَسَةُ إِلَّا وَهِيَ بِذَلِكَ مَشْهُورَةٌ - وَعَرَفَهَا بِذَلِكَ، وَأَقَامَ عَلَيْهَا، وَهَجِيَ بِهَا وَلَمْ
يَحْفَلْ بِهَجَائِهِمْ، وَمِمَّا زَادَ فِي شَهْرَتِهَا قِصَّةُ الْمَرْقَشِ، وَنَاكَهَا قُرَّةُ بْنُ هُبَيْرَةَ حِينَ سَبَاهَا، فَعَلِمَ بِذَلِكَ
وَأَقَامَ عَلَيْهَا، ثُمَّ لَمْ يَرْضَ حَتَّى قَالَ لَهَا: هَلْ مَسَّلِكِ؟ قَالَتْ: وَأَنْتَ وَاللَّهِ لَوْ قَدَّرَ عَلَيْكَ لَمَسَّكَفَلَمَ يَرْضَ
بِهَا حَتَّى قَالَ لَهَا: صِفِي لِي، فَوَصَفَتْهُ حَتَّى قَالَتْ: كَأَنَّ شَعْرَ حَدْيِي حَلَقُ الدُّرْعِ وَبَالَ عَلَى رَأْسِهِ خَلْفَ
ابْنِ نَوَالَةَ الْكِنَانِيِّ عَامَ حَجٍّ، وَتَصَّرَهُ عَدِيُّ بْنُ زَيْدٍ بِأَحْمَقٍ سَبَبَ، وَخَطَبَ أُخُوهُ الْمَنْذَرُ إِلَى عُبَيْدَةَ بْنِ
هَمَامٍ، فَرَدَّهُ أَفْبَحَ الرَّدِّ، وَقَالَ:

وَلَمْ أَرْضَ مَا بَيَّنُّوا وَقَدْ طَرَفُونِي بِأَمْرٍ تُكْرُ
أَيَّمَهُمْ مُنْذِرًا وَهَلْ يُنْكِحُ الْعَبْدَ حُرًّا لِحُرًّا

ثُمَّ مَعَ ذَلِكَ خَطَبَ إِلَيْهِ كَسَرَى بَعْضَ بَنَاتِهِ فَرَغِبَ بِهَا عَنْهُ،
حَتَّى كَانَ ذَلِكَ سَبَبَ هَرَبِهِ وَعِلَّةَ لِقَتْلِهِ فَهَلْ رَأَيْتَ شَاعِرًا فِي
ذَلِكَ الزَّمَانِ مَعَ كَثْرَةِ الشُّعْرَاءِ فِيهِ، وَمَعَ افْتِخَارِهِمْ بِالَّذِي
كَانَ مِنْهُمْ فِي يَوْمِ جَلُولَى وَيَوْمِ ذِي قَارٍ، وَفِي وَقَائِعِ الْمُثَنَّى

بن حارثة وسعد بن أبي وقاص - فهل سمعت في ذلك
بشعرٍ صحيحٍ طريفٍ المخرج، كما سمعته في جميع
مفاخرهم ممّا لا يداني هذا المَفخَرُ؟.
ولقد حَظَبَ بَعْضُ إِخْوَتِهِ إِلَى رِجَالٍ مِنْ نِزَارٍ، مِنْ غَيْرِ أَهْلِ
البيوتات، فرغبوا عنهم. وأمّ النعمان سلّمت بنت الصّائغ:
يهوديٍّ من أنباط الشام، ثمّ كان تَجَلُّهُ لِفِعْلِ غَيْرِ مَحْمُودٍ.
وقد قال جَبَلَةُ بن الأيهم، لحسان بن ثابت: قد دَخَلَتْ عَلَيَّ
ورأيتني، فأين أنا من النّعمان؟ قال: واللّه...
فالنّعمان مع هذه المثالب كلّها قد رَغِبَ بِنَفْسِهِ عَنْ
مِصَاهِرَةِ كِسْرَى، وهو من أُنْبِيَةِ الْأَكَاسِرَةِ، وكما كان أَبْرَوَيْزُ
أَعْظَمَ حَظَرًا، كَانَتْ أَتَفْتُهُ أَفْخَرَ لِلْعَرَبِ، وأدَلَّ عَلَى مَا يَدَّعُونَ
مِنَ الْعُلُوِّ فِي النِّسْبِ وَكَانَ الْأَمْرُ مِشْهُودًا ظَاهِرًا، وَمُرَدَّدًا
عَلَى الْأَسْمَاعِ مُسْتَفِيضًا، فَإِذْ قَدْ تَهَيَّأَ أَنْ يَكُونَ مِثْلُ هَذَا الْأَمْرِ
الجليل، والمفخر العظيم، والعربُ أَفْخَرُ الْأُمَمِ، وَمَعَ ذَلِكَ قَدْ
أَغْفَلُوهُ - فَشَأْنُ مَسِيلَمَةَ أَحَقُّ بِأَنْ يَجُوزَ ذَلِكَ عَلَيْهِ.

وأنشدني يوسفُ لبعضِ شعراءِ بني حنيفة، وكان يُسمَّى
مُسَيْلَمَةَ وَيُكْنَى أبا ثُمَامَةَ:

عَلَيْكَ أبا ثُمَامَةَ لهفي على رُكْنِي شَمَامَةَ
آيَةٌ لِأَبِيهِمْ كَالشَّمْسِ تَطْلُعُ مِنْ غَمَامَةَ

وقد كتبنا قِصَّتَهُ وَقِصَّةَ ابْنِ التَّوَّاحَةِ فِي كِتَابِنَا الَّذِي ذَكَرْنَا فِيهِ قِصَلَ مَا بَيْنَ النَّبِيِّ وَالْمُتَنَبِّي وَذَكَرْنَا
جَمِيعَ الْمُتَنَبِّينَ، وَشَأْنَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَلَى جِدَّتِهِ، وَبِأَيِّ ضَرْبٍ كَانَ يَحْتَالُ، وَذَكَرْنَا جُمْلَةَ احْتِيَالاتِهِمْ،
وَالأَبْوَابَ الَّتِي تَدُورُ عَلَيْهَا مَخَارِيقُهُمْ، فَإِنْ أُرِدْتَ أَنْ تَعْرِفَ هَذَا الْبَابَ فَاطْلُبْ هَذَا الْكِتَابَ؛ فَإِنَّهُ
مَوْجُودٌ.

هَجَاءُ النُّعْمَانِ وَقَدْ هَجَا عَبْدُ الْقَيْسِ بَنُ خُفَافِ الْبُرْجُمِيِّ، التُّعْمَانَ بْنَ الْمُنْذَرِ، فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَذَكَرَ وِلَادَةَ
الصَّائِغِ لَهُ فَقَالَ:

اللَّهُ ثُمَّ ثَنَى يَلَعِنِ ابْنَ ذَا الصَّائِغِ الظُّلُومِ
الجِهولاً
الجَيْشِ ذَا الأُلُوفِ ثُمَّ لَا يَرِزُ العَدُوَّ قَتِيلًا

سَهْمُ الحَنْفِيِّ وَكَانَ سَهْمُ الحَنْفِيِّ يُلِي طَبَرِستانَ، لِمَعْنِ بْنِ
زَائِدَةَ، مَعَ حَدَاثَةِ سَنِهِ يَوْمئِذٍ، وَكَانَ لَهُ مَرُوءَةٌ وَقَدْرٌ فِي نَفْسِهِ،
كَثْرَةُ الشُّعْرِ وَقِلَّتُهُ فِي بَعْضِ قَبَائِلِ العَرَبِ وَبَنُو حَنيفَةَ مَعَ كَثْرَةِ
عَدَدِهِمْ، وَشِدَّةِ بَأْسِهِمْ، وَكَثْرَةِ وَقَائِعِهِمْ، وَحَسَدِ العَرَبِ لَهُمْ
عَلَى دَارِهِمْ وَتَخُومِهِمْ وَسَطَا أَعْدَائِهِمْ، حَتَّى كَانَهُمْ وَخَدَّهُمْ
يَعْدِلُونَ بَكْرًا كُلِّهَا - وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ تَرِ قَبِيلَةً قَطُّ أَقَلَّ شِعْرًا

منهم، وفي إختهم عَجَلُ قَصِيدُ وَرَجَزُ، وَشُعْرَاءُ وَرَجَّازُونَ،
وليس ذلك لمكانِ الخِصْبِ وأتَّهم أهلُ مَدْرَ، وأكَّالو تمرٍ؛ لأنَّ
الأوسَ والخزرجَ كذلك، وهم في الشعر كما قد علمت،
وكذلك عبدُ القيسِ النَّازلة قري البحرين، فقد تعرفُ أنَّ
طعامهم أَطْيَبُ من طعام أهلِ اليمامة.
وثقيفُ أهلُ دارٍ ناهيك بها خِصْباً وطيباً، وهم وإن كان شعرهم
أقلَّ، فإنَّ ذلك القليلَ يدلُّ على طَبَعٍ في الشعر عجيب،
وليس ذلك من قِبَلِ رداءةِ الغداء، ولا من قِلَّةِ الخِصْبِ
الشَّاغل والغِنَى عن النَّاسِ؛ وإِنَّمَا ذلك عن قَدْرٍ ما قَسَمَ اللهُ
لهم من الحظوظ والغرائزِ، والبلاد والأعراقِ مكانها.
وبنو الحارث بن كعب قبيلُ شريفٌ، يجزون مَجَارِي ملوكِ
اليمن، ومجاري ساداتِ أعرابِ أهلِ تَجْدٍ ولم يكن لهم في
الجاهليَّةِ كبيرُ حَظٍّ في الشعر، ولهم في الإسلام شعراءُ
مفلقٌ

وبنو بَدْرِ كانوا مَفْحَمِينَ، وكان ما أطلق اللهُ به ألسنة العرب

خيراً لهم من تصيير الشعر في أنفسهم.
وقد يَحْطَى بالشعر ناسٌ ويخْرُج آخرون، وإن كانوا مثلهم أو
فوقهم، ولم تُمدَح قبيلةٌ في الجاهليَّة، من قريش، كما مُدحت
مخزوم، ولم يتَهَيَّأ من الشَّاهد والمثَلِ لمادِحٍ في أحدٍ من
العرب، ما تهَيَّأ لبني بَدْر.
وقد كان في ولد زُرارة لُصُّبه، شعر كثير، كشعر لقيط
وحاجبٍ وغيرهما من ولده، ولم يكن لحديفة ولا حصن، ولا
عينة بن حصن، ولا لحمل بن بدر شِعْرٌ مذكور.
حظوة الخلفاء الولاة بالشعر وقد كان عبد العزيز بن مَرْوَانَ
أَحْطَى في الشعر من كثير من خلفائهم، ولم يكن أحدٌ من
أصحابنا، من خُلَفائنا وأئمتنا، أَحْطَى في الشعر من الرَّشيد،
وقد كان يزيد ابن مَرْيَد وَعُمُّهُ، مَمَّنْ أَحْطَاهُ الشُّعْرُ.
وما أعلمُ في الأرض نعمة بَعْدَ وِلايَةِ اللَّهِ، أَعْظَمَ من أن يكونَ
الرَّجُلُ ممدوحاً.

الصُّمُّ من الحيوان

تَذَكَّرْتُ إِخْوَانِي فَبِتُّ كما ذكرت بؤاً من الليل
مُسْتَهْدًا قَاقِدُ

لِعَمْرِي لَقَدْ أَمَهَلْتُ فِي نَهْيِ عَنِ الشَّامِ إِمَّا يَعْصِيَنَّكَ
خَالِدُ

وَأَمَهَلْتُ فِي إِخْوَانِهِ فَكَأَنَّمَا تَسْمَعُ بِالنَّهْيِ النَّعَامُ
الْمُشَرَّرُ

وقال الذي زعم أنها تسمع: فقد قال الله عز وجل: "أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ" ولو عني أن عماهم كعمى العميان، وصممهم كصمم الضمآن، لما قال: "أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا" وإنما ذلك كقوله: "إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ" وكيف تُسمع المدبر عنك ولذلك يقال: إِنَّ الْحَبَّ يُعْمِي وَبُصْمٌ، وقد قال الهذلي:

بِالنَّهْيِ النَّعَامُ الْمُشَرَّرُ

والشارد النافر عنك لا يوصف بالفهم، ولو قال: تسمع بالنهي، وسكت - كان أبلغ فيما يريد، وهو كما قال الله تعالى: "وَلَا تَسْمِعُ الصَّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ"، قال الرَّاجز:

رِدِّي وَرِدَ قَطَاةٍ صَمًّا كُدْرِيَّةٍ أَعْجَبَهَا بَرْدُ الْمَا

أي لأنها لا تسمع صمًّا وتأنيبهَا وبردُهَا.

وأنشد قول الشاعر:

دَعَوْتُ خُلَيْدًا دَعْوَةً دَعَوْتُ بِهِ ابْنَ الطَّوْدِ أَوْ هُوَ
فَكَأَنَّمَا أَسْرَعُ

والطود: الجبل، وابتئ: الحجر الذي يتدهده منه، كقوله:

كَجُلْمُودِ صَخْرٍ حَطَّ السَّيْلُ مِنْ عِلِّ

وقال الرَّاجز:

وَمَنْهَلٍ أَعْوَرَ إِحْدَى الْعَيْنَيْنِ صِيرَ أُخْرَى وَأَصَمَّ الْأُذُنَيْنِ
كَأَنَّهُ كَانَ فِي ذَلِكَ الْمَنْهَلِ بَيْرَانٍ، وَالْأَبَارُ أَعْيُنٌ، فَعُورَتْ إِحْدَى

الْبَيْرَيْنِ وَتُرِكَتِ الْأُخْرَى وَقَوْلُهُ: أَصَمَّ الْأُذُنَيْنِ لِمَا أَنْ كَانَ عِنْدَهُ

في الأرض فَصَاءٌ وَخَلَاءٌ، حيثُ لا يسمع فيه صوت، جعله أنْ
كان لا يسمَعُ صوتاً أصمَّ؛ وإنْ كان ذلك لِقَقْدِ الأصواتِ.

شاهد من الشعر لسمع الناقه

قال: وقد قال الحارثُ بن جِلزَةَ قولاً يدلُّ على أنَّها تسمع، حيث قال:

أَسْتَعِينُ يَوْمًا عَلَى الهِمْمِ إِذَا خَفَّ بِالْتَّوِيِّ النَّوَاءُ
بَرْفُوفٍ كَأَنَّهَا هِقْلَةٌ أَمْ رِئَالٍ دَوِيَّةٌ سَفْعَاءُ

ثم قال:

تِبْأَةٌ وَأَفْرَعَهَا الْقُنْ عَصْرًا وَقَدْ دَنَا الْإِمْسَاءُ
خَلَقَهُنَّ مِنْ سُرْعَةٍ يَمِينًا كَأَنَّهُ أَهْبَاءُ

ولو قال: أَفْرَعَهَا الْقُنَّاصُ ولم يقل: أَتَسَتْ نِبْأَةٌ - والتَّبْأَةُ الصَّوْتُ - لكان لَكُمْ في ذلك مَقَالٌ، وقال
امرؤ القيس:

صِلَابٌ مَا يَقِينُ مِنْ مَكَانِ الرَّذْفِ مِنْهُ عَلَى
الْوَجَى
وإنما يعني أنها مُصَمَّتَةٌ غير جَوْفَاءٍ، وقال الآخر:

بَدَا لَكَ مِنْ زُورٍ وَمِنْ جِلْمِي أَصْمٌ وَأُذُنِي غَيْرُ
صَمَاءٍ

يريد أنَّ حِلْمَهُ ليس بسخيف متخلخل، وليس بخفيف سارٍ، ولكنّه مصمّت، قال الشاعر:

وَأَسْأَلُ مِنْ صَمَاءِ ذَاتِ صَلِيلٍ
وَإِنَّمَا يَرِيدُ أَرْضًا يَابِسَةً، وَرَمْلَةً تَشَافِقَةٌ، تَسْأَلُ الْمَاءَ: أَي تَرِيدُهُ

وتبتلعه؛ وهي في ذلك صَمَاءٌ،

ذكر الصُّمِّ في القرآن الكريم

وقد قال الله لناسٍ يسمعون: "صُمُّ بَكْمٌ عُمِيٌّ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ" ذلك على المثل، وقال: "وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بَكْمٌ عُمِيٌّ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ"، وذلك كله على ما فسّرنا، وقال: "وَالَّذِينَ إِذَا دُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا" وقال أيضاً: "إِنَّمَا أَنْذَرَكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ".

شعر في معنى الصمم

وقال عنترة:

نَكَرُ الْمَشْرِفِيَّةِ وَخُرْصَانَ صُمِّ السَّمْهَرِيِّ
المثقف

فيهم
وقال العجيز السلولي:

جَذَبَ الْقَوْمُ الْعَصَائِبَ ففِيهِنَّ عَنْ صَلْعِ الرِّجَالِ
مُؤَخَّرًا
نِدَاءُ الْعَصَبِ مُلْقَى سَلَى فَرَسٍ تَحْتَ الرِّجَالِ
عَقُورُ
الصُّخُورِ الصُّمِّ يَسْمَعَنَّ لِرُحْنٍ وَفِي أَعْرَاضِهِنَّ
فَطُورُ

وقال زهير:

صَخْرَةً صَمَاءَ فِي كَيْدِ
خُلِقَتْ غَلِيظَةً الْكَبِدِ

خُلِقْتُ لِلْأَبَدِ
تَشْكِي شَرِّ جَارَتِهَا

وقالت جُمْل بنتُ جَعْفَر:

جَعْفَرٍ لَا سِلْمَ حَتَّى
تَزُورَكُمُ
بِكَلِّ رُدِينِي وَأَبْيَضَ ذِي أَثْرِ

?وَحَتَّى تَرَوْا وَسَطَ الْبُيُوتِ مُغْيِرَةً=تُصْمِكُمْ بِالصَّرْبِ حَاشِيَةَ الدُّعْرِ

لِذِي الشُّكِّ الَّذِي لَوْ بَصِرْتُهَا الْأَعْمَى وَيَسْمَعُ ذُو
دَرَى
الْوَفْرِ

وقال دريد:

كَانَ الْمَلُوكُ قَطِينًا
عَلَيَّ وَلايَةُ صَمَاءَ مِنِّي

مثل وحديث في الصمم

ومن الأمثال قولهم: صَمَّتْ حَصَاةُ بَدَمٍ قَالَ: فَأَصْلُهُ أَنْ يَكْتُرَ الْقَتْلُ وَسَفْكَ الدِّمَاءِ، حَتَّى لَوْ وَقَعَتْ حَصَاةٌ عَلَى الْأَرْضِ لَمْ يُسْمَعْ لَهَا صَوْتُ؛ لِأَنَّهَا لَا تَلْقَى صَلَابَةَ الْأَرْضِ. وَقَدْ جَاءَ فِي بَعْضِ الْحَدِيثِ: إِذَا كَانَتْ تِلْكَ الْمَلَاجِمُ بَلَعَتْ الدِّمَاءَ الثُّنَنَ يَعْنِي ثُنَنَ الْخَيْلِ، وَهُوَ الشَّعْرُ الَّذِي خَلْفَ الْحَافِرِ.

صمت السيف

وقال الرُّبَيْر بن عبد المطلب:

وَيْبِي نَخْوَةَ الْمُخْتَالِ
عَنِّي جُرَّارُ الْحَدِّ صَرَبْتُهُ

لَأَنَّ السَّيْفَ إِذَا مَرَّ فِي الْعِظْمِ مَرًّا سَرِيعًا فَلَمْ يَكُنْ لَهُ صَوْتُ
- كان في معنى الصامت.

شعر في مجاز الصمم

وقال ابن ميادة:

أدعُ في قيسِ بنِ عَيْلَانَ قَزَعِ تُرْكَبِ إِلَيَّ خِيُولَهَا

بملمومة كالطودِ شهباء رَدَاحٍ يَصُمُّ السَّامِعِينَ
فَيَلْقُ صَليْلِهَا

لأنَّ الصَّوْتِ إِذَا اتَّسَدَّ جَدًّا لَمْ يُفْهَمْ مَعْنَاهُ، إِنْ كَانَ صَاحِبُهُ أَرَادَ أَنْ يَخْبِرَ عَنِ شَيْءٍ، وَمَتَى كَثُرَتْ
الأصواتُ صارت وَغَى، ومنع بعضها بعضاً من الفهم، فإذا لم يفهمها صار في معنى الأصمِّ، فجاز أن
يسمى باسم الأصمِّ.

وعلى ذلك قال الأصبط بن قريع، حين أذوه بنو سعدٍ فتحوّل من جوارهم في آخرين فأذوه، فقال:
يَكُ وادٍ بُتُّ و سَ عِد.

وقال جرّانُ العود:

وَقَالَتْ لَنَا وَالْعَيْسُ صُعْرُ مَرُواخِفَافَهَا بِالْجَنْدَلِ الصُّمِّ
تَقْذِفُ

قول منكر صمم النعام

وقال الذي ينكر صمم شيءٍ من الخلق: اعتلتم في صمم النعام بقول زهير:

مُصَلِّمِ الأُدْتَيْنِ أَجْتَى لَهُ بِالسِّيِّ تَنْوُمٌ وَآءُ

ويقول أوس بن حجر:

دَوِي الْأَخْلَامِ عَنِّي وَأَرْفَعُ صَوْتِي لِلنَّعَامِ
خُلُومُهُمُ الْمَخْرَمِ

يريد خَرَقَ أَنفِه، وهو في موضعِ الخَرَمَةِ من البعير.
وأما قوله: وَأَرْفَعُ صَوْتِي لِلنَّعَامِ فَإِنَّمَا خَصَّ بِذَلِكَ النَّعَامَ لِأَنَّهَا
تَجْمَعُ الشُّرُودَ وَالتَّفَارَ، إِلَى الْمُوقِ وَسُوءِ الْفَهْمِ، وَلَوْ قَالَ:
وَأَرْفَعُ صَوْتِي لِلْحَمِيرِ وَالدَّوَابِّ لَكَانَ كَذَلِكَ، وَالمَصْلَمَةُ:
السُّكُّ الْمَتِي لِيَسَّ لآذَانَهَا حَجْمًا.
رد عليه قال: قَوْلُ الَّذِي زَعَمَ أَنَّهَا لَيْسَتْ بِصَمَاءٍ لَا يَجُوزُ؛ لِأَنَّ
الدَّوَابَّ تَسْمَعُ وَتَفْهَمُ الرَّجْرَجَ، وَتَجِيبُ الدُّعَاءَ، بَلْ لَوْ قَالَ:
وَأَرْفَعُ صَوْتِي لِلصُّخُورِ وَالحِجَارَةِ، كَانَ صَوَابًا، وَكَانَ لِرَفْعِ
صَوْتِهِ مَعْنَى؛ إِذْ كَانَ الرَّفْعُ وَالمَوْضِعُ عِنْدَ الصُّخُورِ سَدَّوَاءً،
وَلَيْسَ كَذَلِكَ الدَّوَابُّ، وَلَوْ كَانَ إِنَّمَا جَعَلَهُ مَصْلَمًا، وَجَعَلَ آذَانَ
النَّعَامِ مَصْلُومَةً، لِأَنَّهُ لَيْسَ لآذَانِهَا حَجْمٌ فَالطَّيْرُ كُلُّهُ كَذَلِكَ إِلَّا
الْخَفَّاشَ، وَكُلُّ شَيْءٍ يَبْيِضُ مِنَ الْحَيَوَانِ فَلَيْسَ لَهَا حَجْمٌ
آذَانَ، ففِي قَصْدِهِمْ بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ إِلَى النَّعَامِ، بَيْنَ جَمِيعِ مَا

ليس لأذنيه حجم، دليلٌ على أن تأويلكم خطأ، قال علقمة

بن عبدة:

كشَقَّ العَصَا لَأَيَّ تَبِيئِهِ لَسْتُ مَا يَسْمَعُ الأصواتِ
مصلومٌ

وقالت كبشة بنت معد يكرب:

وَأَرْسَلَ عَبْدُ اللَّهِ إِذْ حَانَ إِلَى قَوْمِهِ أَلَّا تَعْلُوا لَهُمْ
دَمِي

تَأْخُذُوا مِنْهُمْ إِفَالًا وَأَتْرَكَ فِي بَيْتِ بَصِغْدَةَ
وَأَبْكَرًا

جَدَعْتُمْ بَعْدَ اللَّهِ آئِفَ بَنِي مَازِنٍ أَنْ سُبَّ رَاعِي
مُظْلِمِ

أَنْتُمْ لَمْ تَتَأْرُوا قَوْمِكُمْ
لَأَخِيكُمْ

فلو كانت إنما تريد أنه ليس لمسامعها حجم، كانت الدنيا لها مُعرضة، وقال عنتره:

أَقِصْ إِلكَامَ عَشِيَّةِ بِقَرِيبِ بَيْنِ المَنْسِيْمِيْنَ
مُصْلَمِ
لَهُ حِرْقُ النَّعَامِ كَمَا يَمَانِيَّةُ لِأَعْجَمِ طَمْطَمِ

ولو كان عنتره إنما أراد عدم الحجم، لقد كانت الدنيا له مُعرضة.

وقال زهير:

الفَقَّارَةُ لَمْ يَخْنُقْطَافِ فِي الرِّكَابِ وَلَا خِلَاءُ
الرَّحْلِ مِنْهَا فَوْقَ صَعْلٍ الظَّلْمَانِ جُوجُوهَ هَوَاءِ
مُصْلَمِ الأَذْيَيْنِ أَجْنَى لَهُ بِالسِّيِّ تَنُومٌ وَآءُ

رد منكر صمم النعام قال القوم: فإنا لا نقول ذلك، ولكن العرب في أمثالها تقول: إن النعام

ذهبت تطلب قرنين فقطعوا أذنيها، ليجعلوها مثلاً في الموق وسوء التدبير، فإذا ذكر الشاعر الظليم،

وذكر أنه مصمم الأذنين، فإنما يريد هذا المعنى، فكثير ذلك حتى صار قولهم: مصمم الأذنين، مثل

قولهم صَكَاءٌ، وسواءٌ قال صَكَاءٌ، أو قال نعامة، كما أنه سواءٌ قال خُنْساءٌ أو قال مهاةً وَتَعَجَّةً وبقرةً وطبية؛ لأنَّ الطَّباءَ والبقرَ كلها فُطِسَ حُنْسٌ وإذا سَمَّوا امْرَأَةً خُنْساءً فليسَ الحَنَسَ والقَطَسَ يُريدون، بل كأنهم قالوا: مَهَاهُ وَطَبِيَّةٌ، ولذلك قال المَسِيَّبُ بنُ عَلسٍ، في صفة النَّاقَةِ:

ذِغْلِيَّةٌ إِذَا اسْتَقْبَلْتَهَا حَرَجٌ إِذَا اسْتَدْبَرْتَهَا هِلْوَاعٌ

فتفهَّمْ هَذَا السَّبِيَّتَ، فَإِنَّهُ قَدِ أَحْسَنَ فِيهِ جَدًّا. وَالصَّكَّاءُ فِي النَّاسِ، وَالاصْطِكاكُ فِي رِجْلِي النَّاقَةِ عَيْبٌ، فَهُوَ لَمْ يَكُنْ لِيصِفْهَا بِمَا فِيهِ عَيْبٌ، وَلَكِنَّهُ لَا يَفْرُقُ بَيْنَ قَوْلِهِ صَكَاءٌ، وَبَيْنَ قَوْلِهِ نَعَامَةٌ، وَكَذَلِكَ لَا يَفْرُقُونَ بَيْنَ قَوْلِهِمْ أَعْلَمُ، وَبَيْنَ قَوْلِهِمْ: بَعِيْرٌ، قَالَ الرَّاجِزُ:

لِمَنْ أَنْكَرَ أَوْ تَوَسَّما أَخُو خَنائِرٍ يَقُوْدُ الْأَعْلَمَا

كَأَنَّهُ يَقُولُ: يَقُوْدُ بَعِيْرًا، وَهُوَ كَقَوْلِ عَنْتَرَةَ:

وَحَلِيلٍ غَانِيَةٍ تَرَكَتُ مَجْدَلًا قَرِيصَتُهُ كَشِدْقُ الْأَعْلَمِ

رَدُّ مَدْعِي الصَّمَمِ فَقَالَ مَنْ ادَّعَى لِلنَّعَامِ الصَّمَمِ: أَمَّا قَوْلُكُمْ: مَنْ الدَّلِيلُ عَلَيَّ أَنْ النُّعَامَةَ تَسْمَعُ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

النُّعَامُ بِهِ الْعِرَارُ

وقوله:

مَا تَشَأُ تَسْمَعُ عِرَارًا زِمَارًا كَالْيَرَّاعِ الْمُثَقَّبِ

وقوله:

**أَسَتْ نَبَأَةً وَأَفْرَعَهَا الْقَنَاصُ عَصْرًا وَقَدْ دَنَا
الإمساءُ**

فليس ذلك أراد، وقد يراك الأخرسُ مِنَ النَّاسِ - وَالْأَخْرَسُ أَصْمٌ - فَيَعْرِفُ مَا تَقُولُ، بِمَا يَرَى مِنْ صُورَةِ حَرَكَتِكَ، كَمَا يَعْرِفُ مَعَانِيكَ مِنْ إِشَارَتِكَ، وَيَدْعُوكَ وَيَطْلُبُ إِلَيْكَ بِصَوْتٍ؛ وَهُوَ لَمْ يَسْمَعْ صَوْتَكَ قَطُّ فَيَقْصِدُ إِلَيْهِ، وَلَكِنَّهُ يَرِيدُ تَلْكَ

الحركة، وتلك الحركة تولد الصوت، أَرَادَهُ هُوَ أَوْ لَمْ يَرِدْهُ،
وَيُضْرَبُ فَيَصِيحُ، وَهُوَ لَمْ يَقْصِدْ إِلَى الصَّيْحِ، وَلَكِنَّهُ مَتَى أَدَارَ
لِسَانَهُ فِي جَوْبَةِ الْفَمِ بِالْهَوَاءِ الَّذِي فِيهِ، وَالنَّفْسِ الَّذِي
يُحْضِرُهُ جُمَاعَ الْفَمِ، حَدَّثَ الصَّوْتُ، وَهَذَا إِنَّمَا غَايَتُهُ الْحَرَكَةُ
فَيَعْرِفُ صَوْرَةَ تِلْكَ الْحَرَكَةِ.
وَالْأُخْرَى يَرَى النَّاسَ يَصْفِقُونَ بِأَيْدِيهِمْ، عِنْدَ دَعَاءِ إِنْسَانٍ، أَوْ
عِنْدَ الْغَضَبِ وَالْحَدِّ، فَيَعْرِفُ صَوْرَةَ تِلْكَ الْحَرَكَةِ؛ لِطَوْلِ
تَرْدَادِهَا عَلَى عَيْنِيهِ، كَمَا يَعْرِفُ سَائِرَ الْإِشَارَاتِ، وَإِذَا تَعَجَّبَ
ضَرَبَ بِيَدَيْهِ كَمَا يَضْرِبُونَ.
فَالنَّعَامَةُ تَعْرِفُ صَوْرَةَ إِشَارَةِ الرَّئِلَانِ وَإِرَادَتَهَا، فَتَعْقِلُ ذَلِكَ،
وَتَجَاوِبُهَا بِمَا تَعْقِلُ عَنْهَا مِنَ الْإِشَارَةِ وَالْحَرَكَةِ، وَغَدَتْ
لِحَرَكَتِهَا أَصْوَاتٌ، وَلَوْ كَانَا يَسْمَعَانِ لَمْ تَزِدْ حَالَهُمَا فِي
النَّفْسِ أَلَّا هُمْ عَلِمُوا ذَلِكَ.
شَمِ النَّعَامَةُ وَالْعَرَبُ تَقُولُ: أَشْمُ مِنْ نَعَامَةٍ وَأَشْمُ مِنْ دَرَّةٍ،
قَالَ الرَّاجِزُ:

مِنْ هَيْقٍ وَأَهْدَى مِنْ جَمَلٍ

وقال الجِزْمَازِيُّ، في أَرْجُوزَتِهِ:

يَشْتَمُّ اشْتِمَامَ الْهَيْقِ

قال: وأخبرنا ابنُ الأعرابيِّ أنَّ أعرابياً كلم صَاحِبَهُ، فرآه لا يفهمُ عنه ولا يسمعُ فقال: أَصْلَحُ كَصَلَحِ

النَّعَامِ

شم الفرس والذئب والذر وقد يكون الفرسُ في الموكب وخلفه، على قاب غلوتين، جِزْرٌ أو رَمَكَةٌ،

فَيَنْحَصُّ نُنُّ تَحْتِ رَاكِبِهِ، مَن غِيْرَ أَنْ تَكُونَ صَهْلَتٌ.

والذئب يشتمُّ ويستروح من ميلٍ، والذَّرَّةُ تَشْتَمُّ ما ليس له رِيحٌ، ممَّا لو وضعته على أنفك ما وجدت

له رائحة وإن أجدت التشمُّمَ، كرجل الجرادَة تَبْدُهَا من يدك في موضعٍ لم تر فيه ذرَّةً قطُّ، فلا تلبث

أن تـرى الـدُّرَّ إِلَيْهِمَا كـالـخيط الأَسـود المـمـدود.

وقال الشَّاعِرُ، وهو يصف استرواح الناس:

كَمِثْلِ الرَّأْلِ يَتَّبِعُ أَنْفَهُ لِعَقْبِيهِ مِنْ وَقَعِ الصُّخُورِ قَعَاقِعُ

فإنَّ الرَّأْلَ يشتم رائحة أبيه وأمه والسَّبْعُ وَالإِنْسَانُ من مكانٍ بعيدٍ، وشبَّه به رَجُلًا جَاءَ يَتَّبِعُ الرِّيحَ

فَيَشْتَمُ

استطراد لغوي وقال الآخر:

والمراء لم يغضب لمطلبٍ عرسه لكريهة لم يغضب

ومطلبٌ أنفه: قَرِحٌ أمه؛ لأنَّ الولد إذا تَمَّتْ أَيْامُهُ في الرَّحْمِ، قَلَا مَكَائُهُ وكرهه، وضاق به موضعه،

فطلبَ بأنفه موضع المخرَجِ ممَّا هو فيه من الكرب، حتَّى يصير أنفه ورأسه على فم الرَّحْمِ، تَلْقَاءَ

فم المخرج، فالأناء والمكانُ يرفعانه في تلك الجهة، والولد يلتبسُ تلك الجهةَ بأنفه، ولولا أنَّه يطلبُ

الهواءَ من ذاته، وبكره مكائه من ذاته، ثمَّ خرج إلى عالمٍ آخَرَ خلافِ عالمه الذي رُبِّي فيه، لَمَاتَ؛

كما يموت السَّمَكُ إذا فارقه الماء، ولكنَّ الماءَ لَمَّا كَانَ قابلاً لطباع السمكِ غذاءً لها، والسَّمَكُ مريداً

له، كان في مفارقته له عطبه، وكان في مفارقة الولد لجُوفِ البطنِ واغتذائه فضلاتِ الدَّمِ، مَا لَا

يَنْقُصُ شيئاً من طباعه وطباع المكان الذي كان له مَرَّةً مَسْكناً، فلذلك قال الشَّاعِرُ الجاهلي:

والمراء لم يغضب لمطلبٍ عرسه لكريهة لم يغضب

يقول: متى لم يَحْمِ فرَجَ أمِّه وامرأته، فليس مِمَّن يغضب من شيءٍ يُؤُول إليه.

قول المتكلمين في صمم الأخرس

وزعم المتكلمون أَنَّ الأخرسَ أصمُّ، وأَنَّه لم يُوتَ من العجز عن المنطق لشيءٍ في لسانه، ولكنَّه إنَّما أتى في ذلك؛ لأنَّه حين لم يسمع صوتاً قطُّ، مؤلِّفاً أو غير مؤلِّف، لم يعرف كيفيته فيقصد إليه، وأنَّ جميع الصُّمِّ ليس فيهم مُصمَّت، وإنما يتفأوُّون في الشَّدَّةِ واللِّين؛ فبعضهم يسمع الهدَّة والصَّاعقة، وتَهيق الحمار إذا كان قريباً منه، والرَّعد الشَّديد، لا يسمَعُ غير ذلك، ومنهم من يسمع السَّرار، وإذا رَفَعَتْ له الصَّوت لم يسمَع، ومتى كَلَّمته وقَرَّت الشُّكَاية في أذنه، فهمَ عنك كلَّ الفهم، وإن تكلَّمت على ذلك المقدار في الهواء، ولم يكن ينفذُ في قناةٍ تحضُّره وتجمعه، حتَّى تُؤدِّيَه إلى دِمَاغِه - لِم يفهمه.

فالأصمُّ في الحقيقة إنَّما هو الأخرس، والأخرس إنَّما سمِّي
بذلك على التشبيه والقراية، ومتى صَرَبَ الأصمُّ من النَّاسِ
إنساناً أو شيئاً غيرَه، ظنَّ أنَّه لم يبالِغْ، حتَّى يسمعَ صوتَ
الضربة، قال الشُّاعر:

بهم لَمَعَ الأصمُّ عَرَانِينَ، لا يأتيه للنَّصرِ مُخْلِيبٌ
فأَقْبَلُوا
وقال الأَسديُّ:

وَأَوْصِيكُمْ بِطِعَانِ الْكُمَاةِ تَعْلُمُونَ بَأْنَ لَا خُلُودَا
وَصَرَبِ الْجَمَاجِمِ صَرَبَ حَنْظَلِ شَابَةِ يَجْنَى الْهَبِيدَا

وقال الهذلي:

فَالطَّعْنُ شَغَشَعَةٌ وَالصَّرَبُ مَعْمَعَةٌ صَرَبَ الْمُعْوَلِ
الدَّيْمَةِ الْعَصْدَا

وإنَّما جعله تحت الدَّيْمَةِ؛ لأنَّ الأغصانَ والأشجارَ تصيرُ أَلْدَنَ وَأَعْلَكَ، فيحتاج الذي يضربُ تلكَ
الأصولَ قبل المطرِ، إلى عشرِ صَرَبَاتٍ حتَّى يقطعَ ذلكَ المضروب؛ فإذا أصابه المطرُ احتاج إلى
أكثرِ مَثَرٍ من ذلكَ.

تحقيق معنى شعري وأنشدني يحيى الأغر:

كَصَرَبِ الْفُيُونِ سَبِيكِ
اليومَ الجنائب ضرباً وكيدا

فلم أعرفه؛ فسألْتُ بعضَ الصَّباقلة فقال: نعم، هذا بيِّنٌ معروف، إذا أخرجنا الحديدَ من الكيرِ في
يومِ سَمَالٍ، واحتاجت في القطعِ إلى مائةِ ضربةٍ، احتاجت في قطعها يومَ الجنُوبِ إلى أكثرِ من
ذلكَ، وإلى أشدِّ من ذلكَ الصَّرَبِ؛ لأنَّ الشمالَ يُبَيِّسُ ويقصِّف، والجنوبَ يرطِّبُ ويلدِّن.
الأخرس والإنسانُ أبداً أحرسٌ، إذا كان لا يسمع ولا يتبيَّن الأصوات التي تخرج من فيه، على معناه،
ويقال في غير الإنسان، على غير ذلك، قال كنيِّر:

تَسْأَلِي يَا أُمَّ عَمْرٍو سَلِمْتِ وَأَسْقَاكِ السَّحَابُ
فَتُخْبِرِي
لِصَوْتِ الرَّعْدِ خرس ونعق ولم يُسْمَعْ لهن
صواع

وتقول العَرَبُ: ما زلت تحت عَيْنِ خرساء، والعين: السحابة
تبقى أياماً تمطر، وإذا كثر ماؤها وكثف، ولم يكن فيها مخارق
ثم دُحْ بِصواعِ البرق.
سرعة الضوء وسرعة الصوت ومتى رأيت البرق سَمِعْتَ
الرَّعْدَ بعدُ، والرَّعْدُ يكون في الأصل قبله، ولكنَّ الصَّوْتُ لا
يصل إليك في سرعة البرق؛ لأنَّ البارق والبصر أشدُّ تقارباً
من الصَّوْتِ والسَّمْعِ، وقد ترى الإنسان، وبينك وبينه رَحْلُهُ
فيضرب بعضاً إمَّا حجراً، وإمَّا دَابَّةً، وإمَّا ثوباً، فترى الصَّوْبَ،
ثمَّ تمكثُ وقتاً إلى أن يَأْتِيكَ الصَّوْتُ.

السحابة الخرساء

فإذا لم تصوَّت السَّحَابَةُ لم تبشِّرْ بشيءٍ، وإذا لم يكن لها رِزٌّ
سمَّيتْ خَرْسَاءً.

الصخرة الصماء

وإذا كانت الصَّخْرَةُ في هذه الصِّفَةِ سَمَّيت صماءً، قال الأعشى:

تجِيءُ كَتِيبَةٌ مَلْمُومَةٌ مَكْرُوهَةٌ يَخْشَى الكُومَةَ
نِزَالَهَا

وعلى غير هذا المعنى قال كثير:

أنا دِي صَخْرَةٌ حِينِ من الصُّمِّ لو تمشي بها
أَعْرَضَتْ العَصْمُ زَلَّتْ

ومن هذا الشكل قول زهير:

وَتَتَوَقَّعُ عَمِيَاءَ لَا يَجْتَازُهَا المَشِيعُ ذُو الفُؤَادِ الهَادِي
هَجَعْتُ بِهَا وَلَسْتُ مُلْقِيَةَ الجِرَانِ وَسَادِي

وَوَقَعْتُ بَيْنَ فُتُودِ عَنَسٍ لِحَاظَةٍ طَفَلَ العَشِيِّ سِنَادِ

فجعل التَّوَقَّعَ عَمِيَاءَ، حِين لَمْ تَكُن بِهَا أَمَارَاتِ.

الزبابة

ودَابَّةٌ يُقال لها الزَّبَابَةُ، عمياء صَمَاءٌ، تشبه الفأرة؛ وليست
بالخُلْد؛ لأنَّ الخُلْدَ أعمى وليس بأصمَّ، والزَّبَابُ يكون في

الرَّمْلِ، وقال الشاعر:

زَبَابٌ حَائِرٌ لَا تَسْمَعُ الآدَانُ رَعْدًا

وكلُّ مولودٍ في الأرض يُولد أعمى، إن كان تأويل العمى أنه لا يُبصر إلا بعد أيام، فمنه ما يفتح عينيه بعد أيامٍ كالجزو؛ إلا أولادَ الدجاج؛ فإنَّ فرارجها تخرُج كاسية كاسية. شعر فيه مجون وقال أبو الشمقمق - وجعل الأير أعمى أصمَّ على التشبيه - فقال:

صاحكاً عليه فاتر الطرفِ وصوت له بالحارث بن عبادِ

مثلِ الجزو جهمٍ مُعاودِ طعنِ جائفٍ وسنادِ

وأعمى يُنغضُ الدهرَ يسير على مِيلٍ بغير قيادِ

قول لمن زعم أن النعامة تسمع وقال مَنْ زعم أنَّ النعامة تسمع: يدلُّ على ذلك قول طرفة:

بالديارِ الغداة من خرسٍ هل بربع الجميع من أنسٍ

مهاة تقرأ أسرته وجوذر يرتعي على كئسٍ
خضاب يرتعي بهقلته ترعه الأصوات يهتجس
قال طرفة كما ترى:

ترعه الأصوات يهتجس

وقال الآخر: جوائنا في هذا هو جوائنا فيما قبله.
فكاهة وروى الهيثم بن عدي، وسمعه بعض أصحابنا من أبي عبيدة، قال: تضارط أعرابيان عند خالد بن عبد الله، أحدهما تميمي والآخر أردني فصرط الأردني صرطة ضئيلة، فقال التميمي:

عجيفاً مُحْتَلًّا وَلَوْ حَبَقْتُ لِأَسْمَعْتُ النَّعَامَ
المشرداً

كمر المنجنيق وصوته هزيم الرعدِ بدءاً عمرداً

من لقبه: نعامة وزعم أبو عمرو الشيباني عن بعض العرب، أنَّ كلَّ عربيٍّ وأعرابيٍّ كان يلقَّب نعامة، وإنما يلقَّب بذلك لشدة صمِّه، وأنه سأله عن الظليم: هل يسمع؟ فقال: يعرفُ بأنفه وعينه، ولا يحتاج معهما إلى سَمْعٍ، وأنشدني:

فجئتُك مثلَ الهقلِ يشتُمُّ ولا عَرَفَ إلاَّ سوفها
وشميمها

وزعم أَن لَقَبَ بيهس نَعَامُهُ، وَأَنه لَقَّبَ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ كَانَ فِي خُلُقٍ نَعَامَةً، وَكَانَ شَدِيدَ الصَّمَمِ مَائِقًا،
فَأَنشَدَ لِعَدِيِّ بْنِ زَيْدٍ:

حَدَّرِ الْأَيَّامِ مَا حَزَّ قَصِيرٌ وَخَاضَ الْمَوْتَ
لَمَّا صَرَّعَ الْقَوْمُ بِالسَّيْفِ بِيَهْسٍ
رَهْطُهُ تَبَيَّنَ فِي أَثْوَابِهِ كَيْفَ
يَلْبَسُ

وقال المتنخل الهذلي وذكر سيفاً:

مُنْتَحَبُ اللَّبِّ لَهُ صَرَبَةٌ حَذْبَاءُ كَالْعَطِّ مِنَ الْخُدَعِلِ
يقول: هذا السيف أهوج لا عقل له، والحذب في هذا الموضوع: الهوج، وتهاوي الشيء لا يتمالك،
وبقـال للسـيف لا يُـبـسـف لا يُـبـسـف الـي مـا لـقـي.

شعر في النعام والتشبيه به وقال الأعشى في غير هذا الباب:

كَحَوْصَلَةِ الرَّألِ فِي جَزْيِهَا إِذَا جُلَيْتَ بَعْدَ إِقْعَارِهَا
كحوصلة الرأل يصف الحمر بالحمرة، جليت: أخرجت؛ وهو مأخوذ من جلوة العروس القاعدة، إذا
فَعَدَّتْ عَنِ الطَّلَبِ، وَمِثْلُهُ فِي عَيْرِ الْخَمْرِ قَوْلُ عُلُقَمَةَ:

إِلَى جِسْكِ حُمِرٍ كَأَنَّهِنَّ إِذَا بَرَّكْنَ جُرْثُومُ
حَواصِلُهُ

وقال الأحنس بن شهاب:

بِهَا رُبْدُ النَّعَامِ كَأَنَّهَا تُرْجِي بِالْمَسَاءِ حَوَاطِبُ
تُرْجِي: تدفع؛ وذلك أنه ينقل حملها فتمشي مشية النعام، وقال الراجز:

الرِّيحُ تَرَوَّحَتْ بِعَشِيَّةِ رَتَكَ النَّعَامُ إِلَى كَثِيفِ
العَرْفَجِ

والرَّتْكَ: مشي سريع، يقول تبادر إلى الكثيف تستتر به من البرد، وقال:

النَّعَامِ فِي طَرِيقِ حَامِ
استقبال الظليم للريح وليس لقول من زعم أن الظليم إذا
عدا استقبل الريح، وإنما ذلك مخافة أن تكون الريح من

خلفه فتكبيته - معنى؛ لأننا نجدهم يصفون جميع ما يستدعونه

باستقبال الرّيح، قال عبّدة بن الطّيب، يصف الثّور:

مستقبل الرّيح يهفو وهو لسائه عن شمال الشّدق
مُتْرِكٌ

ووصف الذّيب طفيل العنوي، فقال:

العصا العادي أصل شرفي مُستقبل الرّيح
جِراءه

استطرد ويلحق بموضع ذكر الصّرب الشديد، قولهم في المثل: صرّبناهم صرّب غرائب الإبل، قال

أبو حية:

جديرون يوم الرّوع أن يخضبوا
القنّان أن يتركوا الكباش
المدجج ثاوبيا

صرّبناهم ضرب الجنابى غلّيب تغشاه جِراءاً
ضواريا

وإذا جاءت عطاشاً قد بلغ منها العطش واليأس، قيل: جاءت تصل أجوافها صليلاً، قال الرّاعي:

فَسَقُوا صَوَادِي يَسْمَعُونَ لِلْمَاءِ فِي أَجْوَاهِنِ صَلِيلاً

قال: وأنشدنا أبو مَهْدَبَةَ، لمزاحم العقبلي:

من عليه بعد ما تمّ تصلُّ وعن قَيْضٍ بِرِيْزَاءِ
ظِمُّوْهَا

قال الرّبيّ: المكاءُ ان الغليط.

وقال آخر:

تعلمي يا أمّ حسان عبّره نهنهتها فتجلّت

رجعت إلى صدرٍ كجرّة قرعت صفرأ من الماء
حنتم

صلت

اختبار أمير المؤمنين المنصور لأحد الحواء وزعم ابن أبي العجوز الحوَاءُ، أَنَّ الْأَفَاعِيَّ صُمَّ، فَلِذَلِكَ لَا تُجِيبُ الرُّقَى، ثُمَّ زَعَمَ لِي فِي ذَلِكَ الْمَجْلِسِ أَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ الْمَنْصُورَ، أَرَادَ امْتِحَانَ رُقَى حَيَّةٍ وَأَنْ يَتَعَرَّفَ صَحَّتَهَا مِنْ سَعْمِهَا، وَأَنَّهُ أَمَرَ فِصَاغُوا لَهُ أَفَعَى مِنْ رِصَاصٍ، فَجَاءَتْ وَلَا يَشْكُ النَّاطِرُ فِيهَا؛ وَأَنَّهُ أَمَرَ بِالزَّاقِهَا فِي مَوْضِعٍ مِنَ السَّقْفِ؛ وَأَنَّهُ أَحْضَرَهُ وَقَالَ لَهُ: إِنَّ هَذِهِ الْأَفَعَى قَدْ صَارَتْ فِي هَذِهِ الدَّارِ، وَقَدْ كَرِهْتُهَا لِمَكَانِهَا؛ فَإِنْ اخْتَلَّتْ لِي بِرُقِيَّةٍ، أَوْ بِمَا أَحْبَبْتَ أَحْسَنْتُ إِلَيْكَ، قَالَ: إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَخْذَهَا هَرَبْتُ، وَلَكِنْ أَرْقِيهَا حَتَّى تَنْزِلَ فِرْقَاهَا فَلَمَّا رَأَاهَا لَا تَتَحَرَّكُ زَادَ فِي رَفْعِ صَوْتِهِ وَأَلْقَى قِتَاعَهُ، فَلَمَّا رَأَاهَا لَا تَتَحَرَّكُ نَزَعَ عِمَامَتَهُ وَزَادَ فِي رَفْعِ صَوْتِهِ، فَلَمَّا رَأَاهَا لَا تَتَحَرَّكُ نَزَعَ قَلَنْسُوتَهُ وَزَادَ فِي رَفْعِ صَوْتِهِ، فَلَمَّا رَأَاهَا لَا تَتَحَرَّكُ تَرَخَّ ثِيَابَهُ، وَزَادَ فِي رَفْعِ صَوْتِهِ، حَتَّى أُرِيدَ، وَتَمَرَّعَ فِي الْأَرْضِ، فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ سَالَ ذَلِكَ الرَّصَاصُ وَذَابَ، حَتَّى صَارَ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، فَأَقْرَعَ عِنْدَ ذَلِكَ الْمَنْصُورَ بِجُودَةِ رُقِيَّتِهِ. فَقُلْتُ لَهُ: وَبِلكَ زَعَمْتَ قُبَيْلُ أَنَّ الْأَفَاعِيَّ لَا تُجِيبُ الرُّقَى؛ لِأَنَّهَا لَا تَسْمَعُ، وَهِيَ حَيَوَانٌ، ثُمَّ زَعَمْتَ أَنَّهَا أَجَابَتْ، وَهِيَ جَمَادٌ.

شعر وخبر في نفار النعامة وقال الشَّاعِرُ:

وربداء يَكْفِيهَا الشَّمِيمُ وَمِلاوَى الرُّبْدِ مِنْ أُنْسٍ بِتَلِكِ المَجَاهِلِ

يخبر أَنَّ النُّعَامَةَ لَا تَسْتَأْنِسُ بِشَيْءٍ مِنَ الْوَحْشِ، وَأَنَّ الشَّمَّ يَغْنِيهَا فِي فَهْمِ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ، وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ إِذَا صَارَتْ إِلَى دُورِ النَّاسِ، فَلَيْسَ مَعَهَا مِنَ الْوَحْشَةِ مِنْهُمْ، عَلَى قَدْرِ مَا يَذْكُرُونَ، وَفِي الْوَحْشِ مَا يَأْنِسُ، وَفِيهَا مَا لَا يَأْنِسُ، وَقَالَ كَثِيرٌ:

فَأُقْسِمْتُ لَا أُنْسَاكِ مَا وَإِنْ شَخَطَتْ دَائِرَ وَشَطِّ
عِشْتُ لَيْلَةً مَرَّارِهَا
اسْتَنْ رَقْرَاقُ السَّرَابِ بِيضِ الرُّبَا أُنْسِيهَا
جَرَتْ وَنَوَارِهَا

ووصف بلاداً قفاراً غيرَ مأنوسة فقال:

تَرَى الْعَيْنُ حَوْلَهَا مِنْ قُرْبِهَا غَيْرَ رَابِدَاتِ الرِّئَالِ

خَصَّهَا بِالذُّكْرِ؛ لِأَنَّهَا أَنْقَرُ وَأَشْرَدُ، وَأَقْلُّ أُنْسًا مِنْ جَمِيعِ الْوَحْشِ.
وقال الأحيمر: كُنْتُ آتِي الطَّبَّيِّ حَتَّى آخُذَ بِذِرَاعِيهِ؛ وَمَا كَانَ شَيْءٌ مِنْ بَهَائِمِ الْوَحْشِ يَنْكُرُنِي إِلَّا
الْتَّعَامَ، وَأَنْشَدَ قَوْلَ ذِي الرُّمَّةِ:

أَحَمَّ الْمَقْلَتَيْنِ كَأَنَّهُ الْإِنْسِ مِنْ طُولِ الْخَلَاءِ الْمَغْفَلِ

يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ فِي قَدْرِ مَا شَاهَدْنَا أَنَّهُمْ يَخْرُجُونَ إِلَى
الصَّحَارَى الْأَغْفَالِ، الَّتِي لَمْ يُدْعَرَ صَيْدُهَا، وَلَا يَطُؤُهَا النَّاسُ،
فِيَأْتُونَ الْوَحْشَ فَوْضَى هَمَلًا، وَمَعَهُمْ كِلَابُهُمْ وَفَهُودُهُمْ تَتَلَوَى
بَأَيْدِيهِمْ، فَيَتَقَدَّمُونَ إِلَى الْمَوَاضِعِ الَّتِي لَوْ كَانُوا ابْتَدَأُوا الصَّيْدَ
مِنْ جِهَتِهَا لَأَخَذُوا مَا أَخَذُوا فَإِذَا نَفَرَتْ وَحُوشِ هَذِهِ الْأَرْضِ،
وَمَرَّتْ بِالْأَرْضِ الْمَجَاوِرَةِ لَهَا، نَفَرَتْ سُكَّانُ تِلْكَ الْأَرْضِ مَعَ
هَذِهِ التَّوَافِرِ، وَلَا تَعُودُ تِلْكَ الصَّحَارَى إِلَى مِثْلِ مَا كَانَتْ عَلَيْهِ،
مِنْ كَثْرَةِ الْوَحْشِ حِينَئِذٍ.
وَمَتَى لَمْ تَنْفُرْهَا الْأَعْرَابُ بِالْكَلابِ وَالْقِيسِيِّ، وَنَضَبِ الْحَبَائِلِ،
رَتَعَتْ بِقُرْبِهِمْ، ثُمَّ دَنَتْ مِنْهُمْ أَوْلًا فَأَوْلًا، حَتَّى تَطَأَ أَكْنَافَ
بُيُوتِهِمْ، وَهِيَ الْيَوْمَ فِي حَيْرِ الْمُعْتَصِمِ بِاللَّهِ وَالْوَاثِقِ بِاللَّهِ
عَلَى هَذِهِ الصُّفَّةِ.

هجرة الظباء إلى الناس وخبرني إبراهيم بن السندي قال
خبرني عبد الملك بن صالح، وإسحاق بن عيسى، وصالح
صاحب الموصل، أن خالد بن برمك، بينا هو على سطح من
سطوح القرى مع قحطبة، وهم يتغدّون، وذلك في بعض
منازلهم، حين فصلوا من خراسان إلى الجبل، قال: وبين
قحطبة وبين الأعداء مسيرة أيام وليال، قال: فينا خالد
يتغذى معه وذلك حين نزلوا وبهم كلال السير، وحين علّقوا
على دوابهم، ونصبوا قُدورهم، وقربوا سُقرهم.
قال فنظر خالد إلى الصحراء، فرأى أقاطيع الظباء قد
أقبلت من جهة الصحاري، حتى كادت تخالط العسكر، فقال
لقحطبة: أيها الأمير تاد في الناس: يا خيل الله اركبي؛ فإن
العدو قد حث إليك السير، وغاية أصحابك أن يسرجوا
ويُلجموا قبل أن يروا سرعان الخيل، فقام قحطبة مذعوراً،
فلما لم ير شيئاً يروعه، ولم ير غباراً قال لخالد: ما هذا
الرأي قال: أيها الأمير لا تتشاغل بي وبكلامي، وتاد في

النَّاسِ، أَمَا تَرَى أَقَاطِيعَ الْوَحْشِ قَدْ أَقْبَلَتْ، فَارْقَتْ مَوَاضِعَهَا
حَتَّى خَالَطَتْ النَّاسَ؟ إِنَّ وَرَاءَهَا جَمْعًا عَظِيمًا، قَالَ: فَوَاللَّهِ
مَا أَلْجَمُوا وَأَسْرَجُوا حَتَّى رَأَوْا سَاطِعَ الْغُبَارِ، وَلَا تَلَبَّسُوا
وَتَسَلَّحُوا حَتَّى رَأَوْا الطَّلِيعَةَ، فَمَا التَّامُوا حَتَّى اسْتَوَى
أَصْحَابُ قَحْطَبَةَ عَلَى ظُهُورِ خَيْولِهِمْ، وَلَوْ لَا نَظْرَةُ خَالِدِ بْنِ
بِرْمَكٍ وَفِرَاسْتُهُ، لَقَدْ كَانَ ذَلِكَ الْجَيْشُ اصْطَلِمَ.
قِصَّةٌ فِي قُوَّةِ الشَّمِّ وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ السَّنْدِيِّ يُحَدِّثُنَا مِنْ
صَدَقِ حَسِّ أَبِيهِ فِي الشَّمِّ، بِشَيْءٍ مَا يُحْكِي مِثْلَهُ إِلَّا عَنِ
السَّبَاعِ وَالذَّرِّ وَالنَّعَامِ، وَزَعَمَ أَنَّ أَبَاهُ قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ: أَجْدُ رِيحِ
بَوْلِ فَاةٍ ثُمَّ تَشَمَّمَ وَأَجَالَ أَنْفَهُ فِي الْمَجْلِسِ، فَقَالَ: هُوَ فِي
تِلْكَ الزَّاوِيَةِ فَنَظَرُوا فَإِذَا عَلَى طَرَفِ الْبِيسَاطِ مِنَ الْبَلَلِ بِقَدْرِ
الذَّرِّهِمْ، أَوْ أَوْسَعُ شَيْئًا، فَقَضَوْا أَنَّهُ بَوْلُ فَاةٍ.
قَالَ: وَشَهِدْتُهُ مَرَّةً وَأَشْرَاطُهُ قِيَامٌ عَلَى رَأْسِهِ فِي
السَّمَاطِينَ، فَقَالَ: أَجْدُ رِيحِ جَوْرِبٍ عَفِينٍ مُتْنٍ فَتَشَمَّمْنَا
بِأَجْمَعِنَا، فَلَمْ نَجِدْ شَيْئًا، ثُمَّ تَشَمَّمْنَا وَقَالَ: انزَعُوا خُفَّ ذَاكَ،

فَنَزَعُوا حُفَّهُ، فَكَلَّمَا مَدَّ النَّازِعُ لَهُ شَيْئاً بَدَأَ مِنْ لِفَاقَتِهِ، فَمَا
رَالَ النَّتْنُ يَكْتَفُ وَيَزْدَادُ، حَتَّى خَلَعَ حُفَّهُ وَنَزَعَهُ مِنْ رِجْلِهِ،
فَظَهَرَ مِنْ تَنْنِ لِفَاقَتِهِ مَا عُرِفَ بِهِ صِدْقُ حَسِّهِ، ثُمَّ قَالَ:
انزَعُوا الْآنَ أَحْقَاقَكُمْ بِأَجْمَعِكُمْ، فَلَا بُدَّ مِنَ الْأَلَّا يَكُونَ فِي
جَمِيعِ اللَّفَائِفِ مُتْنٌ غَيْرُ لِفَاقَتِهِ، أَوْ تَكُونَ لِفَاقَتُهُ أَنْتِنَهَا؛
فَنَزَعُوا، فَلَمْ يَجِدُوا فِي جَمِيعِهَا لِفَاقَةً مُتْنَةً غَيْرَهَا.
وَأَنْشَدُوا:

ابْنُ عُمَيْرٍ غَزْوَةً تَرَكْتَ كَتْنِ الْجُورِبِ الْمُتَخَرِّقِ

أَقْوَى دَرَجَاتِ التَّشْمِمْ وَلَيْسَ الَّذِي يُحَكِّي مِنْ صِدْقِ الْحَسِّ
فِي الشَّمِّ - عَنِ بَعْضِ النَّاسِ، وَعَنِ النَّعَامِ وَالسَّبَاعِ، وَالْفَأْرِ
وَالدَّرِّ، وَضُرُوبِ مِنَ الْحَشْرَاتِ - مِنْ شَكْلِ مَا نَطَقَ بِهِ
الْقِرَآنُ الْعَظِيمُ، مِنْ شَأْنِ يَعْقُوبَ وَيُوسُفَ عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ
وَالسَّلَامُ حِينَ يَقُولُ تَعَالَى: "قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ
لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ، قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ"، وَكَانَ
هَذَا مِنْ يَعْقُوبَ بَعْدَ أَنْ قَالَ يُوسُفَ: "اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا

فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأُنْزِلَنِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ"،
ولذلك قال: "وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعَيْرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ
يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ" ثم قال: "فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ
عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا".

وإنَّما هذا علامةٌ ظهرتْ له خاصة؛ إذ كان النَّاسُ لا يشتُمون
أرواحَ أولادِهِم إذا تباعدُوا عن أنوفِهِم، وما في طاقة
الحصان الذي يجدُ ريحَ الحِجْر ممَّا يجورُ الغلوتين والثلاث،
فكيف يجدُ الإنسانُ وهو بالشَّام ريحَ ابنه في قميصه، ساعة
فَصَلَ من أرض مصر؟ ولذلك قال: "أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ
مِنَ اللَّهِ مَآ لَا تَعْلَمُونَ".

بعض المجاعات وقد عَبَّرَ موسى وهو يَسِيرُ أَرَبَعِينَ عَامًا، لا
يذوق دَوَاقًا، وجاع أهل المدينة في تلك الحُطْمَةِ ، حتى كان
أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يشدُّون الحَجَرَ
على بُطُونِهِمْ، من الجُوعِ والجَهْدِ ، وكان النبيُّ صلى الله
عليه وسلم، وعلى آله الطيِّبين الطاهرين يقول: إِنِّي لَسْتُ

كَأَخْدِكُمْ، إِيَّيْ أَيْتُ عِنْدَ رَبِّي، يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي.
حجاج في ذبح الحيوان وقتله ورجالٌ ممن ينتحل الإسلام،
يُظهِرُونَ التَّقَدُّرَ مِنَ الصَّيْدِ، وَيَرَوْنَ أَنَّ ذَلِكَ مِنَ الْقَسْوَةِ، وَأَنَّ
أَصْحَابَ الصَّيْدِ لَتُوَدِّعُهُمُ الصَّرَاوَةَ الَّتِي اعْتَرَتْهُمْ مِنْ طُرُوقِ
الطَّيْرِ فِي الْأَوْكَارِ، وَتَصُبُّ الحَبَائِلَ لِلطُّبَّاءِ، الَّتِي تَنْقَطِعُ عَنِ
الْخَشْفَانِ حَتَّى تَمُوتَ هُزْلاً وَجُوعاً، وَإِسْلَاءِ السَّبَاعِ عَلَى
بَهَائِمِ الْوَحْشِ وَسُتْسَلِمُ أَهْلَهَا إِلَى الْقَسْوَةِ، وَإِلَى التَّهَائُونِ
بِـ_____دَمَاءِ النَّاسِ.

وَالرَّحْمَةُ شَكْلٌ وَاحِدٌ، وَمَنْ لَمْ يَرْحَمْ الْكَلْبَ لَمْ يَرْحَمْ الطَّيْبِيَّ،
وَمَنْ لَمْ يَرْحَمْ الطَّيْبِيَّ لَمْ يَرْحَمْ الْجَدِّيَّ، وَمَنْ لَمْ يَرْحَمْ
الْعُصْفُورَ لَمْ يَرْحَمْ الصَّبِيَّ، وَصِغَارُ الْأُمُورِ تُؤَدِّي إِلَى كِبَارِهَا.
وَلَيْسَ يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَتَهَاوَنَ بِشَيْءٍ مِمَّا يُؤَدِّي إِلَى الْقَسْوَةِ
يَوْمًا مَّا، وَأَكْثَرُ مَا سَمِعْتُ هَذَا الْبَابَ، مِنْ نَاسٍ مِنَ الصُّوفِيَّةِ،
وَمِنَ النَّصَارَى؛ لِمَصَاهَاةِ النَّصَارَى سَبِيلَ الزَّنَادِقَةِ، فِي رَفْضِ
الذَّبَائِحِ، وَالْبُغْضِ لِإِرَاقَةِ الدِّمَاءِ، وَالزُّهْدِ فِي أَكْلِ اللَّحْمَانِ.

وقد - كان يرحمك الله - على الزنديق ألا يأتي ذلك في
سبّاع الطير، وذوات الأربع من السباع، فأما قتل الحية
والعقرب، فما كان ينبغي لهم البتة أن يقفوا في قتلها
طرفة عين؛ لأن هذه الأمور لا تخلو من أن تكون شراً
صرفاً، أو يكون ما فيها من الخير معموماً بما فيها من الشر،
والشر شيطان، والظلمة عدو النور، فاستحياء الظلمة وأنت
قادر على إمامتها، لا يكون من عمل النور، بل قد ينبغي أن
تكون رحمة النور لجميع الخلائق والناس، إلى استنقاذهما
من سُرور الظلمة.

وكما ينبغي أن يكون حسناً في العقل استحياء النور والعمل
في تخليصه والدفع عنه - فكذلك ينبغي أن يكون قتل
الظلمة وإمامتها، والعون على إهلاكها، وتوهين أمرها -
حسناً.

والبهيمة التي يرون أن يدفعوا عنها أيضاً ممزوجة، إلا أن
شرها أقل، فهم إذا استبقوها فقد استبقوا الشرور

المخالطاً _____ة لهُ _____ا.

فإِنْ رَعَمُوا أَنَّ ذلِكَ إِنَّمَا جاز لَهُمْ؛ لِأَنَّ الأَغلِبَ على طِباعِها
النُّورِ فليُغتفروا في هذا الموضعِ إِدخالَ الأذى على قليل ما
فيها من أَجزاءِ الشَّرِّ كما اغتفروا ما في إِدخالِ المِروحِ
والشُّرورِ على ما في البهيمة من أَجزاءِ الظُّلْمَةِ لدفعهم عن
البهيمة؛ إِذْ كان أَكثرُ أَجزاءِها من النُّورِ.
وَإِنَّمَا ذَكَرْتُ ما ذَكَرْتُ؛ لِأَنَّهُم قالوا: الدَّلِيلُ على أَنَّ الَّذي
أَنتُمْ فيه، مِنْ أَكلِ الحيوانِ كُلِّ يَوْمٍ مِنَ الذَّبائِحِ، مَكْرُوهٌ عِنْدَ
اللَّهِ، أَنَّكُمْ لَمْ تَرَوا قَطُّ ذِباحي الحيوانِ ولا قَتَّالي الإنسانِ،
ولا الَّذينَ لا يَقتاتونِ إِلَّا اللَّحْمَانَ يفلحونَ أَبداً، وَيستغنونَ؛
كَنحوِ صِيَّادِي السَّمَكِ وصِيَّادِي الوُحْشِ وَأَصنافِ الجَزَّارِينَ
والقَصَّابِينَ، والشَّوَّائِينَ والطَّهَّائِينَ والفَهَّادِينَ والبِيارِةِ
والصَّفَّارِينَ والكلابِينَ؛ لا تَرى أَحداً مِنْهُم صارَ إِلى غِنَى
وَيُسْرٍ، ولا تَراهُ أَبداً إِلا فَقيراً مُحارِفاً، وعلى حالٍ مُشبهَةٍ
بِ_____اله الأُولَى _____ى.

وكذلك الجلادون، ومن يضربُ الأعناقَ بين يَدَي المُلوكِ،
وكذلك أصحابُ الاستخراجِ والعذابِ، وإن أصابوا الإصاباتِ،
وجميعَ أهلِ هذه الأصنافِ.
نَعَمْ؛ وَحَتَّى تَرَى بَعْضَهُمْ وَإِنْ خَرَجَ تَادِرًا خَارِجِيًّا، وَنَالَ مِنْهُمْ
ثَرَوَةً وَجَاهًا وَسُلْطَانًا، فَإِمَّا أَنْ يُقْتَلَ، وَإِمَّا يُعْتَصَبَ نَفْسَهُ
بِمَيْتَةٍ عَاجِلَةٍ، عِنْدَ سُرُورِهِ بِالثَّرْوَةِ، أَوْ يَبْعَثَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْمُحِقَّ
فَلَا يَنْمُو لَهُ شَيْءٌ، وَإِمَّا أَلَّا يَجْعَلَ مِنْ نَسْلِهِمْ عَقِبًا مَذْكُورًا،
وَلَا ذِكْرًا نَبِيهَاً وَذُرِّيَّةً طَيِّبَةً، مِثْلَ الْحَجَّاجِ بْنِ يَوْسُفَ، وَأَبِي
مُسْلِمٍ، وَيَزِيدِ بْنِ أَبِي مُسْلِمٍ وَمِثْلَ أَبِي الْوَعْدِ، وَمِثْلَ رَجَالٍ
ذَكَرُوهُمْ لَا نَحْسُبُ أَنْ نَسْـمِيَهُمْ.
قال: فَإِنَّ هَؤُلَاءِ، مَعَ كَثْرَةِ الطَّرِيقَةِ وَظُهُورِ القُدْرَةِ، وَمَعَ
كَثْرَةِ الإنْسَالِ، قَدْ قَبِحَ اللَّهُ أَمْرَهُمْ، وَأَحْمَلَ أَوْلَادَهُمْ، فَهَمَ بَيْنَ
مَنْ لَمْ يُعْقِبْ، أَوْ بَيْنَ مَنْ هُوَ فِي مَعْنَى مَنْ لَمْ يُعْقِبْ.
فقلتُ لِلنَّصَارَى بَدِيًّا: كَيْفَ كَانَ النَّاسُ أَيَّامَ الحُكْمِ بِمَا فِي
التَّوْرَةِ أَيَّامَ مُوسَى وَدَاوُدَ، وَهُمَا صَاحِبَا حُرُوبٍ وَقَتْلٍ، وَسِبَائٍ

وذبائح؟ نعم حتى كان القربان كله أو عامته حيواناً مذبوحاً،
لذلك سَمَّيْتُم بِيَسْتِ الْمَذْبُوحِ.
وَلَسْنَا نَسْأَلُكُمْ عَنِ سِيَرَةِ النَّصَارَى الْيَوْمَ، وَلَكِنَّا نَسْأَلُكُمْ عَنْ
دِينِ مُوسَى وَحُكْمِ التَّوْرَةِ، وَحُكْمِ صَاحِبِ الزَّبُورِ، وَمَا زَالُوا
عِنْدَكُمْ إِلَى أَنْ أَنْكَرُوا رُبُوبِيَّةَ الْمَسِيحِ، عَلَى أَكْثَرِ مَنْ حَالِنَا
الْيَوْمَ فِي الذَّبَائِحِ، وَأَنْتُمْ فِي كَثِيرٍ مِنْ حَالَاتِكُمْ تُغْلُونَ عَلَيْنَا
السَّمَكَ، حَتَّى نَتَوَخَّى أَيَّاماً بِأَعْيَانِهَا، فَلَا نَشْتَرِي السَّمَكَ إِلَّا
فِيهَا؛ طَلَباً لِلإِمْكَانِ وَالإِسْتِرْخَاصِ، وَهِيَ يَوْمُ الحَمِيسِ، وَيَوْمُ
السَّبْتِ، وَيَوْمُ الثَّلَاثَةِ؛ لِأَنَّ شِرَاءَكُمْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ يَقِلُّ، عَلَى
أَنَّكُمْ تُكْثِرُونَ مِنَ الذَّبَائِحِ فِي أَيَّامِ الفِصْحِ، وَهَلْ تَدْعُونَ أَكْلَ
الْحَيَوَانِ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً، وَسَاعَاتٍ مَعْلُومَةً؟.
فَإِذَا كَانَتِ الحِرْفَةُ وَالْمَحَنُ إِثْمًا لِرِمَا القِصَّابِينَ وَالجَزَّارِينَ
وَالشَّوَّائِينَ، وَأَصْنَافِ الصِّيَّادِينَ، مِنْ جِهَةِ العُقُوبَةِ - فَأَنْتُمْ
شُرَكَاءُ صِيَّادِي السَّمَكِ خَاصَّةً؛ لِأَنَّكُمْ آكَلُ الخَلْقِ لَهُ، وَأَنْتُمْ
أَيْضاً شُرَكَاءُ القِصَّابِينَ فِي عَامَّةِ الدَّهْرِ، فَلَا أَنْتُمْ تَدِيُونُونَ

للإسلام فتعرفوا ما عليكم ولكم، وفضل ما بين الرحمة والقسوة، وما الرحمة، وفي أي موضع يكون ذلك القتل رحمة؟ فقد أجمعوا على أن قتل البعض إحياء للجميع، وأن إصلاح الناس، في إقامة جزاء الحسنة والسيئة، "ولكم في القصاص حياؤه".

والقود حياؤه، وهذا شيء تعمل به الأمم كلها، غير الزنادقة، والزنادقة لم تكن قط أمّة، ولا كان لها ملك ومملكة، ولم تزل بين مقتول وهارب ومنافق، فلا أنتم زنادقة، ولا ينكر لمن كان ذلك مذهباً أن يقول هذا القول. فأنتم لا دهرية، ولا زنادقة، ولا مسلمون؛ ولا أنتم راضون بحكم الله أيام التوراة.

فإن كان هذا الحكم قد أمر الله به - وهو عدل - فليس بين الزماتين فرق.

وبعد فإنا نجدكم تأكلون السمك أكلاً ذريعاً، وتتقذرون من اللحم أفلاًن السمك لا يألم القتل، أم لأن السمك لما

قَتَلْتُمُوهُ بِلَا سِكِّينٍ لِمَ يُحَسُّ قَتْلَهُ؟ فَالْجَمِيعُ حَيَوَانٌ، وَكُلُّ
مَقْتُولٍ يَأَلَمُ، وَكُلُّ يُحَسُّ، فَكَيْفَ صَارَ أَكْلُ اللَّحْمِ قَسْوَةً،
وَأَكْلُ السَّمَكِ لَيْسَ بِقَسْوَةٍ؟، وَكَيْفَ صَارَ ذَبْحُ الْبَهَائِمِ قَسْوَةً
وَلَا تَكُونُ تَفْرِقَةٌ مَا بَيْنَ السَّمَكِ وَالْمَاءِ حَتَّى تَمُوتَ قَسْوَةً
وَكَيفَ صَارَ ذَبْحُ الشَّاةِ قَسْوَةً وَصَيْدُ السَّمَكِ بِالسَّنَانِيرِ
الْمَذْرُوبَةِ الْمَعْقُفَةِ لَيْسَ لَهَا شَعَائِرٌ تَخَالَفُ الْعَقَافَ الْمَنْصُوصَ
فِي جِهَاتِهَا، وَكَيْفَ وَهِيَ وَإِنْ لَمْ تَنْشَبْ فِي أَجْوَافِهَا، وَتَقْبِضُ
عَلَى مَجَامِعِ أَرْوَاحِهَا، لِمَ تَقْدِرُ عَلَى أَخْذِهَا؟.
وَكَيفَ صَارَ وَجْءُ اللَّبَّةِ مِنَ الْجَزُورِ أَقْسَى مِنْ صَرْبِ النَّبَائِلِ؟
أَمْ كَيْفَ صَارَ طَعْنُ الْعَيْرِ بِالرُّمْحِ، وَنَضْبُ الْحَبَائِلِ لِلطُّبَّاءِ،
وَإِرْسَالُ الْكَلَابِ عَلَيْهَا أَشَدَّ مِنْ وَقْعِ النَّبَائِلِ فِي ظَهْرِ
السَّمَكِ؟.

وَلَا تَكْفُرُوا قَوْلَكُمْ: لَا نَأْكُلُ شَيْئًا فِيهِ دَمٌ أَيَّامَ صَوْمِنَا،
فَلِلسَّمَكِ دَمٌ، وَلَا بَدَّ لِجَمِيعِ الْحَيَوَانِ مِنْ دَمٍ أَوْ شَيْءٍ يُشَاكِلُ
الدَّمَ، فَمَا وَجْهُ اعْتِلَالِكُمْ بِالدَّمِ؟ أَلَا نَبَّ كُلَّ شَيْءٍ فِيهِ دَمٌ فَهُوَ

أشدُّ ألماً؟ فكيف نعلم ذلك؟ وما الدليلُ عليه؟
فإن زعمتم أنَّ ذلك داخلٌ في باب التعبُّدِ والمصلحةِ، لا في
باب القياسِ والرَّحمةِ والقسوةِ، فهذا باب آخر، إلَّا أن تَدَّعُوا
أنَّ دَوَاتِ الدِّمَاءِ أقوى للأبدانِ، وآشَرُ لِلنُّفُوسِ، فأردتم بذلك
قَلَّةَ الأَشْرِ وَضَعْفَ البدنِ، فإنَّ كان ذلك كذلك فقد ينبغي أن
يكونَ هذا المعنى مُستبيناً في آكلي السَّمَكِ من البحرينِ.
وأما ما ذكرتم من مُلازمةِ الحِرْفَةِ لهؤلاء الأَصْنَافِ، فإنَّ كلَّ
مَنْ نزلتْ صِنَاعَتُهُ، ودَقَّ حَظْرُ تِجَارَتِهِ، كذلك سَبِيلُهُ.
وأحلُّ الكَسْبِ كُلُّهُ وَأَطْيَبُهُ عِنْدَ جَمِيعِ النَّاسِ سَقْيُ المَاءِ، إمَّا
على الظَّهْرِ، وإمَّا على دَابَّةٍ، ولم أرَ سَقَاءً قَطُّ بَلَغَ حَالَ
الْيَسَارِ والثَّرْوَةِ وكذلك صَرَّابُ اللَّيْنِ، والطِّيَّانُ، والحَرَاثُ،
وكذلك ما صَعُرَ من التُّجَارَاتِ والصَّنَاعَاتِ.
ألا ترون أنَّ الأَمْوَالَ كثيراً ما تكونُ عند الكُتَّابِ، وعند
أَصْحَابِ الجَوْهَرِ، وعند أصحابِ الوَشْيِ والأنمَاطِ، وعند
الصَّيَارِقَةِ والحَنَّاطِينَ، وعند البَحْرِيِّينَ والبَصْرِيِّينَ، والجُلَّابِ

أبداً، والبيازرة أيسر ممّن يبتاع منهم.
وجمّل الأموال حقٌّ بأنْ تُربح الجُمْلَ من تفاريق الأموال،
وكذلك سبيل القصاب والجزّار، والشوّاء، والبازيار، والفهاد.
وأما ما ذكرتم من انقطاع نسلِ الفُساءة، وحمولِ أولادهم،
كانقطاع نسلِ فرعونَ، وهامانَ، ونمرودَ، وبُخت نَصْرَ،
وأشباههم، فإنّ الله يقول: "وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى".
وإن شئتم أن تعدّوا من المذكورين بالصلاح أكثر من هؤلاء
ممّن كان عقيماً أو كان ميناثاً، أو يكون ممّن تبت لهم أولادٌ
سوءٍ عقوهم في حياتهم، وعرضوهم للسبِّ بعد موتهم -
لو جَـ دَتْمُوهُمْ.

وعلى أني لم أنصب نفسي حزباً للحجاج بن يوسف، ويزيد
بن أبي مسلم، أتحرى بهما، وهما عندي من أهل النار،
ولكنني عرفت مغزاكم، وعلى أنكم ليس القصابين أردئتم،
ولكنكم أردئتم دين المسـلمين.
وقد خرج الحجاج من الدنيا سليماً في بدنه، وظاهر نعمته،

وعليّ مرتبته من الملك، ومكانه من جواز الأمر والنهي.
 فإن كان الله عندكم سلّمه وعاقب أولاده، وكان ذلك ديتكم
 فإنّ هذا قولٌ إن خاطبتم به الجبريّة فعسى أن تتعلّقوا منهم
 بسبب فأما من صحّ القول بالعدل فإنّ هذا القول عنده
 من الخطأ الفاحش الذي لا شبهة فيه.
 شعر في القانص وفقره وكان ممّا أنشدوا من الدليل على
 أنّ القانص لا يزال فقيراً - قولُ ذي الرّمة:

إِذَا مَا لَهَا فِي الْجَدْرِ
 وَاتَّخَذَتْ شَمْسُ النَّهَارِ شُعَاعًا بَيْنَهَا

أَرْهَرُ مَشْهُورٌ يُنْقَبِتُهُ
 كَأَنَّهُ حِينَ يَغْلُو عَاقِرًا
 لَهَبٌ
 بِهِ جُوعٌ طُلُسٌ وَوَارِبٌ لَاحَهَا التَّغْرِثُ
 مَحْصَرَةٌ
 وَالجَنِبُ
 مُهَرَّتُهُ الْأَشْدَاقِ مِثْلُ السَّرَاحِينِ فِي
 ضَارِيَةٍ
 أَعْنَاقَهَا الْعَدَبُ
 وَمُطَعَمُ الصَّيْدِ هَبَالٌ أَبَاهُ يَدَاكَ الْكَسْبُ
 لِبُغْيَتِهِ
 يَكْتَسِبُ
 أَطْلُسُ الْأَطْمَارِ الضَّرَاءِ وَإِلَّا صَيْدَهَا
 لَهُ
 فَانصَاعَ جَانِبَهُ الْوَحْشِيِّ لَا يَأْتِي الْمَطْلُوبُ
 وَانْكَدَرَتْ
 وَالطَّلْبُ

قال: فجعله كما ترى مقرّعاً أطلّس الأطمار، وخبّر أنّ كِلابَه
نشبه، وأتّه ألقى أباه كذلك، وأنشدوا في ذلك قول الآخر:

وأعصم أنسته المنية نفسه	رعى النبع والظيان في شاهقٍ وعر
موارده قلتُ تصفقه الصبا	مزلٍ غير كدرٍ ولا نزر
السحاب ماؤها وتهدلت	عليه غصونٌ دانياتٌ من السممر
له طلحٌ إزاه بكفه	هتوفٌ وأشباه تخيرن من حجر
صبيةٍ لا يستدر إذا القوحاً ولا عنزاً وليس بذي وفر	زوجةٌ شمطاء يدرج حولها
مشوهةٌ لم تعب طيباً ولم تقتر هندياً بليلٍ على جمر	فطيم تناجيه وآخر في الحجر
محددة العرقوب ثلم نابها	تعرقها الأوذار من فقر الحممر
مسفعة الخدين سود درعها	تقدرها بالليل والأخذ بالقدر
الفلاة لم تخضب بنانها	ولم تدر ما زي الخرائد بالمصر
فأرسل سهماً أرهف القين فأنفذ حصينه فخر على النحر	

مسألة المنانية كان أبو إسحاق يسأل المنانيّة، عن مسألة

قريبة المأخذِ قاطعةٍ، وكان يزعمُ أنّها ليست له.

وذلك أنّ المَنَائِيَةَ تَرَعُمُ أَنَّ الْعَالَمَ بِمَا فِيهِ، مِنْ عَشْرَةِ
أَجْنَاسٍ: خَمْسَةٌ مِنْهَا خَيْرٌ وَنُورٌ، وَخَمْسَةٌ مِنْهَا شَرٌّ وَظُلْمَةٌ،
وَكُلُّهُنَّ حَاسَّاتٌ وَحَوَاسِّةٌ.
وَأَنَّ الْإِنْسَانَ مَرَكَّبٌ مِنْ جَمِيعِهَا عَلَى قَدْرِ مَا يَكُونُ فِي كُلِّ
إِنْسَانٍ مِنْ رُجْحَانِ أَجْنَاسِ الْخَيْرِ عَلَى أَجْنَاسِ الشَّرِّ،
وَرُجْحَانِ أَجْنَاسِ الشَّرِّ عَلَى أَجْنَاسِ الْخَيْرِ.
وَأَنَّ الْإِنْسَانَ وَإِنْ كَانَ ذَا حَوَاسِّ خَمْسَةٍ، فَإِنَّ فِي كُلِّ حَاسَّةٍ
مَتُونًا مِنْ ضِدِّهِ مِنَ الْأَجْنَاسِ الْخَمْسَةِ، فَمَتَى نَظَرَ الْإِنْسَانُ
نَظْرَةَ رَحْمَةٍ فَتَلَّكَ النَّظْرَةُ مِنَ النُّورِ، وَمِنَ الْخَيْرِ، وَمَتَى نَظَرَ
نَظْرَةَ وَعِيدٍ، فَتَلَّكَ النَّظْرَةُ مِنَ الظُّلْمَةِ، وَكَذَلِكَ جَمِيعُ
الْحَوَاسِّةِ.

وَأَنَّ حَاسَّةَ السَّمْعِ جِنْسٌ عَلَى جِدَّةٍ، وَأَنَّ الَّذِي فِي حَاسَّةِ
الْبَصَرِ مِنَ الْخَيْرِ وَالنُّورِ، لَا يَعِينُ الَّذِي فِي حَاسَّةِ السَّمْعِ مِنَ
الْخَيْرِ وَلَكِنَّهُ لَا يَضَادُّهُ، وَلَا يُفَاسِدُهُ، وَلَا يَمْنَعُهُ، فَهُوَ لَا يَعِينُهُ
لِمَكَانِ الْخِلَافِ وَالْجِنْسِ، وَلَا يَعِينُ عَلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ ضِدًّا.

وَأَنَّ أَجْنَاسَ الشَّرِّ خِلَافٌ لِأَجْنَاسِ الشَّرِّ، ضِدٌّ لِأَجْنَاسِ الْخَيْرِ،
وَأَجْنَاسَ الْخَيْرِ يَخَالِفُ بَعْضُهَا بَعْضًا وَلَا يَضَادُّ، وَأَنَّ التَّعَاوَنَ
وَالتَّادِي لَا يَقَعُ بَيْنَ مَخْتَلِفِهَا، وَلَا بَيْنَ مُتَضَادِّهَا، وَإِنَّمَا يَقَعُ بَيْنَ
مُتَّفِقِهَا.

قال: فيقال للمنانى: ما تقول في رجلٍ قال لرجلٍ: يا فلان،
هل رأيت فلاناً؟ فقال المسؤول: نعم قد رأيته، أليس
السامعُ قد أدّى إلى الناظرِ، والناظرُ قد أدّى إلى المدّائقِ؟
وإلّا فلم قال اللسانُ: نعم إلّا وقد سمع الصّوتَ صاحبُ
اللسانِ؟ وهذه المسألة قصيرةٌ كما ترى، ولا حيلة له بأن
يَدْفَعَ قَوْلَهُ.

مُساءلة زنديق ومساءلة أخرى، سأل عنها أمير المؤمنين
الزّنديق الذي كان يكنى بأبي عليّ، وذلك عندما رأى من
تطويلٍ مُحَمَّدِ بْنِ الْجَهْمِ وَعَجَزِ الْعُتَيْبِيِّ وَسَوْءِ فَهْمِ الْقَاسِمِ بْنِ
سَيَّارٍ، فقال له المأمون: أسألك عن حرفين فقط، خبرني:
هل ندم مُسيءٌ قطّ على إساءته، أو نكون نحنُ لم نندم

على شيءٍ كان مئاً قط؟ قال: بل ندم كثيرٌ من المسيئين
على إساءتهم، قال: فَحَبَّرَنِي عن النَّدم على الإساءة، إساءةٌ
أو إحسان؟ قال: إحسان، قال: فالذي ندم هو الذي أساء أو
غَيْرُهُ؟ قال: الذي ندم هو الذي أساء، قال: فأري صاحبَ
الخير هو صاحب الشرِّ، وقد بطل قولكم: إنَّ الذي ينظر
تَطَرَّ الوعيد غيرُ الذي ينظر تَطَرَّ الرحمة، قال: فإني أزعم
أنَّ الذي أساء غيرُ الذي ندم، قال: فندم على شيءٍ كان
منه أو على شيءٍ كان من غيره؟ فقطعه بمسألته، ولم يُثبِّ
ولم يرجع، حتى مات، وأضلاه الله نار جهنم.
شعر في هجو الزنادقة وقد ذكر حمادُ عجردٍ ناساً في هجائه
لبشار، فقال:

كنت زنديقاً عمار
حبوتني
كنت عندك أو تراك
عرفتني
كنت أعبد غير رب محمد
كالنضر أو ألفت كابن
المقعد
جبل وما جبل الغوى
بمرشد
كابن حمادٍ ربيئة دينكم
وحدت ربي مخلف جفوتني بغضاً لكل موحد
وحبوت من زعم السماء والأرض خالقها لها لم يمهد

تكونت

والنسيم مثل الزرع آن منه الحصيد ومنه ما لم
حصاده

وحمّاد هذا أشهر بالزُّنْدَقَةِ من عُمارَةَ بن حريبة، الذي هجاه بهذه الأبيات.
وأما قوله:

وَحَبَّوتَ مَنْ رَعَمَ السَّمَاءَ تَكَوَّنتُ

فليس يقول أحدٌ: إنّ الفلكَ بما فيه من التدبير، تكوّنَ بنفسه ومن نفسه فَجَهِلُ حمّادٍ بهذا المقدارِ
من مقالة القوم، كأنّه عندي ممّا يعرفه من براءته الساحة، فإن كان قد أجابهم فإنما هو من
مقلِّدٍ

وهجا حمّادُ بن الزُّبرقان، حماداً الراوية فقال:

الفتى لو كان يعرفُ ويقيمُ وقتَ صَلَاتِهِ حمّادُ

مَشافِرُهُ الدِّنانُ فَأَنْفُهُ
مِثْلُ القَدومِ يَسْتُنها الحَدَّادُ
وَأَبْيَضٌ مِنْ شَرْبِ المُدَامَةِ فَبِياضُهُ يومَ الحسابِ
سَوادُ

فقد كان كما ترى:

مَشافِرُهُ الدِّنانُ فَأَنْفُهُ مِثْلُ القَدومِ ...

فقد رأيتُ جماعةً ممَّنْ يُعاقِرُونَ الشَّرابَ، قد عظمت أُنْفُهُمْ، وصارت لهم خراطيمٌ، منهم رَوْحُ
الصَّائغِ، وعبدُ الواحدِ صاحبِ اللؤلؤيّ وجماعة من تَدمانِ حمّادِ بن الصَّباحِ، وعبدِ اللّهِ أخو نهر ابن
عسـ كـر و نـ كـ س كـ ثـ

وبدلُّ على ذلك من المنافرة قولُ جَرِيرٍ للأخطل:

وَشَرِبْتَ بَعْدَ أَبِي ظَهيرِ وابنه الدِّنانِ كَأَنَّ أَنْفَكَ دُمْلُ

وكان منهم يونس بن فروة، وفي يونس يقول حمّادُ عجرد:

ابن فروة يونسُ من كبره أير الحمار
فكانه القائم
الناس عندك غير نفسك والخلق عندك ما خلاك

بهايم
الذي أصبحت مفتوناً سيزول عنك وأنف جارك

راغم
فتعض من ندمٍ يدك على فرطت فيه كما يعرض
النادم

رضيت بعصبةٍ وإخاهم لك بالمعرة لازم
آخيتهم
فعلمت حين جعلتهم لك أني لعرض في إخائك
ظالم

ذكر بعض الزنادقة وكان حمّادُ عجرد، وحمّاد الرّاوية،
وحمّادُ بن الزّبرقان، ويونس بن هارون، وعلي بن الخليل،
ويزيد بن الفيض، وعُبادَة وجميل بن محفوظ، وقاسم،
ومطيع، ووالبة بن الحباب، وأبانُ بن عبد الحميد، وعمارة
بن حريية، يتواصلون، وكانهم نفس واحدة وكان بشّارٌ ينكر
عليه

ويونس الذي زعم حمّادُ عجردُ أنّه قد عرّ نفسه بهؤلاء، كان
أشهرَ بهذا الرّأي منهم، وقد كان كتبَ كتاباً لملك الرّوم في
مثالب العرب، وعيوب الإسلام، بزعمه.
هجاء في أبان والزنادقة وذكر أبو نواسٍ أبانُ بن عبد

الحميد اللّاحقي، وبعض هؤلاء، ذكّر إنسانٍ يرى لهم قدرًا
وخطرًا، في هجائيّة لأبان، وهو قوله:

جالست يوماً أباناً	لادر در أبان
حضر رواق ال	أمير بالنهروان
إذا ما صلاة الأ	ولى أتت لأذان
ثم بها ذو	فصاحةٍ وبيان
ما قال قلنا	إلى انقضاء الأذان
كيف شهدتم	بذا بغير عيان
أشهد الدهر حتى	تعاين العينان
سبحان ربي	فقال سبحان ماني
عيسى رسول	فقال من شيطان
موسى كليم ال	مهيمن المنان
ربك ذو مق	لةٍ إذاً ولسان
فنفسه خلقتة	أم من فقتت مكاني
كافرٍ يتمرى	بالكفر بالرحمن
أن يتسوى	بالعصبة المجان
بعجردس وعباد	والوالي الهجان
وقاسم ومطيعس	ريحانة الندمان

وتعجّبي من أبي نواس، وقد كان جالس المتكلمين أشدّ من

تعجّبي من حمّاد، حين يحكي عن قومٍ من هؤلاء قولاً لا يقوله

أحد، وهذه قُرّة عَيْن المهجّو، والذي يقول: سبحان ماني

يعظم أمر عيسى تعظيماً شديداً فكيف يقول: إنّه من قبل

شيطان؟.

وأما قوله: فنفسه خلقته أم من فإن هذه مسألة نجدتها
ظاهرةً على ألسنِ العوامِّ، والمتكلمون لا يحكّون هذا عن
أحد.

وفي قوله: والوالبيِّ الهجان دليلٌ على أنه من شكلهم.
والعجب أنه يقول في أبان: إنّه ممّن يتشبه بعجرد ومُطيعٍ،
ووالبة بن الحباب، وعلي بن الخليل، وأصبغ وأبان فوق ملء
الأرض من هؤلاء، ولقد كان أبان، وهو سكرانٌ، أصحَّ عقلاً من
هؤلاء وهم صحاءٌ، فأما اعتقاده فلا أدري ما أقول لك فيه:
لأنّ الناس لم يُؤتوا في اعتقادهم الخطأ المكشوفَ، من جهة
النظر، ولكنّ للناس تأسٌّ وعاداتٌ، وتقليدٌ للأبائِ والكُبراءِ،
ويعملون على الهوى، وعلى ما يسبق إلى القلوب،
ويستثقلون التّحصيلَ، ويُهملون التّظنرَ، حتى يصيروا في حالٍ
متى عاودوه وأرادوه، نظروا بأبصارٍ كليلة، وأذهانٍ مدخولة،
ومع سوءِ عادّة، والنّفْسُ لا تجيبُ وهي مُستكرهَةٌ، وكان
يقال: العقلُ إذا أكره عمي، ومتى عمي الطّباعُ وجسا وغلط

وأهمل، حتَّى يَألف الجهل، لم يكد يفهم ما عليه وله، فلهذا
وأشباهه قاموا على الإلف، والسَّابِق إلى القلب.

شعر لحماذ عجرد

وقال حمَّادُ عَجْرَدٍ:

اعلَمُوا أَنَّ لُوْدِي
شِعْرِي أَيُّ حُكْمٍ
تَكُونُوا غَيْرَ مُعْطِي
لُقْمَانَ بَنِ عَارٍ
ثَمناً عِنْدِي ثَمِيناً
قَدْ أَرَاكُمْ تَحْكُمُونَ
نَ وَأَنْتُمْ تَأْخِذُونَ
فِي اسْتِ هَذَا الدِّينِ دِينَا
وما رأيت أحداً وضع لقمانَ بَنَ عَادِ فِي هَذَا المَوْضِعِ، غَيْرَهُ.

وقال حَمَّادُ عَجْرَدٍ فِي بَشَارِ:

اعلموا أن لودي
شعري أي حكم
تكونوا غير معطي
لقمان بن عارٍ
ثمناً عندي ثميناً
قد أراكم تحكمونا
ن وأنتم تأخذونا
في است هذا الدين دينا
وما رأيت أحداً وضع لقمان بن عاد في هذا الموضع، غيره! وقال حماد عجرد في بشار:

الخبیثة إن أم
وتبدلت ثوبان ذا ال
دقاق الأزز
كقائمة السر
سمیعة بعدها
لهم كانت تكابر
ك لم تكن ذات اكتتام
أیر المضبر والعرام
بأرواث حسام
یر یبیلها عند الرطام
بالمصمئلات العظام
أن تسافح من قیام
وقال حَمَّادُ يَذْكَرُ بِشَارًا:

الرجسة أو بنتها
وقال وذكر أمه:

عَزَالَةَ يَا بَنِي جُشَمِ لِيَحْقُكُمْ أَنْ تَفْرَحُوا لَا
تَجْزَعُوا

حماد عجرد وبشار

وما كان ينبغي لبشارٍ أن يناظرَ حماداً من جهة الشعرِ وما يتعلَّقُ بالشَّعرِ، لأنَّ حماداً في الحَضيضِ،
وبشاراً مع العُيُوقِ، وليس في الأرض مولدٌ قرويٌّ يُعَدُّ شعرُه في المحدث إلاَّ وبشارٌ أشعرُ منه.
شعر في هجو بعض الزنادقة وقال أبو الشمقمق في جميل بن محفوظ:

جميلٌ على بغله وَقَدْ كَانَ يَعْدُو عَلَى رِجْلِهِ
ويغدو كأيِّرِ الحمارِ وَيَرْجِعُ صِفْراً إِلَى أَهْلِهِ
زَعَمُوا أَنَّهُ كَافِرٌ وَأَنَّ التَّرْنُدُقَ مِنْ شَكْلِهِ
به قد دعاهُ الإمامُ وَأَذِنَ رَبُّكَ فِي قَوْلِهِ

غلو أبي النواس في شعره وأما أبو نُوَاسٍ فقد كان يتعرَّضُ لِلْقَتْلِ بِجَهْدِهِ، وقد كانوا يعجبون من
قوله:

لَا يُدْنِيكَ مِنْ أَمَلٍ مَنْ رَسُولُ اللَّهِ مِنْ نَفَرِهِ

فلما قال:

فأخيبَ قُريشاً لحبِّ واشكُرُ لها الجَزَلَ مِنْ
أَحْمَدِهَا مواهبها

جاء بشارٌ غطَّى غطَّى على على الأول.

وأنكروا عليه قوله:

أكثر التَّسْبِيحِ ما نَجَّاهُ

فلما قال:

أَحْمَدَ الْمَرْتَجَى فِي كُلِّ قُمْ سَيِّدِي نَعِصِ جَبَّارِ
السَّمَوَاتِ

عَطَّى هذا على الأول، وهذا البيت مع كفره مقيتٌ جداً، وكان يُكثِرُ في هذا الباب.
وأما سوى هذا الفنِّ فلم يعرفوا له من الخطأ إلاَّ قوله:

أَمَسْتَخْبَرَ الدَّارِ هَلْ تَنْطِقُ أَنَا مَكَانَ الدَّارِ لَا أَنْطِقُ

إِذْ حَرَسَتْ جَارِمٌ بَيْنَ ذَوِي تَفْنِيدِهِ مُطْرِقٌ

فعابوه بذلك، وقالوا: لا يقول أحد: لقد سكت هذا الحجر، كأنه إنسان ساكت، وإنما يوصف حرس الإنسان بحرس الدار، وبشبهه صممه بصمم الصخر. وعابوه بقوله، حين وصف عين الأسد بالجوظ، فقال:

عَيْنُهُ إِذَا التَّهَبَتْ بَارِزَةَ الْجَفْنِ عَيْنٌ مَخْنُوقٌ

وَهُمْ يَصْفُونَ عَيْنَ الْأَسَدِ بِالغُورِ، قَالَ الرَّاجِزُ:

يَنْظُرُ مِنْ جَوْفِ حَجَرٍ

وقال أبو زبيد:

عَيْنِهِ فِي وَقَبَيْنِ مِنْ قِيصًا اقْتِيَاضًا بِأَطْرَافِ

الْمَنَاقِيرِ

ومع هذا فإنَّ لا نعرف بَعْدَ بَشَّارٍ أَشْعَرَ مِنْهُ. وقال أبو زبيد:

وَعَيْنَانِ كَالْوَقَبَيْنِ فِي مَلَأَ تَرَى فِيهِمَا كَالْجَمْرَتَيْنِ

تَسَعَّرُ

صَخْرَةٍ

قصة راهبين من الزنادقة وحدّثني أبو شعيب القلال، وهو

صُفْرِيٌّ، قال: رُهبانُ الزَّنادِقَةِ سَيَّاحُونَ؛ كَانَهُمْ جَعَلُوا السِّيَّاحَةَ

بَدَلَ تَعَلُّقِ النَّسْطُورِيِّ فِي الْمَطَامِيرِ.

وَمُقَامُ الْمُلْكَانِيِّ فِي الصَّوَامِعِ، وَمُقَامُ النَّسْطُورِيِّ فِي

الْمَطَامِيرِ.

قال: وَلَا يَتَسَيَّحُونَ إِلَّا أَزْوَاجًا، وَمَتَى رَأَيْتَ مِنْهُمْ وَاحِدًا فَالْتَفَتَّ

رَأَيْتَ صَاحِبَهُ، وَالسِّيَّاحَةُ عِنْدَهُمْ إِلَّا يَبِيتُ أَحَدُهُمْ فِي مَنْزِلِ

ليلتين، قال: ويسيحون على أربع خصال: على القُدس،
والطَّهر، والصدِّق، والمسكنة، فأما المسكنة، فأنْ يأكلَ من
المسألة، ومما طابت به أنفُسُ النَّاسِ له حتَّى لا يأكلُ إلَّا من
كسبِ غيره الذي عليه عُزْمُهُ ومأثمه، وأما الطهر فترك
الجَماعِ، وأما الصدِّق فعلى ألا يكذبَ، وأما القُدس فعلى أن
يكتُمَ ذنبه، وإن سئل عنه. قال: فدخل الأهوارَ منهم رجلان،
فمضى أحدهما نحو المقابرِ للغائط، وجلس الآخرُ بقربِ
حانوتِ صائغٍ، وخرجت امرأةٌ من بعض تلك القُصورِ ومعها
حُقٌّ فيه أحجارٌ نفيسة، فلما صعدت من الطَّريق إلى دكان
الصَّائغِ زلقت فسقطَ الحقُّ من يدها، وظلِّمُ لبعضِ أهل تلك
الدُّورِ يتردَّدُ فلما سقطَ الحقُّ وبايئته الطَّبَقُ، تبدَّدَ ما فيه من
الأحجارِ، فالتَّعمَ ذلك الظلِّمُ أعظمَ حَجْرٍ فيه وأنفَسَهُ، وذلك
بِعَيْنِ السَّائِحِ؛ ووثب الصَّائغُ وغلَّمانهُ فجمَعُوا تلك الأحجارَ،
وتَحَّوا النَّاسَ وصاحُوا بهم فلم يدنُ منهم أحدٌ، وفقدوا ذلك
الحجرَ، فصرخت المرأةُ، فكشفَ القَوْمُ وتناحَوا، فلم يصيبوا

الْحَجَرَ، فقال بعضهم: واللّه ما كان بقربنا إلاّ هذا الرّاهبُ
الجالسُ، وما ينبغي أن يكون إلاّ معه فسألوه عن الحجر؛
فكره أن يخبرهم أنه في جوف الظليم فيُدبَح الظليمُ، فيكونَ
قد شاركَ في دَم بعضِ الحيوان، فقال ما أخذتُ شيئاً وبحُثوه
وقَتَّسُوا كلَّ شيءٍ معه وألحُّوا عليه بالضرب، وأقبل صاحِبُهُ
وقال: اتَّقُوا اللَّهَ فأخذوه وقالوا: دفعته إلى هذا حتّى غَيَّبَهُ
فقال: ما دفعتُ إليه شيئاً فضرَبوهما ليموتَا، فبينما هما كذلك
إِذ مَرَّ رَجُلٌ يَعْقِلُ، ففهم عنهُم القِصَّةَ، ورأى ظليماً يتردّدُ
فقال لهم: أكان هذا الظليمُ يتردّدُ في الطريق حينَ سَقَطَ
الحجر؟ قالوا: نعم، قال: فهو صاحبكم، فعَوَّضُوا أصحابَ
الظليم، وذبحوه وشقُّوا عن قانصته، فوجدوا الحجر وقد نَقَصَ
في ذلك المقدارِ من الزَّمانِ شَبِيهاً بِشَطْرِهِ، إلاّ أنها أعطته
لَوْناً صارَ الذي استفادوه من جهةِ اللُّونِ أربحَ لهم من وزنِ
ذلك الشَّطْرِ أنْ لَوْ كَانَ لَمْ يَذْهَبْ.
ونارُ القانصةِ غيرُ نارِ الحجرِ.

القول في النيران وأقسامها

ونحنُ ذاكرونُ جُملاً من القول في النيرانِ وأجناسها،
ومواضعها، وأيِّ شيءٍ منها يضافُ إلى العجم، وأيِّ شيءٍ منها
يضافُ إلى العرب، ونُخبِرُ عن نيرانِ الدِّيانات، وغيرِ الدِّيانات،
وعَمَّن عَظَّمها وعَمَّن استهانَ بها، وعَمَّن أفرطَ في تعظيمها
حتَّى عَبَدَها، ونُخبِرُ عن المواضعِ التي عَظَّم فيها مِنْ شأنِ
النارِ.

نار القربان

فمن مواضعها التي عَظَّمَتْ بها أَنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ جعلها لبني
إسرائيلَ في موضعِ امتحانِ إخلاصهم، وتَعَرَّفِ صدق نياتهم،
فكانوا يتقَرَّبون بالقربان، فَمَنْ كانَ منهم مُخْلِصاً نزلتْ نارٌ
من قِبَلِ السَّماءِ حَتَّى تُحيطَ به فتأْكُلُهُ، فإذا فَعَلَتْ ذلكَ كانَ
صاحبُ القُرْبانِ مُخْلِصاً في تَقَرُّبِهِ، ومَتَى لَمْ يَرَوْهَا وَبَقِيَ
القُرْبانُ على حاله، قَصَّوا بأنَّه كانَ مدخولَ القلبِ فاسيدَ النَّبِيَّةِ،

ولذلك قال الله تعالى في كتابه: "الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهْدَ
إِلَيْنَا آلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِينَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ
جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنَّ
كُنْتُمْ صَادِقِينَ".

والدليل على أن ذلك قد كان معلوماً، قولُ الله عزَّ وجلَّ: "قَدْ
جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ" ثمَّ إِنَّ اللَّهَ سَتَرَ
على عباده، وجعلَ بيانَ ذلك في الآخرة، وكان ذلك التَّدبيرَ
مصلحةً ذلك الزَّمانِ، ووفق طبائعهم وعللهم، وقد كان القوم
من المعاندةِ والعباوةِ على مقدارٍ لم يكن لينجع فيهم وَيَكْمُلَ
لمصلحتهم إلا ما كان في هذا الوزن، فهذا بابٌ من عِظَمِ
شأنِ النَّارِ في صُدور النَّاسِ. وممَّا زاد في تعظيم شأنِ النَّارِ
في صدور النَّاسِ قولُ الله عزَّ وجلَّ: "وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ
مُوسَىٰ، إِذْ رَأَىٰ تَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي
آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ عَلَى النَّارِ هُدًى، فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا
مُوسَىٰ، إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ

طُوًى"، وقال عز وجل: "إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ، فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ".

وكان ذلك مما زاد في قدر النار في صدور الناس. ومن ذلك نار إبراهيم صلى الله عليه وسلم، وقال الله عز وجل: "قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ، قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ" ثم قال: "قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ" فلما قال الله عز وجل: "قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ" كان ذلك ممَّا زاد في نباهة النار وقدرها في صدور الناس.

تنويه القرآن الكريم بشأن النار

وهو قوله عز وجل: "الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ". والنار من أكبر الماعون، وأعظم المنافع المرافق في هذه الدنيا على عباده، ولو لم يكن فيها إلا أن الله عز وجل قد جعلها الزاجرة عن المعاصي، لكان ذلك ممَّا يزيد في قدرها، وفي نباهة ذكرها. وقال تعالى: "أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ أَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ". ثم قال: "نَحْنُ

جَعَلْنَاهَا تَذْكَرَةً وَمَتَاعاً لِلْمُقْوِينَ"، فقف عند قوله: "تَحْرُنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكَرَةً وَمَتَاعاً" فإن كنت بهذا القول مؤمناً فتذكّر ما فيها من النعمة أولاً ثم آخراً، ثم توهم مقادير النعم وتصاريفها. وقد علمنا أنّ الله عدّب الأمم بالعرق، والرياح، وبالخاصب، والرّجم، وبالصّواعق، وبالخشف، والمسح، والجوع، وبالنفص من الثمرات، ولم يبعث عليهم تاراً، كما بعث عليهم ماءً وربحاً وحجارة، وإنما جعلها من عقاب الآخرة وعذاب العقبي، ونهى أن يحرق بها شيء من الهوام، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تُعدّبوا بعذاب الله، فقد عظمها كما ترى". فتفهّم رجمك الله ففهمه فقد أراد الله إفهامك. وقال الله تعالى للتقّيين: "يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّنْ نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْصِرَانِ، فَيَأْتِي آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ"، فجعل الشّواظ والنّحاس، وهما النّار والدخان، من الآية، ولذلك قال على نسق الكلام: "فَيَأْتِي آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ" ولم يعن أن التّعذيب بالنّار نعمة يوم القيامة، ولكنه أراد التّحذير بالخوف والوعيد بها، غير إدخال النّاس فيها، وإحراقهم بها. شعر في بعض النبات وقال المرّار بن منقذ:

أرخلنا بجوٍّ مُخْصِبٍ بِلَوَى عُتَيْرَةٍ مِنْ مَقِيلِ
 التُّرْمُسِ
 حيثُ خالطت الخزامى يأتيك قابسٌ أهلها لم
 عَرَفَجَا يُقَبَسُ

أراد خصّب الوادي ورطوبته، وإذا كان كذلك لم تقدح عيدائه، فإن دخلها مستقبس لم يور ناراً، وقال كثير:

حسبٌ في الحيِّ وارٍ عَفَارٌ وَمَرْحٌ حَتَّهُ الْوَرِي
 عاجل

والعفّار والمرح، من بين جميع العيدان التي تُقدح، أكثرها فني ذلك وأسرعها. قال: ومن أمثالهم: في كلِّ الشّجر نائر، واستمجد المرّح والعفّار.

نار الاستمطار

ونارٌ أخرى، وهي النار التي كانوا يَسْتَمْطِرُونَ بها في الجاهليَّة الأولى؛ فإنهم كانوا إذا تابعت عليهم الأزمات ورَكَدَ عليهم البلاء، واشتدَّ الجَدْب، واحتاجوا إلى الاستمطار، استجمعوا وَجَمَعُوا ما قَدَرُوا عليه من البَقَر، ثم عَقَدُوا في أذُنِهَا وَبَيْنَ عَرَاقِيبِهَا، السَّلْعَ وَالْعُشْرَ، ثُمَّ صَعَدُوا بها في جبلٍ وَعَرٍ، وَأشْعَلُوا فيها النَّيرانَ، وَضَجُّوا بالدُّعاء والتضرُّع، فكانوا يَرَوْنَ أَنَّ ذلك من أسبابِ الشُّقيا، ولذلك قال أُمِّيَّةُ:

أزمةٌ تخيل بالنا ترى للعضاه فيها صبراً
يسفون بالدقيق وكانوا لا يأكلون شيئاً فطيراً
ويسوقون باقراً يطرد مهازبل خشيةً أن يبورا

عاقدين النيران في شكر عمداً كيما تهيج البحورا
فاشتوت كلها فهاج عليهم هاجت إلى صبيرٍ صبيراً
الإله ترشم بالقط وأمسى جنابهم ممطور
فسقاها نشاصه واكف منه إذ رادعوه الكبيراً
ما ومثله عشرٌ ما عائلٌ ما وعالت البنقورا

هكذا كان الأصمعيُّ ينشدُ هذه الكلمة، فقال له علماءُ بغداد: صحفت، إنما هي البيقور، مأخوذة من البق

وأنشد القحزمي للوزل الطائي:

دُرُّ رِجَالٍ خَابَ سَعْيُهُمْ
يَسْتَمْطِرُونَ لَدَى الْأَزْمَاتِ
بِالْعُشْرِ
أَجَاعِلُ أَنْتَ بَيْقُورًا
ذَرِيعَةً لَكَ بَيْنَ اللَّهِ
وَالْمَطَرِ
مُسَلَعَةً

استطرد لغوي قال: ويقال بقر، وبقيير، وبيقور، وباقر، ويقال للجماعة منها قطيع، وإجل، وكور، وأنشد:

فَسَكَنْتَهُمْ بِالْقَوْلِ حَتَّى كَبَّهَ قِرُّ جُلُحٍ أَسَكَنْتَهَا الْمِرَاتِعُ

وأنشد:

شَبُوبٌ مِنَ الثَّيْرَانِ
عَنْ كَوْرِهِ كَثْرَةُ الْإِغْرَاءِ
أَفْرَدَهُ
وَالطَّرْدُ

نار التحالف والحلف

ونار أخرى، هي التي توقدُ عند التَّحَالْفِ؛ فلا يعقدون حلفهم إلاَّ عندها، فيذكرون عند ذلك منافعها، ويدْعُونَ إلى الله عزَّ وجلَّ، بالحرمان والمنع من منافعها، على الذي يُنْقِضُ عَهْدَ الحلف، ويخيس بالعه

ويقولون في الحلف: الدَّمُ الدَّمُ، والهدمُ الهدمُ، يحركون الدالَّ في هذا الموضع؛ لا يزيده طلوعُ الشمس إلاَّ سُدًّا، وطولُ اللَّيَالِي إِلَّا مَدًّا، ما بلَّ البحر صوفة، وما أقام رضوى في مكانه، إن كان جبله

وكلُّ قومٍ يذكرون جبله م، والمشهور م من جبلهم. وربما دتوا منها حتى تكاد تحرقهم، ويهولون على من يُخَافُ عليه العَدُوَّ، بحقوقها ومنافعها، والتَّخْوِيفِ مِنْ جِرْمَانٍ مَنْفَعَتِهَا، وقال الكُمَيْت:

ما أوقد المحلِّفُو
ن للحالفين وما هؤلوا

وأصل الجلف والتخالف، إنما هو من الخلف والأيمان، ولقد تحالفت قبائل من قبائل مُرَّة بن عوف، فتحالفوا عند نارٍ قَدَتُوا منها، وعشُّوا بها، حَتَّى مَحَسَّتْهُمْ، فَسُمُّوا: المحاشن. وكان سيدهم والمطاع فيهم، أبو ضمرة يزيد بن سنان بن أبي حارثة، ولذلك يقول النَّابغة:

مَحَاشِكَ يَا يَزِيدُ فَإِنَّجِيَّعْتُ يَزُبُوعاً لَكُمْ وَتَمِيمَا
وَلِحِقْتُ بِالنَّسَبِ الَّذِي وَتَرَكْتُ أَصْلاً يَا يَزِيدُ دَمِيمَا
عَيَّرْتَنِي

وقوله: تميم يربم يربم: تميمية، فحذف الهاء. التحالف والتعاقد على الملح وربما تحالفوا وتعاقدوا على الملح، والملح شيطان: أحدهما المرقة، والأخرى اللبن، وأنشدوا لشتيم بن حويلد الغزاري:

اللَّهُ رَبُّ الْعِبَادِ وَالْمِلْحُ مَا وَلَدَتْ خَالِدَهُ
وأنشدوا فيه قول أبي الطَّمَحَان:

لَأَرْجُو مِلْحَهَا فِي بَطُونِكُمْ
بَسَطْتُ مِنْ جِلْدِ أُشْبَعَتِ
أَغْبَرَا

وذلك أنه كان جاورهم، فكان يسقيهم اللبن؛

فقال: أرجو أن تشكروا لي ردَّ إبلي، على ما شربتم

من ألبانها، وما بسطت من جلد أشعت أغبر، كآته

يقول: كنتم مهازير والمهزول يتعشف جلده

وينقبض فبسط ذلك من جلودكم. نار المسافر

ونار أخرى، وهي النار التي كانوا ربَّما أوقدوها حلف المسافر، وحلف الرَّاثر الذي لا يحبون رُجوعه، وكانوا يقولون في الدعاء: أبعد الله وأسحقه، وأوقد تاراً خلقه، وفي إثره وهو معنى قول بشار - وضربته مثلاً

صَحوت وَأوقَدت للجهل نَاراً عليك الصَّبَا ما استَعَارَا

وأنشدوا:

أقوامٍ حَمَلت ولم لتوقد نَاراً إثرهم للتندمِ

والجمّة: الجماعة يمشون في الصلح، وقال الراجز في إبله:

في الحقِّ وتُعطي في الجممِ
يقول: لا تندم على ما أعطيت في الحمالة، عند كلام

الجماعة فتوقد خلفهم ناراً كي لا يعودوا،

نار الحرب

ونار أخرى وهي النار التي كانوا إذا أرادوا حرباً، وتوقّعوا جيشاً عظيماً، وأرادوا الاجتماع أوقدوا ليلاً على جبلهم مَنَاراً؛ ليبلغ الخبيزُ أصحابهم. وقد قال عمرو بن كلثوم:

عَدَاةٌ أوقد في خَزَارٍ رَقَدْنَا فَوْقَ رَفْدِ الرَّافِدِيَا

وإذا جدّوا في جمعِ عشائهم إليهم أوقدوا تَارِينَ، وهو قول الفرزدق:

فوارِسُ تغلبَ ابنةِ العدوِّ عليك كلَّ مكانِ

ضربوا الصنّاعَ والملوكَ
وأوقدوا أشرفتا على التيرانِ

نار الحرّتين

ونار أخرى، وهي نار الحرّتين، وهي نار خالد بن سنان، أحد بني مخزوم، من بني قُطيعة بن عبّس، ولم يكن في بني إسماعيل نبيُّ قبله، وهو الذي أطفأ الله به نار الحرّتين، وكانت ببلاد بني عبس، فإذا كان الليلُ فهي نارٌ تسطعُ في السماء، وكانت طيئُ تُفئسُ بها إبلها من مسيرة ثلاث، وربما

نَدَرَتْ مِنْهَا الْعُتُقُ فَتَأْتِي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فَتَحْرُقُهُ، وَإِذَا كَانَ النَّهَارُ فَإِنَّمَا هِيَ دَخَانٌ يَفُورُ، فَبَعَثَ اللَّهُ خَالِدَ بْنَ سَنَانَ فَاحْتَقَرَ لَهَا بئراً، ثُمَّ أَدْخَلَهَا فِيهَا، وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ؛ ثُمَّ اقْتَحَمَ فِيهَا حَتَّى غَشِيَهَا، وَسَمِعَ بَعْضُ الْقَوْمِ وَهُوَ يَقُولُ: هَلَكَ الرَّجُلُ فَقَالَ خَالِدُ بْنُ سَنَانَ: كَذَبَ ابْنُ رَاعِيَةِ الْمَعَزِ، لِأَخْرَجَنَّا مِنْهَا وَجِيبِنِي يَنْدَى فَلَمَّا حَصَرْتُهُ الْوَفَاةَ، قَالَ لِقَوْمِهِ: إِذَا أَنَا مِتُّ ثُمَّ دَفَنْتُمُونِي، فَاحْضُرُونِي بَعْدَ ثَلَاثٍ؛ فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَ غَيْراً أَبْتَرَّ يَطُوفُ بِقَبْرِي، فَإِذَا رَأَيْتُمْ ذَلِكَ فَانْبِشُونِي؛ فَإِنِّي أَخْبَرْتُكُمْ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَاجْتَمَعُوا لِذَلِكَ فِي الْيَوْمِ الثَّلَاثِ، فَلَمَّا رَأَوْا الْعَيْرَ وَذَهَبُوا يَنْبِشُونَهُ، اخْتَلَفُوا، فَصَارُوا فِرْقَتَيْنِ، وَابْنُ عَبْدِ اللَّهِ فِي الْفِرْقَةِ الَّتِي أَبْتَتْ أَنْ تَنْبِشَهُ، وَهُوَ يَقُولُ: لَا أَفْعَلُ إِنِّي إِذَا أُدْعِيَ ابْنُ الْمَنْبُوشِ فَتَرْكُوهُ. وَقَدْ قَدِمَتْ ابْنَتُهُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَبَسَطَ لَهَا رِدَاءَهُ وَقَالَ: هَذِهِ ابْنَةُ تَيْبِ صَيْعَةٍ

قَالَ: وَسَمِعْتُ سُورَةَ: "قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ" فَقَالَتْ: قَدْ كَانَ أَبِي يَتْلُو هَذِهِ السُّورَةَ. نُبُوَّةُ خَالِدِ بْنِ سَنَانَ وَالْمُتَكَلِّمُونَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَذَا، وَيَزْعَمُونَ أَنَّ خَالِدًا هَذَا كَانَ أَعْرَابِيًّا وَبَرِّيًّا، مِنْ أَهْلِ شَرْحٍ وَتَاطِرَةٍ، وَلَمْ يَبْعَثِ اللَّهُ نَبِيًّا قَطُّ مِنَ الْأَعْرَابِ وَلَا مِنَ الْفَدَّادِيْنَ أَهْلِ الْوَبْرِ، وَإِنَّمَا بَعَثَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى، وَسُـ كَانِ الْمـ وَدُنِ. وَقَالَ خُلَيْدٌ عَيْتِينَ:

نَبِيٌّ كَانَ فِي غَيْرِ قَوْمِهِ
وَهَلْ كَانَ حُكْمُ اللَّهِ إِلَّا مَعَ النَّخْلِ
وَأَنْشُدُوا:

الْحَرَّتَيْنِ لَهَا زَفِيرٌ مَسَامِعَ الرَّجُلِ السَّمِيعِ

عبادة النار وتعظيمها

وَمَا زَالَ النَّاسُ كَافَّةً، وَالْأُمَّمُ قَاطِبَةً حَتَّى جَاءَ اللَّهُ بِالْحَقِّ مُوَلِّعِينَ بِتَعْظِيمِ النَّارِ؛ حَتَّى ضَلَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ لِإِفْرَاطِهِمْ فِيهَا، أَنَّهُمْ يَعْبُدُونَهَا.

فأما النار العُلُويَّة، كالشمس والكواكب، فقد عُبدت البتَّة، قال
اللَّهِ تَعَالَى: "وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ
اللَّهِ" .

وقد يجيء في الأثر وفي سُنَّةِ بعض الأنبياء، تعظيمها على
جهة التَّعَبُّدِ والمحنة، وعلى إيجاب الشكر على النِّعْمَةِ بها
وفيها، فيغلط لذلك كثيرٌ من النَّاسِ، فيجوزون الحدَّ. ويزعم
أهلُ الكِتَابِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْصَاهُمْ بِهَا، وَقَالَ: لَا تُطْفِئُوا
النَّيِّرَانَ مِنْ بُيُوتِي، فَلِذَلِكَ لَا تَجِدُ الكِنَائِسَ وَالمَبَيعَ، وَبُيُوتَ
العِبَادَاتِ، إِلَّا وَهِيَ لَا تَخْلُو مِنْ نَارٍ أَبَدًا، لَيْلًا وَلَا نَهَارًا؛ حَتَّى
اتَّخَذَتْ لِلنَّيِّرَانِ البُّيُوتَ وَالسَّدَاتَةَ، وَوَقَّفُوا عَلَيْهَا العَلَاتِ
الكثيرة.

إطفاء نيران المجوس أبو الحسن عن مسلمة وقحدم، أن
زياداً بعث عبد الله بن أبي بكر، وأمره أن يطفئ النيران،
فأراد عبد الله أن يبداً بنارِ جُورِ فيطْفئها، ف قيل له: ليست
للمجوس نَارٌ أعْظَمُ مِنْ نَارِ الكَارِيَانِ مِنْ دَارِ الحَارِثِ، فَإِنْ

أطفأتها لم يمتنع عَلَيْكَ أَحَدٌ، وَإِنْ أَطْفَأَتْ سَافِلَتَهَا اسْتَعْدُّوا
لِلْحَرْبِ وَامْتَنَعُوا، فإِبْدَأْ بِهَا، فخرجَ إلى الكاريان فتحصَّنَ أهلُها
في القلعة، وكان رَجُلٌ من الفرس من أهل تلك البلاد
معروف بالشدة، لا يقدرُ عليه أحد، وكان يمرُّ كلَّ عَشِيَّةٍ بِبَابِ
منزله استخفافاً وإذلالاً بنفسه، فغمَّ ذلك عبدَ الله، فقال: أما
لهذا أَحَدٌ؟ وكان معَ عبد الله بن أبي بكرٍ رجلٌ من عبد
القيس، مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ بطشاً، وكانَ جباناً، فقالوا له: هذا
العبدي، هو شديدُ جبان، وَإِنْ أَمَرْتَهُ به خَافَ القتالَ فلم
يَعْرِضْ لَهُ، فاحتل له حيلةً، فقال: نعم.
قال: فيينا هو في مجلسه إِذْ مرَّ الفارسيُّ، فقال عبد الله:
مارأيْتُ مِثْلَ خَلْقٍ هذا، وما في الأرض كما زعموا أَشَدُّ منه
بطشاً ما يقوى عليه أَحَدٌ فقال العبدي: ما تجعلون لي إن
احتملته حَتَّى أَدْخِلَهُ الدَّارَ وَأَكْتِفَهُ؟ فقال له عبد الله: لك أربعةُ
آلافِ درهم، فقال: تَفُونَ لي بِألفٍ؟ قال: نَعَمْ فلَمَّا كانَ العُد
مرَّ الفارسيُّ، فقام إليه العبديُّ فاحتمله فيما امتنع ولا قَدَرَ أن

يتحرّك، حتّى أدخله الدّار وَضربَ به الأرض وَوَتَبَ عليه النَّاسُ
فقتلوه، وَغُشِيََ على العبدِ حين قتلوه، فلما قُتِلَ أُعْطِيَ
أهلُ القلعةَ بأيديهم، فقتل ابنُ أبي بكرةَ الهرايذةَ ، وأطفأ
النّارَ، ومضى يُطفئُ النّيرانَ حتّى بَلَغَ سِجِسْتَانَ.
تعظيم المجوس للنار والمجوسُ تقدّم النّارَ في التّعظيم على
الماء، وتقدّم الماءَ في التّعظيم على الأرض، ولا تكاد تذكر
الهواء.

نار السعالي والجن والغيلان

ونار أخرى، التي يحكونها من نيران السّعالي والجنّ وهي عَيْرُ نار الغيلان، وأنشد أبو زيد لسّهم بن
الحارث:

قد حضأتُ بُعيدَ هُدًى بدارٍ لا أريدُ بها مُقامًا
تحليلِ راحلةٍ وَعَيْنُ كَالنَّهْأِ مَخَافَةٌ أَنْ تَنَامًا
ناري فقلتُ مَنُونَ أنتمُ فَقَالُوا: الجنُّ قلتُ: عَمُوا
ظَلَامًا
: إلى الطّعامِ فقالَ رَعِيمٌ: نحسُدُ الإنسَ
الطعامًا

وهذا غلط وليس من هذا الباب، وسنضعه في موضعه إن شاء الله تعالى، بل الذي يقع ههنا قول
أبي المطراب عبيد بن أيّوب:

دُرُّ العُولِ أَيُّ رَفِيقَةٍ لِصَاحِبِ قَفْرِ خَائِفٍ مُتَقَفِّرٍ

وَأَوْقَدَتْ بِلَحْنٍ بَعْدَ لَحْنٍ
حَوَالِيَّ نِيرَانًا تَبُوخٌ وَتَرْهَرُّ

نار الاحتيال

وما زالت السدّة تحتال للنّاس جهة النيران بأنواع الحيل، كاحتيال رهبان كنيسة القمامة ببيت المقدس بمصاييحها، وأنّ ريت فناديلها يستوقد لهم من غير نار، في بعض ليالي أعيادهم. قال: وبمثل احتيال السّادن لخالد بن الوليد، حين رماه بالشّرر؛ ليوهمه أنّ ذلك من الأوثان، أو عقوبه على ترك عبادتها وإنكارها، والتعرّض لها؛ حتى قال:

كُفِّرَانِكَ لَا سُبْحَانَكَ إِنِّي وَجَدْتُ اللَّهَ قَدْ أَهَانِكَ
حتى كشف الله ذلك الغطاء، من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

نار الصيد والبيض

ونار أخرى، وهي النار التي تُوقد للطباء وصيدها، لتعشى إذا أدامت النّظر، وتُخْتَل من ورائها، وبطلب بها بيض النعام في أفاحيصها ومكناها. ولذلك قال طفيل الغنوي:

عوازب لم تسمع نُبُوخَ
تَرَّ نَارًا تَمَّ حَوْلِ مُجَرَّمِ
نَارِ بَيْضٍ أَوْ غَرَالٍ مِنَ الْخُنْسِ الْمَنَاجِرِ
تَوَامِ
وقد يُوقدون النيران يُهَوِّلون بها على الأسد إذا خافوها، والأسد إذا عاين النار حدق إليها وتأمّلها، فما أكثر ما تشغله

عن السنن السبعة.

قصة أبي ثعلب الأعرج ومَرَّ أَبُو ثَعْلَبِ الْأَعْرَجِ، عَلَى وَادِي السَّبَاعِ، فَعَرَّضَ لَهُ سَبْعَ، فَقَالَ لَهُ الْمُكَارِي: لَوْ أَمَرْتُ غِلْمَانِكَ فَأَوْقَدُوا نَارًا، وَضَرَبُوا عَلَى الطَّسَّاسِ الَّذِي مَعَهُمْ فَفَعَلُوا فَأَحْجَمَ عَنْهَا، فَأَنْشَدَنِي لَهُ ابْنُ أَبِي كَرِيمَةَ، فِي حُبِّهِ بَعْدَ ذَلِكَ لِلنَّارِ، وَمَدَحِهِ لَهَا وَلِلصَّوْتِ الشَّدِيدِ، بَعْدَ بُغْضِهِ لَهَا وَهُوَ قَوْلُهُ:

فَأَحْبَبْتُهَا حُبًّا هَوِيْتُ وَلَوْ فِي صَمِيمِ النَّارِ تَارِ
خِلَاطِهَا جَهَنَّمَ
وَصِرْتُ أَلَذَّ الصَّوْتِ لَوْ كَأَنَّ طَرْبُ مِنْ صَوْتِ الْحِمَارِ
صَاعِقًا المَرْقَمِ

وروي أَنَّ أَعْرَابِيًّا اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْمَبْرَدُ، فَأَصَابَ نَارًا، فَدَنَا مِنْهَا لِيَصْطَلِيَ بِهَا، وَهُوَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ لَا تَحْرَمْنِيهَا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي

الآخِرَةِ.

حيرة الضفدع عند رؤية النار وممَّا إِذَا أَبْصَرَ النَّارَ اعْتَرَتْهُ الْحِيرَةُ، الضَّفْدَعُ؛ فَإِنَّهُ لَا يَزَالُ يَنْقُ فَإِذَا أَبْصَرَ النَّارَ سَكَتَ.

نار الحباحب

ومن النَّيرانِ نارَ الحُبَابِ وهي أيضاً نارُ أبي الحباب، وقال أبو حَيَّة:

في تقريبه فإذا
انحنى
عليهنَّ في قفٍّ أرثت جنادله

وأوقدَنَ نيرانَ الحباب
والتقى
غصاً تتراقى بينهنَّ ولاولهُ

وقال القُطاميُّ في نار أبي الحباب:

تخويدَ النَّعامِ بَعْدَما
تصوّبتِ الجوزاءُ قَصْدَ

المغاربِ

لطارقٍ ليلٍ مثلُ نارِ

الحبابِ

إنما نيرانُ قيسٍ إذا

اشتوت

ويصفون ناراً أخرى، وهي قريبةٌ من نار أبي الحباب، وكلُّ

نار تراها العينُ ولا حقيقة لها عند التماسها، فهي نار أبي

الحباب، ولم أسمعُ في أبي حبابِ نفسه شيئاً.

نار البرق

وقال الأعرابيُّ، ودَكَرَ البرق:

تُعُودُ به للعودِ جدُّمو النَّارُ تُشعلُ نيراناً فتحترقُ

يقول: كلُّ نارٍ في الدنيا فهي تحرقُ العيدانَ وتُبطلها وتُهلكها،

إلا نارَ البرقِ، فإنَّها تجيءُ بالغيثِ، وإذا غيشتِ الأرضُ ومُطِرتْ

أحدتَ اللهُ للعيدانِ جدَّةً، وللأشجارِ أغصاناً لم تكن.

نار اليراعة

ونارٌ أخرى، وهي شبيهةُ بنار البرق، ونار أبي حباب، وهي نار اليراعة، واليراعة: طائر صغير، إن طار بالنهار كان كبعض الطير، وإن طار بالليل كان كأنه شهابٌ قُذِفَ أو مصباحٌ يطير. الدفء برؤية النار وفي الأحاديث السائرة المذكورة في الكتب، أن رجلاً ألقى في ماء راكداً في شتاء بارد، في ليلة من الحنابس، لا قمر ولا ساهور وإنما ذكر ذلك، لأن ليلة العشر والبدر والطوق الذي يستدير حول القمر، يكون كاسيراً من بزد تلك الليلة قالوا: فما زال الرجل حياً وهو في ذلك تارزاً جامداً، ما دام ينظر إلى نارٍ، كانت تُجاهَ وجهه في القرية، أو مصباحٍ، فلما طَفِئَتْ انْتَفَضَ.

نار الخلاء والهَرَاب

وقال الشاعر:

قُبيلَ الصُّبْحِ بادَرَتْ حَيَا النَّارِ قَدْ أوقَدْتُهَا
لِلْمُسَافِرِ

يقول: بادرت الليل، لأن النار لا تُرى بالنهار، كأنه كان خليعاً أو مطلوباً.

وقال آخر:

لا يثقب النار سفرهُ وتُضحي بها الوجناء وهي

لَهَيْدُ

كَأَنَّهُمْ كَانُوا هُرَابًا، فَمِنْ حَتْمِ السَّيْرِ لَا يُوقِدُونَ لُبْرَمَةً وَلَا مَلَّةً؛ لِأَنَّ ذَلِكَ لَا يَكُونُ إِلَّا بِالنُّزُولِ
وَالْتَمَكِّثِ، وَإِنَّمَا يَجْتَازُونَ بِالْبَسِيسَةِ، أَوْ بِأَدْنَى عُلْقَةٍ، وَقَالَ بَعْضُ اللُّصُوصِ:

بَدَوِ الْحَدِيبِيِّ مَلْسًا نَبَّهْتُ عَنْهُنَّ غَلَامًا غُسًّا
تَعَشَّى فَرَوَةً وَجَلَسَا غُدْوَةً حَتَّى كَانِ الشَّمْسَا
بِالْأُفُقِ الْغَرْبِيِّ تَكْسَى وَرَسَا تَخْبِزَا خَبْزًا وَبُسَا بَسًّا
تُطِيلَا بِمُنَاخِ حَبْسَا وَجَنَّبَاهَا أَسَدًا وَعَبْسَا
قَالَ: وَالْبَسِيسَةُ: أَنْ يَبْلُ الدَّقِيقُ بِشَيْءٍ حَتَّى يَجْتَمِعَ وَيُؤْكَلَ.

نَارِ الْوَشْمِ

وَنَارٌ أُخْرَى، وَهِيَ نَارُ الْوَشْمِ وَالْمَيْسَمِ يُقَالُ لِلرَّجُلِ: مَا نَارُ إِبْلِكَ؟ فَيَقُولُ: عِلَاطٌ، أَوْ خَبَاطٌ، أَوْ حَلْقَةٌ
أَوْ كَذَا وَكَذَا. رَجَزَ لِبَعْضِ اللُّصُوصِ وَقَرَّبَ بَعْضُ اللُّصُوصِ إِبْلًا مِنَ الْهُوَاشَةِ، وَقَدْ أَغَارَ عَلَيْهَا مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَجَمَعَهَا
مِنْ قِبَائِلِ شَتَّى، فَقَرَّبَهَا إِلَى بَعْضِ الْأَسْوَاقِ، فَقَالَ لَهُ بَعْضُ التُّجَّارِ: مَا نَارُكَ؟ وَإِنَّمَا يَسْأَلُهُ عَنِ ذَلِكَ؛
لَأَنَّهُمْ يَعْرِفُونَ بِمَيْسَمِ كُلِّ قَوْمٍ كَرَمَ إِبْلِهِمْ مِنْ لَوْمَهَا، فَقَالَ:

تَسْأَلُنِي الْبَاعَةَ مَا نِجَارُهَا إِذْ زَعَرْتُهَا فَسَمَتُ
أَبْصَارُهَا
دَارِ لِأَنَاسٍ دَارُهَا وَكَلُّ تَارِ الْعَالَمِينَ نَارُهَا
وَقَالَ الْكُرْدُوسُ الْمَرَادِيُّ:

تَسْأَلُنِي عَنِ نَارِهَا وَنِتَاجِهَا وَذَلِكَ عِلْمٌ لَا يُحِيطُ بِهِ
الطَّمْشُ
وَالطَّمْشُ: الْخَلْقُ، وَالْوَرَى: النَّاسُ خَاصَّةً.